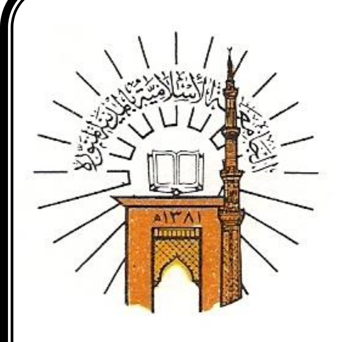


المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(٠٣٢)
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

منهجُ القرآنِ الكَريمِ في الرَّدِّ على المخَالفِينَ في العَقيدةِ وبيَانِ كيفيَّةِ معاملَتِهِم جمعًا ودراسة

رسالةٌ علميَّةٌ مقدَّمةٌ لنيلِ درجةِ العالميةِ (الماجستير)

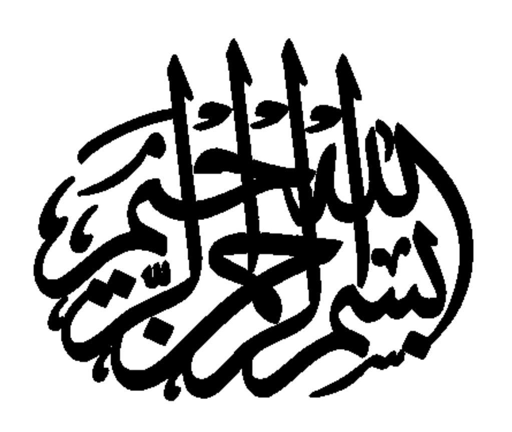
إعداد الطالب

ساري عبد الجليل فرُّوح

إشراف

أ د. عبد القادر محمَّد عطا صُوفي

العام الجامعي: ١٤٣٥-١٤٣٦هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنَّ الله تعالى أنزل القرآن الكريم ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة ١٨٥]، ليخرجَ النَّاس من جاهليةٍ جهلاء، وضلالة عمياء، فهدى الله به خلقًا لا يُحصى عديدُهم، وألزم من حاد عنه بآيات جامعة، وحججٍ دامغة، لا تدع لمكابر حجَّة، إن التزمها سَلِم، وإلا جَرِمَ وأثم.

وقد تعامل القرآنُ الكريم مع جميع أصناف المخالفين معاملةً جليَّة، كجلاء الشَّمس في كبد السَّماء، لا غَبَش فيها ولا خفاء، وأبانَ لهم طريق الحقِّ ومهَّد، وأقام الحجَّة عليهم وأوعد وتوعَّد، وكل هذا ضمن منهج ربانيٍّ قويم، لا يُداخله لبْس ولا عبث، يستفيد منه السَّائرون إلى الله في جميع حركاتهم وسكناتهم وتعاملهم مع الخلق وإرشادهم للحقِّ.

ولما كان القرآن الكريم هو أصلُ الأصول، ومنهجٌ سار عليه الرسول ﷺ، وكانت العقيدة من أعظم ما توسعت به الآيات، وجاءت به الرسالات، وكان لزامًا على طالب مرحلة الماجستير أن يكتب بحثًا في تخصصه= اخترتُ أن يكون موضوع الرسالة:

(منهجُ القرآنِ الكريمِ في الردِّ على المخالفينَ في العقيدةِ وبيانِ كيفية معاملتِهم)

بدفع باطلهم، وتفنيد شببهم، وإرشادهم إلى الخيريَّة في الدُّنيا والآخرة، **ضمن قواعدَ محرَّرة، وأصولٍ محبرة، تنفع كاتبها، وتفيد قاريها**؛ لا سيَّما ونحن في زمان قد برز المخالفون واشرأبَّت أعناقُهم، وكثرت أباطيلهم وزادت شبهاتهم، فلا ترى - بين الفينة

والأخرى - إلا ورأسًا قد ظهر، وكتابًا قد انتشر، فيه من الأعاجيب ما لم ينزِّل الله به من سلطان، ولم يقرَّ به كل ذي عرفان، مع قلة الذَّآبين عن حياض الحقِّ، موازنة مع كثرة المخالفين له والحاقدين عليه.

ولذا كان الردُّ على المخالفين وتفنيدُ شبهاتهم من أعظم أنواع الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى؛ وهو من جهاد الحُجَّة والبيان الذي تميَّز به خاصة أهل الحقِّ - أعزَّ الله مقامهم ورفع قدرهم وأعلى شأنهم -.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان الجهاد نوعين: **جهاد باليد والسِّنان**، وهذا المشارِك فيه كثير. و**جهاد بالحجة والبيان**؛ وهذا جهاد الخاصَّة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادَيْن؛ لعظم منفعته وشدَّة مؤنته، وكثرة أعدائه»(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسِّنان... [وهو] جهاد أنبيائه ورسله وخاصته من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والاتفاق»(٢).

ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث والأسباب الدَّافعة للكتابة فيه، ويظهر ذلك جليًّا في الفقرة التالية.

۞ أهمِّية البحث وأسباب اختياره.

ويظهر ذلك من خلال مايلي:

أولًا: أنه متعلِّق بأشرف الكتب، وهو القرآن العظيم الذي هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩١).

(٢) الكافية الشافية ص(١٠).

ثانيًا: أنه لا سبيل إلى معرفة المنهج الشرعي في التعامل مع المخالفين إلا عن طريق القرآن العظيم وسنة النبي ﷺ، ويظهر ذلك جليًّا بما أورده من قصص الأمم السالفة مع أنبيائهم، وطرق إبطاله لعقائدهم وأقوالهم.

ثالثًا: أن الله جلا وعلا أبطل في القرآن المقالات الباطلة بأحسن أسلوب وأنفعه، مع ما تميز به منهج القرآن من أمور عظيمة في التعامل مع المخالفين؛ بتنوع مشاربهم واختلاف مذاهبهم، والرد عليهم ردًّا وافيًا وشافيًا.

رابعًا: أنه يبين للمسلمين طريقة تعاملهم مع المخالفين، وهذا مما وقع فيه الخطأ وانتشر؛ فمنهم من يغلو في التعامل فيخالف القرآن بغلوه، ومنهم من يفرِّط فيخالف القرآن بتفريطه.

خامسًا: ثم إن الحاجة عظيمة وماسة لبيان منهج القرآن في التعامل مع المخالفين، وبيان أساليبه للناس، وما في ذلك من النصح والبيان للأمة، والتواصي بالحق الذي وصف الله به المؤمنين، وكان من أعظم أسباب نجاحهم وفلاحهم، قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣].

۞ الدراسات السابقة حول الموضوع:

فإنه – على حدِّ علمي – لم يكتب فيه بحث يبيِّن منهج القرآن الكريم في الردِّ على المخالفين في العقيدة، وإن كان قد كتب بعض الباحثين رسائل قريبة من هذا المبحث، وهي على النحو التالي:

أولًا: «المقولات التي أبطلها القرآن الكريم ومنهجه في إبطالها».

وهي رسالة للباحث: وليد محنوس الزهراني.

ومن أبرز الفروق بين كلا الرسالتين:

١- أن الباحث قد اقتصر على المقالات التي أبطلها القرآن الكريم دون التعرض

للرد على المخالفين في العقيدة بشيء من التفصيل، فقد ذكر المقولات المتعلقة بوجود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والمقولات المتعلقة بالإيمان وغيرها.

أما مرادي فهو: ذكر منهج القرآن في الرد على المخالفين، والرد على شبههم، وبيان زيف ادعاءاتهم، وتفنيدها تفنيدًا علميًّا.

٢- أن الباحث قد اقتصر على المنهج التفسيري - بحكم التخصص - في بيان المقالات التي أبطلها القرآن، أما منهجي فهو أعم، وهو دراسة عقدية تأصيلية لا تكتفي بأقوال المفسرين فقط- كما في رسالة الباحث - بل تعنى بكلام علماء الإسلام وأقوالهم، وبخاصة من اشتهر وصنف في علوم العقيدة.

٣- أني أذكر في هذا البحث الشبه التي اعتمد عليها المخالفون وطريقة القرآن في إبطالها، و هذا مما لم يتعرض له الباحث.

٤- أني أذكر منهج القرآن في التعامل مع المخالفين، وهذا أيضًا مما لم يتعرض له الباحث.

٥- أني أجمع في هذا البحث ما ذكره القرآن عن المخالفين في العقيدة، بينما الباحث يذكر جميع المقالات؛ كالمقالات المتعلقة بالفقه، والمقالات المتعلقة بالسلوك والأخلاق وغيرها.

٦- أن الباحث قد تكلم عن المقولات الباطلة المتعلقة بالعقيدة في فصل واحد فقط، مما جعله لا يتوسع في ذكرها، وما ذكر في القرآن من مخالفات في العقيدة وأصحابها المخالفين لمنهج القرآن الكريم لابد فيه من التوسع والبيان، ورسالتي من هذا الباب فقد أفردتها في بيان منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين في العقيدة، وبيان كيفية معاملتهم.

٧- أنني في هذه الرسالة أسلط الضوء على بعض المخالفات التي وقعت عند بعض

من ينتسب إلى الإسلام، ضمن تطبيق عملي يخص واقع عصرنا، ولهذا من الأهمية ما لا يخفى.

ثانيًا: «منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من اليهود والنصارى».

وهي رسالة دكتوراه للباحثة: نادية الشرقاوي قدمتها لجامعة محمد الخامس بالرباط.

الفروق بين رسالتي ورسالة الباحثة نادية الشرقاوي:

١- أن رسالة الباحثة في اليهود والنصارى فقط، ورسالتي عامة في جميع المخالفين في العقيدة، ومعلوم أن القرآن الكريم لم يقتصر في رده على المخالفين من اليهود والنصارى فقط، بل رد وناقش وفند كل مخالف للحق سواء كان كافرا أو دون ذلك، وبين ضلالهم، وأنذرهم وبين عاقبة أمرهم، ووبال إصرارهم على غيهم.

٢- أني أبيِّنُ في بحثي منهج القرآن الكريم في بيان كيفية معاملة المخالفين بجميع أصنافهم، وتنوع مشاربهم، مع بيان حكم مقولتهم والحكم على قائلها، وأما رسالة الدكتورة فهو خاص بأصحاب ملتين كافرتين، وهذا لا يخفى على من تأمل بأن هناك بعدًا جوهريًّا بين الرسالتين.

٣- أبرز في بحثي هذا ما يتعلق بالمخالفين ببيان حكم مقولتهم والحكم على قائلها، أما البحث السابق فهو خاص بأصحاب ملتين كافرتين، دون أن تبرز الباحثة أحكام تلك المخالفات.

ثالثًا: «منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام».

وهي رسالة الباحث: حمود الرحيلي.

والفروق بين رسالتي ورسالة الباحث حمود الرحيلي.

١- أن بحثه كما هو ظاهر في عنوانه، وواضح في مضمونه هو في قسم الدعوة، وبناءً عليه فقد قام بدراسة موضوعه من منطلق دعوي، أما بحثي فدراسته من منطلق عقدي.

٢- أنه ذكر في رسالته المشركين فقط، وأذكر في رسالتي عامة المخالفين في العقيدة.

٣- أن الباحث اعتنى بما يتعلق بالمخالفين في توحيد العبادة، وأعتني في بحثي بذكر جميع المخالفين في العقيدة.

رابعًا: «مقالات المخالفين في أركان الإيمان الواردة في القرآن الكريم».

وهي رسالة الباحث: خالد محمد آل خرصان.

والفروق بين رسالتي ورسالة الباحث

١- أن رسالة الباحث هي في مقولات المخالفين الواردة في القرآن الكريم، بينما رسالتي في منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين في العقيدة.

٢- أن رسالة الباحث في سرد المقولات المخالفة، وليس في منهج القرآن الكريم في تلك المقولات، بمعنى أنه يذكر كل مقولة مخالفة في أركان الإيمان فقط كما وردت في القرآن الكريم دون بقية الأبواب، بينما رسالتي هي منهج القرآن في الرد على المخالفين في العقيدة، وأيضًا هي عامَّة، ولا تقتصر على باب دون آخر.

٣- أن رسالتي اشتملت على ذكر منهج القرآن الكريم في كيفية معاملة المخالفين في العقيدة، وهذا مما لم يذكر في رسالة الباحث.

خطة البحث.

ويتكون البحث من **مقدمة، وتمهيد، وبابين، وخاتمة.**

المقدمة: فتتضمن الافتتاحية، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره.

التمهيد: ففيه التعريف بمصطلحات البحث، وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف المنهج.

المطلب الثاني: التعريف بالقرآن الكريم.

المطلب الثالث: التعريف بالعقيدة.

المطلب الرابع: أهمية معرفة منهج القرآن الكريم في الرد.

المطلب الخامس: اعتناء القرآن بذكر المخالفين وأهمية ذلك.

المطلب السادس: التعريف بالمعاملة.

وأما الأبواب فهي:

الباب الأول: **منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين في العقيدة وتفنيد شبههم.** وفيه فصلان:

الفصل الأول: **منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين في العقيدة.**

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: **الرد على المخالف ببيان حكم مقولته.** وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الرد على المخالفين ببيان أن قولهم كفر.

المطلب الثاني: الرد على المخالفين ببيان أن قولهم بما هو دون الكفر.

المبحث الثاني: **الرد على المخالف ببيان حكمه.** وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الحكم عليه بما هو كفر.

المطلب الثاني: الحكم عليه بما هو دون الكفر.

المبحث الثالث: منهج القرآن الكريم في الرد على المخالف بالتحذير منه.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التحذير من أصحاب المقالات الباطلة بالنهي عن مسلكهم.

المطلب الثاني: التحذير من المخالف بالتوجيه للتعوذ من طريقته.

المطلب الثالث: التحذير من المخالف بالنهي عن التشبه به.

المبحث الرابع: منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين ببيان الفرق بين أهل الحق وأهل الباطل. وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: بيان ما يمتاز به أهل الحق في الدنيا والآخرة عن أهل الباطل من الثواب والنصرة وغير ذلك.

المطلب الثاني: بيان اتفاق أهل الحق في دعوتهم وأنه حجة، بخلاف أهل الباطل.

المطلب الثالث: بيان ما عند أهل الحق من التسليم والإذعان، بخلاف ما عند المخالفين من التألي والتحكم الباطل.

المطلب الرابع: بيان أن من شأن أهل الحق التحاكم إلى الحق، و أهل الباطل بضد ذلك.

المطلب الخامس: بيان ما يمتاز به أهل الحق من عبادة إله واحد وبين من يتعبد لآلهة متعددة.

المطلب السادس: بيان ما يمتاز به أهل الحق من اتباعهم المحكم، وأهل الباطل يتبعون المتشابه.

المبحث الخامس: منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين بكشف مقاصدهم السيئة.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الرد على المخالفين ببيان مقاصدهم.

المطلب الثاني: بيان الأسباب التي أدت إلى تلك المقاصد.

الفصل الثاني: منهج القرآن الكريم في تفنيد شبه المخالفين في العقيدة.

وفيه تمهيد وستة مباحث:

التمهيد: التعريف بالشبهة، ومنهج القرآن في التحذير منها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الشبهة.

المطلب الثاني: التحذير منها.

المبحث الأول: **الرد على الشبه المتعلقة بالإيمان بالله تعالى.**

المبحث الثاني: **الرد على الشبه المتعلقة بالملائكة.**

المبحث الثالث: **الرد على الشبه المتعلقة بالرسل.**

المبحث الرابع: **الرد على الشبه المتعلقة بالكتب.**

المبحث الخامس: **الرد على الشبه المتعلقة بالقدر.**

المبحث السادس: **الرد على الشبه المتعلقة باليوم الآخر.**

الباب الثاني: منهج القرآن الكريم في بيان معاملة المخالفين.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بالعدل والإنصاف ومجادلتهم.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعامل مع المخالفين بالعدل والإنصاف. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بيان القرآن الكريم بأن الله تعالى لم يظلمهم.

المطلب الثاني: توجيه القرآن الكريم المؤمنين بعدم ظلم المخالفين.

المطلب الثالث: صور من العدل والإنصاف مع المخالفين في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بمجادلتهم بالتي هي أحسن.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: توجيه القرآن الكريم المؤمنينَ لمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن.

المطلب الثاني: أصول مجادلة المخالفين كما أوضحه القرآن الكريم.

المطلب الثالث: مقاصد مجادلة المخالفين في القرآن الكريم.

الفصل الثاني: تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بالشدة التي لا تنافي العدل والإنصاف.

وفيه: ستة مباحث:

المبحث الأول: الإعراض عنهم.

المبحث الثاني: التحذير من موالاتهم.

المبحث الثالث: المنع من اتخاذهم بطانة.

المبحث الرابع: منع الاستغفار لبعض الفئات منهم.

المبحث الخامس: عدم إعطائهم العهود والمواثيق إن ظهرت منهم الخيانة.

المبحث السادس: مقابلة استهزائهم ومكرهم ومخادعتهم بمثلها.

الفصـــل الثالـــث: التعامـل مـع المخـالفين باسـتخدام أسـلوب الترغيـب والترهيب.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: **التعامل مع المخالفين باستخدام أسلوب الترغيب**. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ترغيب المخالفين في الأمور الدنيوية.

المطلب الثاني: ترغيب المخالفين في الأمور الأخروية.

المبحث الثاني: **التعامل مع المخالفين باستخدام أسلوب الترهيب**. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ترهيب المخالفين بذكر ما سيقع لهم في الدنيا.

المطلب الثاني: ترهيب المخالفين بذكر ما سيقع لهم في الآخرة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

الفهارس العامة: وهي كالتالي:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس الآثار.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس المحتويات.

۞ المنهج المتبع في البحث:

١- جَمعُ المادة العلمية للبحث من مظانها، وتوزيعها على الأبواب والفصول والمباحث وفقًا للخطة.

٢- عزوُ الآيات القرآنية الواردة في صلب الرسالة إلى سورها، وذكر رقم الآية واسم السورة مع كتابتها بالرسم العثماني.

٣- تخريج الأحاديث من مصادرها؛ فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما أكتفي بالعزو إليهما، وإن لم يكن فيهما خرجته من كتب السنة الأخرى، مع ذكر حكم العلماء على الحديث.

٤- عزو الآثار إلى من أخرجها.

٥- ترجمة للأعلام غير المشهورين الوارد ذكرهم في صلب الرسالة ترجمة موجزة.

٦- التعريف بالمصطلحات والألفاظ الغريبة الواردة في صلب الرسالة.

٧- وضع فهارس علمية في آخر البحث تسهيلًا للإفادة منه.

شكر وتقدير

أحمدُ الله ﷻ أولًا وأستغفره من جميع ذنوبي؛ وأتمثل قول الرَّاجز(١): [بحر الرجز]

أحمَــــدُهُ ســــبحانَهُ وأشــــكُرُه ومــن مســاوِي عَمَلِــي أَسْــتَغفِرُه
وأســتعينُه علــى نيــلِ الرِّضــا وأســتمدُّ لطفَــهُ في مــا قضَــى

وأثنِّي بالشكر لوالدي الكريمين، ممتثلًا قول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[لقمان: ١٤] فرحمَ الله الوالد وغفر له الذُّنوب والخطيَّات، وحفظ الوالدة وختم لها بالأعمال الصالحات.

ثم أشكر شيخي الفاضل الأستاذ الدكتور **عبد القادر محمد عطا صوفي** حفظه الله ورعاه، وبالخير كافاه، على تفضُّله بالإشراف عليَّ، وجبر تقصيري وما سودَتْهُ يَدَيَّ.

ثم من باب قول النبي ﷺ: (مَنْ لا يَشكُرُ النَّاسَ لا يَشكُرُ الله)(٢)، مع ما ضمَّنتُهُ شعرًا بقولي: [البحر البسيط]

جــازِ العطــاءَ بشُــكرٍ واكسُــهُ أدبًــا لا يشــكرُ اللهَ مــن لا يشــكرُ النَّاسَــا
فــإنْ فعلــتَ بحســن زانَــه أدبٌ كنـتَ كمـنْ رصَّـع التِّيجـانَ ألماسَـا

فإني أتقدُّم بالشكر الجزيل والثناء الجميل إلى **المملكة العربية السُّعودية** أعزَّ الله ناديَها(٣)، وأذلَّ الجبار أعاديَها، درَّةُ التوحيد، والحصنُ العتيد في محاربة الشرك والتنديد،

(١) من منظومة «سلم الوصول إلى علم الأصول» للعلامة حافظ حكمي رحمه الله تعالى (١/ ٢٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٧٤٩٥)، والترمذي في جامعه كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، برقم (١٩٥٤)، وقال:«هذا حديث صحيح».

(٣) أي قومها وأهلها؛ يقال: نادي الرجل: أي أهله وعشيرته؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴾ [العلق: ١٧] قال ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٣٨): «أي: قومه وعشيرته».

ممثلة **بجامعتها الإسلامية** التي لا يُعرفُ لشمسها مغيب، بضمِّها البعيدَ والقريب[١]، ولست أبالغ إن قلت: إنها **اللؤلؤة المكنونة، والجوهرة المصونة**، «**منار السبيل**» و«**إرواء الغليل**»، و«**تحفة الأريب**» و«**منحة القريب المجيب**» حماها الله من كل ضيْر، وجزى القائمين عليها كل خير.

كما أشكر فضيلة شيخي الأستاذ الدكتور إبراهيم بن عامر الرحيلي- حفظه الله ومتعنا بعلمه -، وفضيلة شيخي الدكتور عبد العزيز بن جليدان الظفيري - حفظه الله وسدده - بتفضلهما عليَّ مشكورين بمناقشة هذه الرسالة وإقامة أودِهَا، وإصلاح مائدها.

وأشكر كل من أعانني من مشايخي وإخواني بنصح أو مشورة لإتمام هذه الرسالة فجزاهم الله عني كل خير.

فمن شكرَ المعروفَ يوماً فقد أتى ... أخا العُرفِ من حُسنِ المُكافأةِ من عَلِ

وفي الختام:

فإني لم آلُ جهدًا ولم أدَّخر وسعًا في إخراج هذا البحث على الصُّورة المرضيَّة، وهذا البحث من عمل البشر؛ يعتريه نقص وتقصير، وعجز ليس بيسير، فما كان فيه من صواب فمن الله - وتوفيقِه - ﷻ، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان الأخسِّ الأذل.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أعني المسافات؛ ولذلك يقال: إن الجامعة الإسلامية قد ضمت في رياضها الغنَّاء، وربوعها الفيحاء من شتى بقاع الأرض، فلا تغيب عنها الشمس لتنوع طلابها؛ الذين انسابوا من كل حدب وصوب - انسياب الماء الزلال من أعالي الجبال- ينهلون من علومها ويرتشفون من فنونها.



التمهِيد

التعريف بمصطلحات البحث

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تعريف المنهج.

المطلب الثاني: التعريف بالقرآن الكريم.

المطلب الثالث: التعريف بالعقيدة.

المطلب الرابع: أهمية معرفة منهج القرآن الكريم في الرد.

المطلب الخامس: اعتناء القرآن بذكر المخالفين وأهمية ذلك.

المطلب السادس: التعريف بالمعاملة.

المطلب الأول

تعـريف المنهـج

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تعريف المنهج لغة.

وهي كلمة مشتقة من مادة: نهج، ينهجُ، نهجًا، ومنهاجًا، ومعناه يدور على أصلين:

«**أحدهما: النَّهج**: الطريق؛ ونهجَ لي الأمرَ: أوضَحَهُ، وهو مستقيمُ المنهاج. والمنهج: الطريق أيضًا، والجمعُ: المناهج.

الثاني: الانقطاع؛ يقال: أتانا فلانٌ ينهَجُ، إذا أتى مبهورًا منقطعَ النَّفَس. ومن الباب: نَهَجَ الثوبُ وأنهَجَ: أخلَقَ ولما ينشَقُّ»[١].

ولذا فإن كلمة المنهج قد تُستخدمُ الكلمة في عدة معانٍ؛ منها:

١- **الطريق**؛ وهذا الاستعمال يوصف النَّهج بما يليق به من أوصاف، كالصحة والفساد والاستقامة والاعوجاج ونحو ذلك، فيقال: فلانٌ مستقيمُ النَّهجِ والمنهج والمنهاج[٢].

٢- **الوضوح والبيان**؛ فيُقال: نهجَ الطريقُ أو الأمرُ وأنهج: وضحَ واستبان، ونَهْجتُ الطريقَ وأنهجتُه: أوضَحْتُه وبيَّنتهُ، واستنْهجَ الطَّريق: صار واضحًا بيِّنًا، واعملْ على ما نهجتُه لك: أي أوضحتُه وبينتُه[٣].

٣- **سلوك الطريق أو الطريق المسلوك**؛ فيقال: نَهَجَ الطَّريق: سَلَكَهُ، وفلانٌ يستنْهِجُ

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٣٦١).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٣٦١).

(٣) العين للفراهيدي (٣/ ٣٩٢)، وتهذيب اللغة للأزهري (٦/ ٤١).

طريق فلان: أي يسلكُ مسلَكَهُ، والمنهج: الطريقُ المنهوج، أي: المسلوك[١].

٤- **واضحُ الطَّريقِ وبيِّنُه**[٢].

وبناءً على ما تقدم يمكن أن يقال: إن معنى قولنا: منهج القرآن الكريم يشمل ما يلي:

١- الطريق الواضح البيِّن للقرآن الكريم.

٢- ما سلكه القرآن وسار عليه.

٣- ما أوضحه القرآن وبينه.

فمنهج القرآن: **هو الطريقُ الواضحُ البيِّن الذي سلكَه وسار عليه، وأوضحَه غايةَ الإيضاح، وبينه أتمَّ البيان.**

المسألة الثانية: تعريف المنهج شرعًا.

تقدم أنَّ المعنى اللغوي للمنهج هو: الطريقُ الواضحُ البيِّن، ومعناه في الاصطلاح قريب من معناه اللغوي، ولا يبعد عنه؛ ولذلك اتفق العلماء في المعنى العام لتعريفه الاصطلاحي، واختلفت ألفاظهم قليلًا في التعبير عنه.

ومن أقوالهم في ذلك:

قول الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا المنهاجُ، فإنَّ أصله: الطريق البيِّن الواضح»[٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المنهاج: الطريق المستمر؛ وهو النَّهج والمنهج»[١].

---

(١) الصحاح (٢/ ٣٩٦)، والأفعال لابن القطاع (٣/ ٢٢١)، وتاج العروس (٦/ ٢٥٣)، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص (٦٨١).

(٢) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي للهروي ص (٤٢١).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٨/ ٤٩٣).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطريق الواضح السَّهل»[٢]. وثمَّة أقوالٌ أخرى عن غيرهم بألفاظٍ متقاربة.

ومن هنا يتبين أنَّ المراد بـ(**منهج القرآن الكريم**) في هذا البحث هو: **الطرقُ والأساليبُ الواضحةُ البيِّنة التي سلكها القرآنُ الكريم في الردِّ على المخالفين في العقيدة.**

=

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/ ٢١١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٨٣).

المطلب الثاني

التعريف بـ (القرآن الكريم)

ويشتمل التعريف بالقرآن الكريم في هذا المطلب على أربع مسائل:

المسألة الأولى: تعريف القرآن؛ لغةً وشرعًا.

أما تعريفه **لغةً**: فقد اختلف أهل اللغة في معنى كلمة (القرآن)على قولين:

أحدهما: أن القرآن اسمٌ لكتاب الله تعالى وليس مشتقًّا من مادة يرجع إليها، سواء من (قرأ) أو من غيرها، وذلك لأنه عَلَمٌ على كتاب الله تعالى؛ مثل التوراة والإنجيل، وعليه قالوا: إنه غير مهموز ويلفظ (القُّران)[(١)].

وإليه ذهب السيوطي وقال: «وبه قرأ ابن كثير، وهو مرويٌّ عن الشافعي؛ أخرج البيهقي والخطيب وغيرهما عنه أنه كان يهمزُ قرأتُ ولا يهمز القرآن، ويقول: القُران اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولكنه اسمٌ لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل»[(٢)].

الثاني: أنَّ لفظ القرآن في الأصل مصدرٌ مشتقٌ من (قرأ)، فيقال: قرأ قراءةً وقرآنًا، **ويأتي بمعنى الجمعُ والضم**، فيقال: «قرأتُ الشيء قرآنًا: جمعتُه، وضمَمْتُ بعضَهُ إلى بعض»[(٣)].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمِّي القرآنُ قرآنًا: لأنه جَمَعَ القَصَصَ والأمرَ والنهيَ والوعدَ والوعيدَ والآياتِ والسُّورَ بعضَها إلى بعضٍ؛ وهو مصدرٌ؛ كالغفران

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٤٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٤٤).

(٣) لسان العرب (١/ ١٢٨) وهذا مخالف لقول أهل السنة؛ لأن القراءة فعل العبد، .

والكفران»[١].

وأمَّا تعريفه – أي القرآن –شرعًا: فهو اسمٌ لكلام الله تعالى المنزَّل على محمَّد ﷺ، باللفظ العربي المُعجِز، المنقول بالتواتر، المكتوب في المصحف، المتعبَّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس، وهو اسمٌ لكتاب الله خاصَّة، ولا يسمَّى به شيءٌ من سائر الكتب[٢].

المسألة الثانية: أسماء القرآن وأوصافه.

تعدَّدت أسماء كتاب الله تعالى وكذا أوصافُه.

فمن أسمائه:

١- **القرآن:** كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٩] والآيات التي ورد ذكرُ هذه التسميةِ فيها كثيرة.

٢- **الكتاب:** كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٢].

وقد كثُرَ ذكرُ لفظي (القرآن) و(الكتاب) في القرآن الكريم؛ ذلك أن تسميته قرآنًا كونُه متلوًّا بالألسنة، وتسميتَه كتابًا كونُه مدونًا بالأقلام، وفي هذا إشارةٌ إلى أنه لابد من العناية به حفظًا في الصدور، وكتابة في السطور[٣].

٣- **الفرقان:** كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾

---

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤/ ٥٢).

(٢) انظر: الواضح في علوم القرآن لمصطفى البغا ص (١٥)، وكتاب التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلم للدكتور عبد الرحيم المغذوي ص (٧).

(٣) انظر: النبأ العظيم؛ للدكتور محمد دراز (١٢-١٣).

[الفرقان: ١].

٤- **الذكر**: كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩].

وأما أوصافه فكثيرة؛ منها:

١- **أنَّه نور**؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾[النساء: ١٧٤]؛ وقوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾[المائدة: ١٥].

٢- **الروح**: كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢].

٣- و**أنَّه هدًى وشفاء ورحمة وموعظة**؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

٤- **وأنه مبارك**؛ كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩].

٥- **وأنه بشرى**؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[النحل: ٨٩].

٦- **وأنه مبين**؛ كما في قوله: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾[النمل: ١].

٧- **وأنه مجيد**؛ كما في قوله تعالى: ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴾[البروج: ٢١].

٨- **وأنه بشير ونذير**؛ كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[فصلت: ٣-٤].

٩- **وأنَّه عزيز**؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ

﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[فصلت: ٤١ – ٤٢].

المسألة الثالثة: خصائصه.

من خصائص القرآن الكريم:

١- **الشُّمول**: فالقرآن شاملٌ لكل ما يحتاجه الإنس والجن؛ من جميع الجوانب الدينية والدنيوية. قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩].

فهو شامل للجانب العقدي، وما فيه من توحيد الله تبارك بجميع أنواعه، وكذلك بيان أركان الإسلام، وأركان الإيمان، مع ربط الكون والإنسان بالله الواحد الديان.

كما أنَّه شاملٌ للجانب التشريعيِّ لمختلف مناحي الحياة؛ فيشمل العبادات، والمعاملات، والعقوبات، والسياسات وغيرها؛ مما يقوِّمُ سلوكَ الإنسان وينظِّمُ حياتَه ومعيشتَه.

٢- **الوضوح**: فهو واضح قريب من عقل الإنسان وقلبه؛ فليس غامضًا ملتويًا: كمسالك الفلاسفة، أو متقعرًا مشكلًا: كمسالك المتكلمين؛ بل هو قريب من الناس على اختلاف أفهامهم ومستوياتهم، يخاطب العقل والعاطفة، فيقنع العقول، ويصل إلى شغاف القلوب.

٣- **الحفظ**: فإن الله تعالى قد تكفل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩].

فهو محفوظٌ من التحريف والتبديل والضياع والزيادة والنقصان، وليس كما حدث للكتب السماوية الأخرى.

ومن هنا يظهر ضلال الرافضة حينما زعموا - زورًا وبهتانًا - أن القرآن الكريم

محرَّف؛ حرفه أصحاب النبي ﷺ وأنقصوا منه وزادوا فيه[١]. فلبئس ما قالوا ولبئس ما اعتقدوا.

٤- **عجز الخلق عن الإتيان بمثله:** فإن الله ﷻ قد تحدَّى به الثقلين من الإنس والجن، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨].

«فتحدَّى بأقصرِ سورة من سوره مصاقع[٢] الخطباء، من العرب العرباء[٣]؛ فلم يجد به قديرًا، وأفحَمَ من تصدَّى لمعارضتهِ من فصحاءِ عدنانَ وبلغاءِ قحطانَ حتى حسبوا أنهم سُحروا تسحيرًا»[٤].

٥- **اليسر والسهولة**: وذلك أنَّ الله تعالى قد يسره للناس وجعله سهلًا؛ قال الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ٤٠]. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: سهَّلنا لفظه، ويسَّرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس»[٥].

---

(١) وأول من قال بذلك: شيخُهم هشام بن الحكم المتوفى (١٩٠هـ)؛ فإنَّه زعم أنَّ القرآن قد وُضع في زمن الخليفة عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأنَّ القرآن الحقيقي قد صُعِدَ به إلى السماء عندما ارتدَّ الصحابة عن الإسلام - على حد زعمه - !!. انظر: التنبيه والرد للملطي ص (٢٥-٢٦).

(٢) مصاقع الخطباء: أي: بلاغة الخطباء؛ قال ابن منظور في لسان العرب (٨/ ٢٠١): «الصَّقْعُ: البلاغة في الكلام، والوُقُوعُ على المعاني، والصَّقْعُ: رَفْعُ الصَّوْتِ». ، ويقال: خطيبُ مِصْقَع إذا كان بليغًا فصيحًا.. انظر: جواهر الألفاظ لقدامة ابن جعفر (٣١٢).

(٣) العرب العرباء والعرب العاربة: هم العرب الأقحاح الخُلَّص الذين لم تدخلهم العجمة، والعرباء والعاربة أُخذ من لفظة العرب وأُكِّد بها. انظر: الكليات للكفوي (١٠١٩).

(٤) تفسير البيضاوي (١/ ٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٧٨).

لذلك نجد كثيرًا من أطفال المسلمين فضلًا عن رجالاتهم وشيوخِهم قد سَهُلَ عليهم حفظَه عن ظهر قلب، وما ذلك إلا لأنَّ الله تعالى قد يسره للنَّاس.

٦- **الخاتم**: وذلك أن الله تعالى جعلَه شاملًا لجميع الخلق وخاتمًا للكتب.

فأما كونه عامًّا وشاملًا لجميع الخلق: ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢].

قال الماوردي(١): «وفي (العالمين) وجهان؛ **أحدهما**: الجنُّ والإنس، قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. **الثاني**: كل أمةٍ من أممِ الخلق ممَّن يُعرف ولا يُعرف»(٢).

وأما كونه خاتمًا للكتب: فذلك لأنه أُنزِلَ على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، وخُتِمَ به دين الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان؛ فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمَّه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا»(٣).

---

(١) هو: علي بن محمد بن حبيب؛ أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي، صاحب التصانيف المليحة الجيدة؛ روى عنه الخطيب ووثَّقه. وليَ القضاء ببلدان كثيرة، وله تصانيف عديدة منها: (النكت والعيون) في التفسير، وكتابا (الحاوي) و(الإقناع) في الفقه، و(أدب الدين والدنيا) وغيرها، وكان متَّهمًا بالاعتزال، مات سنة (٤٥٠ هـ). انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٨٠)، شذرات الذهب (٣/ ٢٨٥-٢٨٧).

(٢) النكت والعيون للماوردي (٦/ ٧٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٦).

وهذا نذرٌ يسير من خصائص كتاب ربنا جل في علاه، وهي تزيد على ذلك أضعافًا، وقد بسطها الباحثون وتوسعوا في بيانها.

المسألة الرابعة: عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن الكريم.

اتفق أهل السنة من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف على أن القرآن الكريم كلام الله تبارك وتعالى(١)، أنزله الله على نبيِّه محمد ﷺ.

وذهب طوائف من أهل الباطل إلى أن كلام الله تعالى مخلوق، وأن القرآن الكريم «ليس هو كلام الله وإنما كلامه المعنى القائم بذاته، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى»(٢).

وقد ردَّ علماء أهل السنة والجماعة تلك الأغاليط والمجازفات، وصنَّفوا في ذلك تصانيف عديدة، وأبواب فريدة؛ ذبُّوا فيها عن كتاب الله ﷻ، فجزاهم ربُّنا عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

(١) وزاد أهل السنة في مطلع القرن الثاني الهجري أن (القرآن كلام الله غير مخلوق)، وهذا من باب الردِّ على أهل البدع القائلين بخلق القرآن، وليس تقريرًا للاعتقاد. قال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مختصر العلو ص (١٧): «إن لفظة (غير مخلوق) لا تعرفها الصحابة؛ وإنما كانوا يقولون فيه: (كلام الله تبارك وتعالى)؛ لا يزيدون على ذلك، وكان ينبغي الوقوف فيه عند هذا الحدِّ، لولا قولُ جهمٍ وأشياعه من المعتزلة: (إنه مخلوق)، ولكن إذا نطق هؤلاء بالباطل، وجب على أهل الحق أن ينطقوا بالحقِّ ولو بتعابيرَ وألفاظٍ لم تكن معروفة من قبل...».

وقال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معجم المناهي اللفظية ص (٥٩٦): «وإذا استقرأتَ هذا وجدتَهُم يذكرون مثل هذه الألفاظ في مقام الردِّ على أهل الأهواء ومنهم نفات الصفات، أما في مجال تقرير الاعتقاد ابتداءً فإنهم يقتصرون على ألفاظ النصوص».

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٢٠).

ومن تلكم الردود والردود كثيرة جدًّا وأذكر مثالين عليها:

الاستدلال بقوله الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ على أن القرآن غير مخلوق؛ والاحتجاج بهذه الآية من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى فرَّق بين الخلق والأمر، وهما صفتان من صفاته، أضافهما إلى نفسه، أما الخلق ففعله، وأما الأمر فقوله، والأصل في المتعاطفين التغاير إلا إذا قامت القرينة على عدم إرادة ذلك، وهنا قد قامت القرائن على توكيد الفرق بينهما ، ومنها الوجه الآتي .

الثاني: أن الخلق إنما يكون بالأمر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فقوله تعالى: (كن) هو أمره، فلو كان مخلوقًا لاحتاج خلقه إلى أمر، والأمر إلى أمر، إلى ما لا نهاية ، وهذا باطل(١) .

وقد احتج الإمام أحمد رحمه الله على الجهمية المعتزلة بهذه الآية فقال: «قلت: قال الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ففرق بين الخلق والأمر(٢).

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٢).

(٢) رواه حنبل في المحنة (ص٥٣).

فأخبر تعالى أن كلماته غير متناهية، فلو أن البحار التي خلق الله كانت مدادًا تكتب به، والشجر الذي خلق الله أقلامًا تخط به، لنفد مداد البحور، ولفنيت الأقلام، ولم تفن كلمات الله.

وإنما في هذه الإبانة عن عظمة كلامه تعالى، وأنه وصفه وعلمه، وهذا لا يقاس بالكلام المخلوق الفاني، إذ لو كان مخلوقًا لفني من قبل أن يفنى بحر من البحور، ولكن الله تعالى إنما كتب الفناء على المخلوق لا على نفسه وصفته[١].

(١) انظر: مختصر الصواعق (١/ ٤٣).

المطلب الثالث

التعريف بالعقيدة

لا شك أن العقيدة هي الأساس التي يرتكز عليها الإنسان في حياته، فلذلك ينبغي أن تكون هذه العقيدة عقيدةً صحيحة مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيِّه ﷺ.

فالعقيدة أغلى ما يملك المرء في دينه ودنياه؛ فهي سفينة النجاة من بحر الظلمات، وهي الحياة والأخلاق، وأساس كل شيء، فلا يُستغنى عنها ولا يظمئ الراوي منها.

والعقيدة الصحيحة هي التي تقود العبد لسعادة الدارين، فإذا صحت وكمل الإيمان حسنت الأخلاق؛ وضد ذلك يؤدي إلى التخلق بالأخلاق السيئة والأفعال القبيحة.

لذلك كانت العقيدة ضرورة لا يستغني عنها الفرد ولا المجتمع؛ ضرورة للفرد كي يطمئن ويسعد، وضرورة للمجتمع كي يستقر وينهض.

ولما كانت العقيدة بهذه الأهمية العظيمة، والمنزلة الرفيعة، كان من الواجب بيان معناها وتعريفها؛ ويتضح ذلك في مسألتين:

المسألة الأولى: تعريف العقيدة لغةً.

العقيدة: من الفعل عَقَدَ، وهو الرَّبطُ والشّدُّ بقوة، ومنه الإحكامُ والإبرامُ، والتماسك والُمراصَّة، فيقال: عقد الحبل يعقده: شدَّهُ، ويقال: عقَدَ العهدَ والبيعَ: شدَّه، وعقَدَ الإزارَ: شدَّه بإحكام[(١)].

قال ابن فارس[(٢)]: «العينُ والقافُ والدَّالُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على شَدٍّ وشِدّةٍ وُثوق،

(١) انظر: لسان العرب (٣/ ٢٩٦)، والقاموس المحيط للفيروزابادي (٣٨٣)، ومقاييس اللغة (٤/ ٨٦).

(٢) هو: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين؛ من أئمة اللغة والأدب، أصله من =

وإليه ترجعُ فروعُ البابِ كلُّها»(١)، وقال ابن منظور: «العَقْد نقيض الحَلِّ؛ يقال: عَقَدَه يَعْقِدُه عَقْدًا وتَعْقادًا وعَقَّده»(٢).

وإذا أضيف العَقْد إلى اليمين يكون معناه التوكيد؛ فيقال: عقدَ فلانٌ اليمينَ إذا وَكَّدَها(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]. أي وكَّدتم؛ على قراءة التشديد(٤).

المسألة الثانية: تعريف العقيدة اصطلاحًا.

ولها معنيان:

معنًى عام: وهو كل ما يَجزِمُ به الإنسان، ويصدِّقُ به من غير شكٍّ، ويتيقَّنُه في قرارةِ نفسه؛ سواءٌ كان حقًّا أم باطلًا(٥). وهذا المعنى العامُّ يندرج تحته كلُّ من اعتقدَ عقيدةً؛

=

قزوين، وأقام مدة في همذان. ومن أشهر كتبه: (مقاييس اللغة)، و(المجمل)، و(جامع التأويل في التفسير)، توفي في الري سنة (٣٩٥ هـ). سير أعلام النبلاء (١٧ / ١٠٣).

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٨٦).

(٢) لسان العرب (٣/ ٢٩٦).

(٣) انظر: تهذيب اللغة (١/ ٤٩).

(٤) وفيه ثلاث قراءات: **بالتخفيف** للقاف (عقَدْتُم): أي شددتم، ومنه قول الحطيئة:

قومٌ إذا عقَدوا عقدًا لجارِهِمُ   شدُّوا العِناجَ وشدوا فوقه الكَرَبا

وبالتشديد (عقَّدْتُم) أي وكَّدتُم. **وبإضافة الألف بعد العين** (عاقدتم): وذلك لا يكون إلا من اثنين في الأكثر. انظر: السبعة في القراءات (١/ ٢٤٧)، والحجة للقراء السبعة (٣/ ٢٥١)، وشرح طيبة النشر في القراءات (٢٢٠)، وينظر أيضًا: معالم التنزيل (٣/ ٩٠)، والجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٦٦).

(٥) انظر: مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة للعقل ص (٩)، وفرق معاصرة للعواجي (١/ ٩٢)، =

صحيحة كانت أو غير ذلك(١).

معنًى خاص: وهو ما يدينُ به الإنسانُ ربَّه، ويعتقدُه من أصول الدِّين(٢).

أمَّا العقيدة الإسلامية: فهي الإيمانُ الجازمُ بربوبيَّةِ الله تعالى وألوهيَّتِهِ وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه، وسائر ما ثبت من أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التامُّ لله تعالى في الأمر، والحكمِ، والطاعةِ، والاتِّباعُ لرسوله ﷺ(٣).

=

وعقيدة أهل السنة والجماعة لمحمد الحمد ص (٨)، وشرح العقيدة الطحاوية للراجحي (١/ ٥).

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٦١٤)، وانظر: مدخل لدراسة العقيدة لعثمان جمعة ضميرية ص (١٢١).

(٢) انظر: منهج أهل السنة والجماعة في تدوين علم العقيدة؛ للدكتور ناصر الحنيني (١/ ٦٦).

(٣) انظر: مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة لناصر العقل ص (٩)، والوجيز في عقيدة السلف لعبد الحميد الأثري ص (٣).

المطلب الرابع

أهمية معرفة منهج القرآن الكريم في الرد

يُعتبر الردُّ على المخالف من الأمور التي أَولاها القرآن الكريم عنايتَه؛ ولذا تنوَّعتْ أساليبه وعباراته في الردِّ على المخالفين ومجادلتِهم، وما ترك قومًا حادوا عن جادَّة الحقِّ وزاغوا عنها إلَّا وجادلهم جدال القاطعين، وأبدلهم الشكَّ باليقين، فمنهم من آبَ من غمْرَتهِ، ومنهم من بقيَ حبيسَ غيِّه وسكْرته.

لذا كان لزامًا على من تصدَّى للردِّ على أهل الباطل - من أهل الحقِّ - أن يعتنيَ بكتاب الله عنايةً عظيمة؛ حفظًا وتفسيرًا وفهمًا لآياته ومعانيه، وكذا الاستفادة من بلاغته ومبانيه، والإلمام بما تضمَّنه من جداله للمخالفين، وإبطالهِ لشُبَهِ المفترين والمعاندين.

وتظهر أهمية معرفة منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين من خلال ما يلي:

١ - أنَّ فيه اليقين التام بأنَّ دينَ الإسلام هو دينُ الله الحق، وما سواه فهو باطل.

ويظهر ذلك جليًّا بتكفل الله تعالى بحفظ دينه، بأنْ هيأ له من يذبُّ عنه - دَخَلَ المبطلين وزَغَلَ المضلين – ويدعو إليه وينشر ما فيه من الهدى والنور، وهم خاصَّةُ الله وصفوتُه من عباده؛ وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهُم؛ قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الله ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾[الفتح: ٢٨]، فالهدى: يتضمَّن العلمَ النافع، ودينُ الحقِّ: يتضمن العمل الصالح، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[الفتح: ٢٨] والظُّهورُ يكون بالعلم واللِّسان، ليبيِّن أنه حقٌّ وهدًى، ويكونُ باليد

والسلاح ليكونَ منصورًا مؤيدًا»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء: ١٦٥]. فهذا الدين ظاهر لا يُنسخ أبدًا، لكن يكون مَنْ يُدخِل فيه من التحريف والتبديل والكذب والكتمان، ما يَلبِس به الحق بالباطل، ومع هذا فلا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة، خلفًا عن الرُّسل، فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين؛ فيحقُّ الله الحقَّ، و يبطلُ الباطل، و لو كره المشركون[(٢)].

والذي يريدُ أن يطفئ دينَ الله فمثلُه في ذلك كمثل مَن يريدُ أن ينسف جبلًا بطرفِهِ، ويطفئَ شعاعَ الشمس، أو نورَ القمر بنفخِهِ؛ وهذا مما لا سبيل إليه؛ على حدِّ قول الشاعر: [البحر البسيط]

كناطحِ صخرةً يومًا ليفلقَها ... فلمْ يضُرْهَا، وأوهى قرنَهُ الوعلُ[(٣)]

فكذلك ما أرسلَ الله به رسلَه لا بد أن يتم ويظهر نوره ولو كره الكافرون[(٤)].

كما أنه تعالى قد تكفل بحفظِ كتابِهِ العظيم فقال: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩] فلا يقعُ التحريف والتبديلُ فيه كما وقع من أصحاب الأديان الأخرى في تحريف كتبهم.

٢- أن فيه بيان عظمة التَّوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد.

فإنَّ معظم ما جادلَ به الرسلُ - عليهم السلام - أقوامَهُم إنما هو لأجل إقامة

---

(١) الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ١٠٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٤٣٥).

(٣) ديوان الأعشى الكبير (١٣٤).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٦).

التوحيد، وتعبيد الناس لربِّ العبيد الذي خلَقهم، وسخَّر لهم ما في السَّموات وما في الأرض، وأسبغَ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] فأخبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه يوحي إلى كلِّ رسول من رسله عليهم الصلاة والسلام أن ينفي الألوهية عما سواه – سبحانه – ويثبتها له وحده.

وتأمَّل كيف جاءت هذه الآية مسبوقة بالجدال والردِّ على من اتخذ من دون الله ندًّا، فقد قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[الأنبياء: ٢٤] فطلب منهم الدليلَ لإثبات صحَّة أفعالهم، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا؛ كيف وقد قامت الأدلة القطعية على بطلانه؟!

ثم بيَّن أن أكثر هؤلاء «إنَّما أقاموا على ما هم عليه تقليدًا لأسلافهم؛ يجادلون بغير علم ولا هدًى، وليس عدمُ علمِهم بالحقِّ لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، لتبيَّن لهم الحق من الباطل تبيُّنًا واضحًا جليًّا، ولهذا قال: ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[الأنبياء: ٢٤]»[(١)].

ونظائر هذا في القرآن كثيرة، منها: ما جادل به إبراهيم عليه السلام قومه، وأمْرُهُ لهم أن يعبدوا الله وحدَه لا شريك له، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[**العنكبوت**: ١٦ – ١٧] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٥٢١).

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾[العنكبوت: ٢٢].

٣- أن بمعرفة منهج القرآن الكريم في الردِّ تُعرَفُ أقوالُ المخالفين، وطريقةُ ردِّ القرآن عليها.

لأن القرآن الكريم قد نقل طائفةً كبيرةً من أمَّات أقوالِ المخالفين، وبيَّن بطلانها، وردَّ عليها وحاجج أصحابها؛ فذكر أقوالَ المشركين، وأقوالَ المغضوب عليهم والضَّالين، وكذلك أقوالَ المنافقين، وبين شبهاتهم بيانًا وافيًا، وردَّ عليها ردًّا حاسمًا وشافيًا.

ومن هنا تظهر أهمية معرفة منهج القرآن الكريم في الردِّ على المخالفين فهو يعرض أقوالهم وأفكارَهُم، ويوضِّح كيفية الردِّ عليها وطرائقَ إبطالها، وهي زبدةُ هذه الرسالة وخلاصتُها، وأحدُ قسميها، وهو ما سيأتي عرضُهُ وبيانه فيها إن شاء الله تعالى.

٤- أن بمعرفة هذا المنهج يخلُص الحقُّ وأهلُه، ويتميزُ عن الباطلِ وأهلِه.

فبه يُعرَف الحق وأهلُه، وتستبينُ سبيلُ المهتدين من سبيل المجرمين، ويكونُ فيه إرشاد الناس إلى المعين الزلال، وتستبين طريق الحقِّ من طرق الضلال؛ فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت= أمكن اجتنابها والبعد عنها؛ بخلاف ما لو كانت مشتبهةً ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصد الجليل[(١)] قال الشاعر: [بحر الهزج]

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقِيه ... ومن لم يعرفِ الشَّرَّ من الناس يقعْ فيهِ[(٢)]

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد بيَّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصَّلة، وسبيلَ المجرمين

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢٥٨).

(٢) ديوان أبي فراس الحمداني (٣٥٢).

مفصَّلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبةَ هؤلاءِ مفصَّلة، وأعمالَ هؤلاءِ، وأعمالَ هؤلاءِ، وأولياءَ هؤلاءِ، وأولياءَ هؤلاءِ، وخذلانَهُ لهؤلاء، وتوفيقَه لهؤلاء، والأسبابَ التي وفَّق بها هؤلاء، والأسبابَ التي خذلَ بها هؤلاء، وجلَّى سبحانه الأمرين في كتابه، وكشفهما، وأوضحهما، وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتُهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية؛ فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل الى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة»[1].

والخلاصة: أن لمعرفة منهج القرآن الكريم في الردِّ على الخصوم والمخالفين أهميةً عظيمة، وفوائدَ كبيرةً يجدر بأهل الحق الإفادةُ منه والعناية به، وأن يكون هذا المنهج منهجًا لهم في كل شيء؛ وبخاصة في مقام الردِّ على المخالفين في أبواب العقيدة وما يتعلق بها.

---

(١) الفوائد لابن القيم (١٥٧-١٥٨).

المطلب الخامس

اعتناء القرآن الكريم بذكر المخالفين وأهمية ذلك

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم على نبيه محمد ﷺ، وجعله كتابًا شاملًا لكل مناحي الحياة؛ فما ترك شيئًا فيه سعادة العبد في الدارين إلا ودله عليه، وأرشده إليه، وأمره به.

وما ترك شيئًا فيه شقاوته وهلكته في الدارين إلا وحذره منه، وبينه له أتم البيان لكي يسلم منه ويبتعد عنه، فمن أطاعه سلم وغَنِم، ومن عصاه جَرُمَ وأَثِم.

ومن جملة ما بيَّنه الله تعالى في كتابه أصناف المخالفين لأهل الحق؛ فذكر أسماءهم، وصفاتهم، وأباطيلهم، وضلالهم، وشهواتهم، وشبهاتهم؛ وردَّ عليها وأبطلها؛ بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

فذكر اليهود وخبث أفعالهم، والنصارى وإضلالهم وضلالهم، والمشركين وإشراكهم، والمنافقين ومكرهم ونفاقهم؛ وميز أهل الإيمان ورفعهم بإيمانهم، وأذل أهل الباطل بكفرهم وعصيانهم.

وكان لذكر المخالفين في القرآن الكريم فوائد جمَّة، وتنبيهات مهمَّة، أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

١- أن في ذكر المخالفين بيانًا لفضل التوحيد وعظمته، وبطلان الشرك وحقارته.

فأكثر ما ذُكِرَ المخالفون في القرآن الكريم ورُدَّ عليهم، كان في مسألة التوحيد والأمر به، والنهي عن ضده؛ فحينما يرى أهل الحقِّ أن أكثر ما دعت إليه الرسل أقوامَها وخاصمتْهم فيه هو التوحيد= فإن ذلك سيكون سببًا في تعظيمه، والحذر من ضده.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[النحل: ٣٦]. وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

٢- أن في ذكرهم معرفةً لأسباب السعادة كي تسلك، وأسبابِ الشقاوة كي تُجتنب.

فحينما يرى أهل الإيمان حال المخالفين وما حل بهم من النكال والخسارة= فإن هذا خير واعظ لهم ومنذر من مغبة سلوك هذه الطرق المفضية إلى تلكم المآلات المؤلمة.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾[هود: ١٠٥ -١٠٨].

فعندما يُرى أن الناس قد انقسموا في ذلك اليوم إلى قسمين: قسم شقى بكفره ومعصيته، وقسم يسعد بإيمانه وطاعته، وتستبين منازل السعداء ومنازل الأشقياء= فإن النفس تتوق إلى منازل السعادة والنعيم، وتخشى ورود منازل الشقاء والجحيم. ونظائر هذا كثيرة جدًّا.

٣- أن في ذكر المخالفين بيانًا لصفاتهم وأخلاقهم؛ لاجتنابها والحذر منها.

فمعرفة صفاتهم القبيحة، وأخلاقهم السيئة، سبب عظيم في اجتنابها والحذر منها، وفي الوقت نفسه هو دافع للتأسي بمدارج الأخيار، والتحلي بأخلاق الكرام الأبرار، والبعد عن أخلاق السَّفلة والأشرار.

وقد ذكر الله تعالى طائفة كبيرة من أخلاق القوم وصفاتهم؛ **فذكر في اليهود أنهم: أصحاب هوًى؛ يعرفون الحقَّ ويكتمونه، ويتواصون فيما بينهم على ذلك.**

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٧٦].

وأنهم أصحابُ خيانة ونقض للعهود والمواثيق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾[المائدة: ١٣]؛ وقال: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ﴾[البقرة: ١٠٠]، أي: نقضه(١).

وأنهم أصحاب بخل شديد وحسد كبير، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النساء: ٥٣ – ٥٤].

إلى غير ذلك من صفاتهم القبيحة، أبعدنا الله عنها، وعصمنا منها.

وأيضًا ذكر عن النصارى أنهم أهل ضلال؛ كما قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة: ٧]، وأنهم أهل كذب وافتراء؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾[مريم: ٨٨ – ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[المائدة: ١١٦].

وكذلك بيَّن أخلاق وصفات المنافقين والمشركين، وهي معلومة مذكورة في القرآن الكريم، وليس هذا موضع بسطها، إذ المقصود أنه بذكر صفات المخالفين فيه تنبيه لأهل الحقِّ، وحثٌّ لهم للبعد عنها والحذر منها، حتى لا يقعوا في مشابهة أعداء الله وأعداء رسله عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) انظر: جامع البيان (٢/ ٣٠٩).

وقد نهى الله عن مشابهتهم في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[الحشر: ١٩]. ونحوها من الآيات[1].

وأيضًا في قول النبي ﷺ: **(من تشبه بقوم فهو منهم)**[2]. وقول ﷺ: **(ليس منا من تشبه بغيرنا؛ لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى)**[3].

٤- أن في ذكرهم بيانًا لأسباب النقمة والهلاك من الله تعالى.

وكم أهلك الله تعالى من الأمم بسبب عتوهم وعصيانهم؛ فقد جرت سنة الله ﷻ في عباده أن يعاملهم بحسب أعمالهم؛ فإذا اتقى الناس ربهم ﷻ؛ خالقهم ورازقهم وكانوا مطيعين له سبحانه، معظمين لشرعه= أغدق عليهم النعم وأزاح عنهم النقم، وأنزل الله ﷻ عليهم بركات من السماء، وأخرج لهم الخيرات من الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾[الجن: ١٦].

وإذا تمرد العباد على شرع الله، وفسقوا عن أمره أتاهم العذاب والنكال من الكبير المتعال.

---

(١) وسيأتي مزيد بسط للموضع مع ذكر أدلته في مطلب: (النهي عن التشبه بالمخالفين) إن شاء الله.

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٥١١٤)، وأبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، برقم (٤٠٣١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إرواء الغليل (٨/ ٤٩) برقم (٢٣٨٤).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية إشارة اليد بالسلام، برقم (٢٦٩٥)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٥/ ١٩٣) برقم (٢١٩٤).

فإذا تبدل حالهم من الطاعة إلى المعصية، ومن الشكر إلى الكفر، زالتْ عنهم النِّعم، وحلَّتْ بهم النِّقم.

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

والله ﷻ **لا يبدِّل حالَ العباد من النقمة إلى النعمة، ومن ضنك العيش وشدَّته وجفائه إلى سهولته ورخائه، حتى يغيِّروا ما بأنفسهم من الكفر إلى الإيمان ومن الفسق إلى الطاعة**؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣].

وحينما يرى أهل الحقِّ الأسبابَ التي أدَّتْ إلى انتقام الله تعالى من أهل الباطل وإهلاكه لهم، فإن ذلك يكون خيرَ زاجرٍ لهم أن يقعوا بمثل ما وقع فيه أهلُ الباطل.

ومن هذه الأسباب:

١- الكفر بالله تعالى، وتكذيب الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

فقد أهلكَ الله ﷻ الأمم السابقة؛ كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وأصحاب مدين، وقرونًا بين ذلك كثيرًا بسبب كُفرِهم بالله ﷻ، وتكذيبهم لرسله.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾[الفرقان:٣٥-٤٠].

٢- كثرة الفساد والخبث.

فإذا كثر الفساد وانتشر، وقل الإيمان واندثر كان ذلك سببًا في نقمة الله على من بغى وفجر؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾[الإسراء:١٦].أي: قضينا ذلك عليهم وقدرناه؛ وهذا ما قرره ابن القيم رحمه الله(١).

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قال قائل: إن الله أسند الفسق فيها لخصوص المترفين دون غيرهم في قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] مع أنه ذكر عموم الهلاك للجميع المترفين وغيرهم في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٦] يعني القرية، ولم يستثن منها غير المترفين.

والجواب من وجهين:

الأول: أن غير المترفين تبع لهم، وإنَّما خَصَّ بالذِّكر المترفين - الذين هم سادتهم وكبراؤهم - لأنَّ غيرهم تَبَعٌ لهم كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[الأحزاب:٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [إبراهيم:٢١]. إلى غير ذلك من الآيات.

الثاني: أنَّ بعضَهُم إن عصى الله وبغى وطغى، ولم ينهَهُم الآخرون فإنَّ الهلاكَ يعمُّ الجميع، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾[الأنفال:٢٥].

---

(١) انظر: شفاء العليل (٤٨). ففي الآية قولان: أحدهما: أن الامر هنا أمر ديني؛ ذهب إليه جمع غفير من المفسرين، ومنهم الإمام الطبري. والثاني: أمر كوني: وهو الذي قرره ابن القيم وناقش فيه القول الأول وهو الراجح. والله أعلم

وكما في الصحيح من حديث أمِّ المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها لمَّا سمعت النبي يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها - قالت له: يا رسول الله أنهلِكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبَثْ)[١]...»[٢].

٣- الكفر بنعم الله ﷻ، وعدم القيام بواجب شكرها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٥-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

فتأملْ كيف أبدل الله تعالى أحوالهم – بسبب كفر النعمة وعدم شكرها – من العيش

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن: باب قول النبي ﷺ ويل للعرب من شر قد اقترب، برقم (٣٣٤٦)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، برقم (٢٨٨٠).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٧٩).

الرَّغيد، إلى الفقر المديد، ومن الرَّخاء إلى الضِّيق واللَّأواء(١)، ومن السَّعادة والهناء إلى التَّعاسة والشَّقاء؛ فسبحان من أعَزَّ وأذلَّ، ونصرَ وفلَّ(٢)، وقلبَ الأحوالَ من حالٍ إلى حَال(٣).

٤- معصية الرسول ﷺ ومخالفة أمره.

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وقال النبي ﷺ: **(بعثتُ بالسَّيف بين يدي السَّاعة، حتى يُعبدَ اللهَ وحدَه، وجُعِلَ رزقي تحت ظِلِّ رُمحي، وجُعلتِ الذِّلة والصغارُ على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم)**(٤).

---

(١) الشدة والضيق.

(٢) هزم ودحر. قال ابن منظور اللسان (١١/ ٥٣٠): «وفَلَّ القومَ يفُلُّهم فَلًّا: هَزَمَهُمْ؛ فانفَلُّوا وتَفَلَّلُوا».

(٣) وفي هذا تنبيه لما عليه كثير من المسلمين اليوم من كفر النعمة وعدم شكرها وحفظها، سواء كانت نعمة الرزق أو نعمة الأمن وغيرها؛ فأما الأول: فمن المؤسف ما نشاهده من كفر النعمة عند المسلمين؛ كهدر الماء، ورمي الطعام في غير أماكنها، وتبديد المال في غير حاجة، وبخاصة فيما يضر ولا ينفع كالمعاصي!!.

وأما الثاني وهو نعمة الأمن: ما نراه قد انتشر في بعض بلاد المسلمين من الخروج على الولاة وما خلف ذلك من الدمار والعار، والقتل وسفك الدماء تجري كالأنهار، ناهيك عن التشرد والضياع، وانتهاك الأعراض ونهب المتاع.

فتأمل كيف انقلب الأمن والأنس إلى خوف وذعر وبؤس، وكيف انقلب الفرح والهناء إلى ترح وشقاء؛ فإن كان هذا **(ربيعٌ)** عند **الحمقى والمغفلين** فهو **(جهنمُ)** عند العقلاء والمتنبِّهين!!

(٤) رواه أحمد في مسنده برقم (٥١١٤)، وصححه الألباني في الإرواء (٥/ ١٠٩) برقم (١٢٦٩).

وكلُّ ما ورد في السُّنَّة من هذا القبيل فهو شاهدٌ لما ذُكر آنفًا؛ كقوله ﷺ: (**يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتلِيتمْ بهنَّ وأعوذُ بالله أن تدركُوهنَّ: لم تظهر الفاحشةُ في قوم قطُّ حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهمُ الطَّاعون والأوجاعُ التي لم تكن في أسلافِهمُ الذين مضَوا، ولم ينقِصُوا الكيل والميزانَ إلا أُخِذوا بالسِّنينَ وشدَّةِ المؤونة وجورِ السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم يَنقُضوا عهد الله وعهد رسولِه إلا سلَّط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتُهم بكتاب الله ﷻ ويتحرَّوْا فيما أنزل الله إلا جعلَ الله بأسهم بينهم**)[1].

وقوله ﷺ: (**اتَّقوا الظُّلم، فإنَّ الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتَّقوا الشُّح فإن الشُّح أهلكَ من كان قبلكم، حملَهم على أن سفكوا دماءَهم واستحلُّوا محارمَهُم**)[2].

وكذلك بيَّن ﷺ أن من أسباب هلاكِ الأمم الغلوُّ في الدِّين؛ وهو التَّنطُّعُ ومجاوزةُ الحدِّ، فقال: (**هلكَ المتنطِّعون**)[3]. وقال: (**إيَّاكم والغلوُّ في الدِّين، فإنَّما أهلكَ من كان قبلَكُم الغُلوُّ في الدِّين**)[4].

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، برقم (٤٠١٩)، وحسَّنه الألباني في الصحيحة بمجموع شواهده (١/ ٢١٦) برقم (١٠٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، برقم (٢٦٧٠)، وقال النووي في شرحه على مسلم (١٦/ ٢٢٠): «المتنطعون: أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم».

(٤) رواه أحمد في مسنده برقم (١٨٥١)، والنسائي في كتاب مناسك الحج، باب: التقاط الحصى، برقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه في كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، برقم (٣٠٢٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣/ ٢٧٨) برقم (١٢٨٣).

والخلاصة: كما أنَّ لذكر أهل الحقِّ - من الرُّسل والصالحين والعلماء الربانيين - فوائدَ لأهل الحقِّ باتباعهم والاقتداء بهم= كذلك لذكر أهل الباطل مقاصدُ عظيمةٌ، وفوائدُ مهمَّة؛ وذلك بالحذرِ منهم واجتنابِ مسالكهم، وهذا مقصدٌ جليل، ومطلبٌ نبيل.

المطلب السادس

التعريف بالمعاملة

وهي بابٌ من الأخلاق، يكتسبه الإنسان في حياته، وينبعُ منه على وفقِ ما تربَّى عليه في بيته، أو اكتسبَه من محيطِهِ، أو أملاهُ عليهِ دينُه؛ فهي تصرفاتِ النَّاس بعضَهم مع بعض.

وهذا ما توضِّحُه هاتان المسألتان:

المسألة الأولى: بيان معنى المعاملة؛ لغةً واصطلاحًا.

المعاملة لغة: مصدرٌ من قولك: عاملته أُعامِله معاملةً، وتأتي بمعنى المعايشة والتصرف[1].

وأما تعريف المعاملة اصطلاحًا: فالمرادُ بالمعاملة: **هو كلُّ ما يصدرُ عن النَّاس من تصرُّفاتِ بعضهم حيالَ بعض، قولًا أو فعلًا، حسنًا كان أو سيئًا.**

المسألة الثانية: أقسام المعاملة؛ مع ذكر الأمثلة.

المعاملة تنقسم إلى قسمين:

١- المعاملة بالقول.

٢- والمعاملة بالفعل.

فالمعاملة بالقول: هي كل ما يقوله الإنسان لغيره من كلام حسنٍ أو سيِّئ.

وأما الحسن من القول: كالتحية، والدعاء، وطيب الكلام والرفق فيه، ونحو ذلك، ومنه قول الله تعالى مخاطبًا موسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ – ٤٤]، فأمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٤/ ١١٧)، وتهذيب اللغة (١/ ٣٠٣).

يحسنا في القول حال دعوتهم فرعون وأدائهم رسالة ربهم.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] أي: قولوا للناس قولًا حسنًا؛ كالنصيحة لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ مع التزام الحكمة والأدب والموعظة الحسنة ولين الجانب، والمخاطبة بما تطيب به نفوسهم؛ وعدم الإساءة إليهم بالقول والخشونة[(١)].

والسَّيِّئ من القول: كالسباب والفحش والبذاءة والسخرية والاستهزاء ونحو ذلك.

وذكر تعالى أن من صفات المشركين بذاءة اللسان وسوء المعاملة، كما في قوله ﷻ: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢] فقوله تعالى: ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢] أي: «بالقول الذي يسوء؛ من شتم وغيره»[(٢)]. وفي هذا تنبيه لأهل الحق ليحذروا مجاراة أهل الباطل في سوء كلامهم ويجتنبوا التخلُّق بأخلاقهم.

وأما المعاملة بالفعل: فهي كلُّ ما يعمله الإنسان من عمل مع غيره حسنًا كان أو سيئًا.

فالحسن: كالضيافة، وإغاثة الملهوف، والبر ونحوه؛ ومن ذلك: سقاية نبي الله موسى للمرأتين اللتين كانتا تمنعان غنمهما عن الماء خوفًا من السُّقاة الأقوياء، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٣ – ٢٤].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط (١/ ١٢٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٥٤).

فكان سقيُه لهما من الفعل الجميل، والخلق النبيل، الذي ينمُّ عن رجل كريمِ الخصال، حميد الفعال.

وأما السيئ: فمثاله الضربُ بغير حق، والتجسس وسوء الظن بالخلق، والتطفيف، والحسد والخيانة؛ ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾[الحجرات: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾[الأعراف: ٨٥]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]؛ فهذه المعاملة هي عامة لكل الناس؛ برهم وفاجرهم؛ مؤمنهم وكافرهم.

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًّا؛ وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة العظيمة في الباب الثاني من هذه الرسالة(١) إن شاء الله تعالى.

---

(١) في المطلب الثالث: (صور للعدل والإنصاف مع المخالفين في القرآن الكريم).



الباب الأول

منهجُ القرآنِ الكريمِ في الردِّ على المخالفينَ في العقيدةِ وتفنيدِ شُبهِهِم

وفيه فصلان:

الفصل الأول: منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين في العقيدة.

الفصل الثاني: منهج القرآن الكريم في تفنيد شبه المخالفين في العقيدة.



الفصل الأول

منهج القرآن الكريم في الرد على المخالفين في العقيدة

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: الرد على المخالف ببيان حكم مقولته.

المبحث الثاني: الرد على المخالف ببيان حكمه.

المبحث الثالث: الرد على المخالف بالتحذير منه.

المبحث الرابع: الرد على المخالف ببيان الفرق بين أهل الحق وأهل الباطل.

المبحث الخامس: الرد على المخالفين بكشف مقاصدهم السيئة.

المبحث الأول

الرد على المخالف ببيان حكم مقولته

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الرد على المخالفين ببيان أن قولهم كفر.

المطلب الثاني: الرد على المخالفين ببيان أن قولهم هو دون الكفر.

المطلب الأول

الرد على المخالفين ببيان أن قولهم كفر

لما كانت أقوال المخالفين – في أكثرها – مناقضةً لأصل الإيمان، ومخرجةً عن ملة الرحمن = تنوعتْ طرق القرآن الكريم في الردِّ عليها وبيان بطلانها، ومن تلك الطرق: **الردُّ على المخالف ببيان أن قوله كفرٌ إذا قال المخالف ما يوجب عليه ذلك**؛ وبيان هذا في مسألتان:

الأولى: بيان متى يكون قول المخالف كفرًا.

يكون كذلك إذا قال المخالف قولًا دلَّ الكتاب والسنة على أنه موجب للكفر على وجه الاختيار عامدًا له[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة؛ عامدًا لها عالمًا بأنها كلمة كفر= فإنه يكفر بذلك؛ ظاهرًا وباطنًا»[٢].

وعليه:

- فكل قول فيه تكذيب، أو شك، أو إنكار أو ادعاءٌ لخصائص ربوبية الله أو بعضها فهو كفر؛ كتكذيب، أو إنكار أنه الرب، أو أنه الخالق والرازق، والمحي والمميت، وغيرها، أو الشك في ذلك؛ أو ادعائه.

ومن أمثلته قول فرعون: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨] وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]، وقول النمرود لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾[البقرة: ٢٥٨]. فالأول: ادعى أنه الرب المعبود.

---

(١) انظر: التكفير وضوابطه (١٠٦).

(٢) الصارم المسلول (٥٢٤).

والثاني: نسب إلى نفسه ما هو من خصائص الله تعالى وليس لأحد من خلقه، وفي كلٍّ كفر محض.

- وأيضًا كل قول فيه إنكار لاسم من أسمائه تعالى، أو صفة من صفاته دل عليها الكتاب والسنة، أو تشبيه الله بخلقه مما نزه الله نفسه عن مشابهة غيره به، فهو كفر.

ومن أمثلته: قول اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾[المائدة: ٦٤] وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾[آل عمران: ١٨١] وقول المشركين في إنكار اسم الله الرحمن: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

فاليهود أثبتوا لله يدًا لكن مثلوها بيد الإنسان التي يعتريها من الشح والبخل ما يعتريها ونحو ذلك، وفي هذا قلة أدب مع الرب سبحانه، وكفر به في حقه؛ وأيضًا في قول المشركين إنكار لما أثبته الله لنفسه؛ وهذا من الكفر بالله أيضًا.

- وأيضًا كل قول فيه سب لله تعالى، أو لنبيٍّ من أنبيائه عليهم السلام، أو لملكٍ من ملائكته، أو لدينه، أو لكتابه= فهو كفر.

ومن أمثلة ذلك: نسبة الولد والبنات لله تعالى، والاعتقاد أنه ثالث ثلاثة؛ فإن في ذلك مسبَّةً لله تعالى وتنقُّصًا له جل جلاله.

فقد قالت اليهود: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٠] وقالت النصارى: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾[التوبة: ٣٠] وقالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾[المائدة: ٧٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك لأن النصارى يعتقدون التثليث ونحوه؛ وهو شتم لله تعالى؛ لما روى البخاري في صحيحه[(١)] عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ:

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: (وامرأته حمالة الحطب)، برقم (٤٩٧٤).

(قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفؤًا أحد)»(١).

- وأيضًا كل قول فيه استهزاء بالله تعالى، أو بأنبيائه، أو بدينه = فهو كفر.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[التوبة: ٦٥ - ٦٦].

المسألة الثانية: الرد على المخالف بكفر مقالته.

لما كان الكفر من أعظم الذنوب كان الرد على المخالف ببيان مقالته الكفرية من أعظم الردود؛ فهو منهج قرآني عظيم ردَّ فيه القرآن الكريم على المقالات الكفريَّة وبيَّن لأصحابها أنها كفر؛ ومن تلكم الردود:

تكفير مقالة من نسب الولد إلى الله تعالى.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قول من نسبوا له الولد فقال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ ﴾[التوبة: ٣٠] وبيَّن أنهم بهذه المقالة ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾[التوبة: ٣٠]، أي: يشابهون قولهم، **والمشابهة بالكفر كفر مثله،** ولذلك كفَّر الله تعالى النصارى لما قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾[المائدة: ٧٣]، فقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا ﴾[المائدة: ٧٣]. فردَّ عليهم – سبحانه – ببيان أن

---

(١) الصارم المسلول (٢٤٦).

قولهم الذي قالوه كفر أدى إلى كفرهم.

تكفير مقالة من أنكر البعث.

فكل من قال قولًا فيه إنكار للبعث - وهو من خصائص الله تعالى وعظيم قدرته - فإنه قد قال كفرًا.

ومن أمثلة ذلك ما بينه الله تعالى في تلك المحاورة التي دارت بين المؤمن بالله ومنكر البعث في سورة الكهف، فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٥-٣٦].

فقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾[الكهف: ٣٥] أي: لا أعتقد أن تهلك وتفنى هذه الجنة مدى الحياة؛ **وهو شِق من إنكار الموت، وفيه إشارة إلى نسبة الخلود إلى نفسه بخلود جنته، ثم أكد هذا بنفيه قيام الساعة** حيث قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾[الكهف: ٣٦] وقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٦] أي على احتمال الرجوع إلى الله فإنه سيعطيني خيرًا من هاتين الجنتين.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالمًا بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء؛ فيكون زيادة كفر إلى كفره.

وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظًّا من العقل...

والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [الكهف: ٣٥] فإثبات أن وصفه الظلم في

حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى= يدل على تمرده وعناده»[١].

ولذلك قابله المؤمن الذي يجادله ببيان أن ما قاله كفر محض أدى إلى كفره، فقال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[الكهف: ٣٧-٣٨] فبيَّن له أصل خلقه وحاجَّه فيه، والمعنى: أن الذي خلقك من تراب - وهو أصل خلقة آدم عليه السلام- وكنت ذليلًا حقيرًا، ثم رباك وسواك رجلًا قويًّا، وأغدق عليك من النعم الوفيرة، والعطايا الكثيرة= أيكون جزاؤه عندك كفرًا وجحودًا ؟! ثم بيَّن له ما يقابل كفره وجحوده؛ وهو الإيمان المطلق لله تعالى وتوحيده، وعدم الإشراك به.

والخلاصة: أنه ردَّ عليه ببيان حكم مقالته التي تضمنت الكفر والجحود.

تكفير مقالة من استهزأ بالله أو برسوله أو بآياته.

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التوبة: ٦٥-٦٦].

ورد في سبب نزولها أقوالًا كثيرة؛ أشهرها أن بعض المنافقين قالوا: (ما رأينا مثل قرائنا هناك أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء)[٢]، فنزلت الآية.

والشاهد أن الله تعالى بيَّن لهؤلاء أن ما قالوه فيه استهزاء بالله ورسوله ﷺ وهو من الكفر، قال تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التوبة: ٦٦] فردَّ عليهم ببيان أن قولهم كان كفرًا بالله تعالى أدى إلى تكفيرهم.

وكل ما تقدَّم من الأمثلة هو من قبيل الردِّ على المخالف بالتصريح بلفظ الكفر

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٧٧).

(٢) انظر: جامع البيان (١٠/ ١٧١)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ١١١).

حكمًا على مقالته، لكن قد يأتي الردُّ – أحيانًا – بألفاظ أخرى غير صريحة بلفظ الإكفار، على اعتبار أنه قد يكون سببًا من أسبابه، أو موصلًا يؤدي إليه، كالجهل والظن والكذب ونحوه.

ومن صور ذلك ردُّه على من قال: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية: ٢٤] فنسب قولهم إلى الجهل والظن، وهو من الأسباب التي قد تؤدي إلى الكفر بالله تعالى. ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

ومن ذلك أيضًا ردُّه – سبحانه – على من قال: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾[الصافات: ١٥٢] بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الصافات: ١٥٢]. فبيَّن أن كذبهم سببٌ من أسباب ضلالهم وكفرهم.

بهذا يتَّضح: أن من أساليب القرآن الكريم في الردِّ على المخالف بيان حكم مقالته، وأن من أعظم ما يقوله ضلالًا وبطلانًا هو الكفر.

المطلب الثاني

الرد على المخالفين ببيان أن قولهم بما هو دون الكفر

كما أن المخالفين لأهل الحق قد صدرت منهم الأقوال الكفرية التي تناقض أصل الإيمان، وردَّ القرآنُ عليها ببيان حكمها= كذلك صدرت منهم أقوالٌ ليست من ذلك القبيل؛ لكنها هي من الكفر الأصغر والمعاصي، وأيضًا ردَّ القرآن الكريم على من قالها ببيان حكمها.

وبيان ذلك في صورتين:

الصورة الأولى: الردُّ على المخالف ببيان أن قوله ظلم.

ومثال ذلك ما قاله أهل القرية لرسلهم عليهم السلام: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨] والمعنى: إننا تشاءمنا بكم، ولم نر من قدومكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، ومن المعلوم أن التشاؤم هو من الكفر الأصغر الذي لا يُكفَّر قائله، فلذلك ردَّ الله تعالى على مقالتهم النكراء - تلك - ببيان أنها تجاوز للحد، وإسراف في الظلم؛ قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[يس: ١٩].

الصورة الثانية: الرد على المخالف ببيان أن قوله كذب وافتراء.

قال الله ﷻ في شأن المنافقين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾[التوبة: ١٠٧] والشاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾[التوبة: ١٠٧] وحلفهم كان كذبًا وزورًا، فردَّ عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ببيان أن قولهم هذا كذب ومَيْن؛ وذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾

[المجادلة: ١٨] فرد عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾[المجادلة: ١٨]، وغير ذلك من الأمثلة.

والخلاصة: أن من منهج القرآن الكريم في الردِّ على المخالف بيانَ حكم مقالته؛ سواء كانت كفرًا أو دون ذلك، ثم الردِّ عليها - إن اقتضى الحال - بما يناسبها. والله أعلم.

المبحث الثاني

الرد على المخالف ببيان حكمه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الحكم عليه بما هو كفر.

المطلب الثاني: الحكم عليه بما هو دون الكفر.

المطلب الأول

الحكم عليه بما هو كفر

تقدم أنَّ من طريقة القرآن في الردِّ على المخالف بيان حكم مقالته سواء كانت كفرًا أو دون ذلك، وفي هذا المطلب أبيِّنُ أن من طريقته في الردِّ أيضًا: الحكمُ على المخالف بالكفر إذا أتى بقول أو فعل أو اعتقاد يوجب عليه ذلك.

مع بيان أن القرآن الكريم لم يقتصر في حكمه على هؤلاء بالتَّصريح بلفظ الكفر الأكبر فقط، وإنما تنوَّعت الألفاظ التي ترادف معناه؛ كالفسق، والظلم، والشرك، والنفاق ونحوه.

فكما أن الكفر يُطلَق على الكفر الأكبر والأصغر، فكذلك هذه الألفاظ تُطلَق على الكفر الأكبر والأصغر(١)؛ وبيان ذلك في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: الحكم على المخالف بالكفر.

ومن ذلك ما حكم الله تعالى به على الذين «فرَّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض؛ بمجرد التشهي والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم؛ لا عن دليل قادهم إلى ذلك»(٢)؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[النساء: ١٥٠].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾[النساء: ١٥٠] على أنه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل، لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعًا؛ فإن أهل

---

(١) وسيأتي بيان ذلك – بعون الله – في سياق هذا المطلب والذي بعده.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٤٥).

الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله، لكنهم لما كفروا بالبعض كان ذلك كفرًا بالله وبجميع الرسل»(١).

ولذلك ردَّ الله تعالى عليهم، وحكم بكفرهم؛ قال الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥١] وهو «تأكيد يزيل التوهم في إيمانهم حين وصفهم بأنهم يقولون نؤمن ببعض، وأن ذلك لا ينفعهم إذا كفروا برسوله؛ وإذا كفروا برسوله فقد كفروا به ﷻ، وكفروا بكل رسول مبشر بذلك الرسول؛ فلذلك صاروا الكافرين حقًّا»(٢).

ومن الأمثلة أيضًا: الحكمُ على من أنكر البعث بالكفر؛ فقد قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ [الرعد: ٥] إنكارًا منهم لقدرة الله على إعادتهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم وبلائهم، وردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ [الرعد: ٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على هذه الآية: «وذلك أن إنكار المعاد يتضمن إنكار قدرة الربِّ وعلمه وحكمته، وملكه الحقُّ وربوبيته وإلهيته؛ كما أن تكذيب رسله، وجحد رسالتهم، يتضمن ذلك أيضًا؛ فمن كذب رسله، وجحد المعاد، فقد أنكر ربوبيته سبحانه، ونفى أن يكون رب العالمين»(٣).

المسألة الثانية: الحكم على المخالف بالفسق المرادف للكفر الأكبر.

والفسقُ لغة: هو الخروج عن الشيء أو القصد، فيقال: فسقت الرطبة من قشرها،

(١) فتح القدير (١/ ٦١٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٥).

(٣) عدة الصابرين (٣١٣).

والفأرة عن جحرها = إذا خرجت(١).

واصطلاحًا: هو معصية الله تعالى وترك أمره، والخروج عن طاعته، وعن طريق الحقِّ(٢).

والفسق أعم من الكفر؛ حيث يشمل الكفر وما دونه من المعاصي؛ كبائرِها وصغائرِها.

فأما الذي يراد به الكفر فمثاله قول الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أي كفر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠] أي: الذين كفروا بالله تعالى وفارقوا طاعته(٣).

وأما الذي يراد به الذنوب والمعاصي التي هي دون الكفر، فمثاله قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤] وهذا الأخير بيانُه في المطلب التالي إن شاء الله.

والمقصود من هذا: بيان أن الله تعالى قد حكم على المخالف بالفسق المرادف للكفر. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

فذكر الله تعالى في هذه الآية جملةً من صفاتهم القبيحة، وأفعالهم المشينة؛ كأمرهم

(١) انظر: لسان العرب (١٠/ ٣٠٨)، ومقاييس اللغة (٤/ ٥٠٢).

(٢) انظر: التعريفات (١٤/ ١٧٠)، والتوقيف على مهمات التعاريف (٥٥٧).

(٣) انظر: جامع البيان (١٠/ ٢٤٥).

بالكفر والفسوق والعصيان، ونهيهم عن الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والآداب الحسنة والإيمان، وكذلك ما وصفهم الله به من البخل حين قبضوا أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، وكذلك نسيانهم الله تعالى فلا يذكرونه إلا قليلًا.

ولذلك حكم الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٦٧]، «أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة»[(١)].

ومن بديع كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هؤلاء قوله: «فهم جنس بعضه يشبه بعضًا، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه! وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه!... إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدت حقائقه لرأيت بينها وبين الهدى أمدًا بعيدًا، ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضًا شديدًا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾[النساء: ٦١]. فكيف لهم بالفلاح والهدى! بعدما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنى لهم التخلُّص من الضلال والردى! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقًا ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾[النساء: ٦٢].

نشب زقوم الشبه والشكوك في قلوبهم فلا يجدون له مسيغًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[النساء: ٦٣]. تبًا لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذبَ دعواهم للتحقيق والعرفان، فالقوم في

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٧٢).

شأن وأتباع الرسول في شأن...»[(١)].

المسألة الثالثة: الحكم على المخالف بالظلم المرادف للكفر.

والظلم هو مسمى عام يندرج تحته كل ما تقدَّم؛ من الكفر والفسق، **وأصله في اللغة:** الجور ومجاوزة الحد، ووضع الشيء في غير موضعه[(٢)].

ومعناه اصطلاحًا: «وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إمَّا بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه»[(٣)].

وقد وردت آيات عديدة أطلق فيها الشارع الحكيم الظُّلم على الكفر والشِّرك، ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[الفرقان: ٢٧] أي: **يعض الكافر** على يديه تأسفًا وتحسرًا وحزنًا بسبب شركه وكفره وتكذيبه للرسل[(٤)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا ريب أن هذا يتناول الكافر الذي لم يؤمن بالرسول، وسبب نزول الآية في ذلك، فإن الظلم المطلق يتناول ذلك، ويتناول ما دونه بحسبه»[(٥)].

٢- وأيضًا قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٨].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٥٢).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٥/ ٤٤)، والنهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٥٧).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب (٥٣٧).

(٤) انظر: جامع البيان (١٧/ ٤٣٧)، وتيسير الكريم الرحمن (٥٨١).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٣).

أي: كافرين بعبادتهم لذلك العجل[١]؛ قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: اتخذوه إلهًا وكانوا كافرين»[٢].

فردَّ عليهم وحكم عليهم بالكفر بسبب عبادتهم غير الله تعالى.

٣- ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٤]. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني: فهم الكافرون القائلون على الله الباطل»[٣].

وقد نزلت هذه الآية وما قبلها من الآيات في اليهود الذين افتروا على الله الكذب، وذلك لما أصاب يعقوب عليه السلام عِرقُ النِّسَا[٤] وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل فحرمها على نفسه.

فقالت اليهود: إنما نحرم على أنفسنا لحوم الإبل؛ لأن يعقوب حرمها وأنزل الله تحريمها في التوراة؛ فأنزل الله هذه الآية فكذبهم الله ورد عليهم[٥].

---

(١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٥٦٦)، والجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٨٥).

(٢) معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٢٨٣).

(٣) جامع البيان (٥/ ٥٨٧).

(٤) قال المناوي: «عرق النسا: هو عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ» فيض القدير (٤/ ١٦٢)، وقال محقق كتاب (الطب النبوي) لابن القيم: «قال الدكتور عادل الأزهري: عرق النسا: هو مرض يصيب الرجال والنساء على السواء، وآلامه مفرطة تبتدىء غالبًا في أسفل العمود الفقري، ويمتد الألم إلى إحدى الأليتين، ثم إلى الجزء الخلفي من الفخذ، وأحيانًا حتى الكعب. وينتج غالبا من انفصال غضروفي بأسفل العمود الفقري، أو التهاب روماتزمي بالعصب الإنسي... ». الطب النبوي (٥٦).

(٥) انظر: جامع البيان (٥/ ٥٨٨)، والجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٣٥).

المطلب الثاني

الحكم عليه بما هو دون الكفر

تقدَّم في المطلب السابق أن الكفر والفسق والظلم ألفاظٌ تطلق على الكفر الأكبر المخرج من الملة، وفي هذا المطلب أبيِّنُ أنَّ هذه الألفاظ أيضًا تُطلَق على ما دون الكفر من المعاصي والذنوب.

فقد ثبت إطلاق هذه الألفاظ وغيرها - في القرآن الكريم والسنة - على ما دون الكفر الأكبر؛ والأمثلة كثيرة جدًّا، ومنها: الردُّ على من حكم بغير ما أنزل الله ﷻ بالكفر والظلم والفسق.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[المائدة: ٤٥]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[المائدة: ٤٧].

روى الطبري بإسناده إلى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا تفسيره للآية قوله: «هي به كفر، وليس كفرًا بالله وملائكته وكتبه ورسله»[(١)].

وقال طاووس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كفر لا ينقل عن الملة»[(٢)]، وقال عطاء: «كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق»[(٣)].

وضرب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الأمثلة تدلُّ على اختلاف هذه الألفاظ في الأحكام ومن بينها هذه المسألة فقال: «فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزله كافرًا، وسمى

---

(١) جامع البيان (٨/ ٤٦٥).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤٦٦).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٦٦).

جاحد ما أنزله على رسوله كافرًا؛ وليس الكافران على حد سواء، وسمى الكافر ظالمًا كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤].

وسمى متعدي حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالمًا، فقال: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[الطلاق: ١] وقال نبيه يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧]..وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

ويسمى الكافر فاسقًا كما في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾[البقرة: ٢٦ – ٢٧]الآية، وقوله ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[البقرة: ٩٩] وهذا كثير في القرآن.

ويسمى المؤمن فاسقًا كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦]. وليس الفاسق كالفاسق، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٤].

وقال عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠] وقال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧]وليس الفسوق كالفسوق.

والكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان: جهل كفر، كما في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩] وجهل غير كفر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن

قَرِيبٍ ﴾[النساء: ١٧]...»[1].

والمقصود أن الله تعالى لما حكم المخالف بغير ما أنزل الله ردَّ عليه وبيَّن حكمه وهو الكفر، والظلم، والفسق الذي هو دون الكفر.

مع التنبِّيه أن هذه الجريمة - التي هي من كبائر الذُّنوب - يختلف حكم فاعلها بحسب حاله: فإن كان مستحلًّا للحكم بغير ما أنزل الله تعالى أو جاحدًا له= فهو كافر كفرًا أكبر، وأما إن فعل ذلك عن هوى ونحوه ولم يكن مستحلًّا ولا جاحدًا= فهو من قبيل الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة[2]. والله أعلم.

(١) كتاب الصلاة (٩٣- ٩٥).

(٢) انظر: أضواء البيان (١/ ٤٠٦).

المبحث الثالث

الرد على المخالف بالتحذير منه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التحذير من أصحاب المقالات الباطلة بالنهي عن مسلكهم.

المطلب الثاني: التحذير من المخالف بالتوجيه للتعوذ من طريقته.

المطلب الثالث: التحذير من المخالف بالنهي عن التشبه به.

المطلب الأول

التحذير من أصحاب المقالات الباطلة بالنهي عن مسلكهم

لما ردَّ القرآن الكريم على المخالفين ببيان حكم أقوالهم وأفعالهم، وما يترتب على ذلك من الحكم عليهم= كان من الطبيعي أن يحذِّر من هؤلاء المخالفين ومن مسالكهم ومناهجهم، وفي هذا دلالة واضحة على عظمة هذا الأمر وأهميَّته، وما فيه من المقاصد الجليلة، والفوائد النبيلة؛ **كتبيين سبيل الحق لكي يُحبَّ ويُسلك، وإظهار سبل الباطل كي تُجتنب وتُبغض.**

وقد ثبت في الصحيحين عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني»(١).

ولعله مَورِدُ قول الشاعر: [بحر الهزج]

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقِيه ومن لم يعرفِ الشَّرَّ من الناس يقعْ فيهِ(٢)

وقد تنوعت طرائق القرآن الكريم في التحذير من المخالفين، ومن هذه الطرق: النهي عن اتباع مسالك المخالفين والتي يمكن بيانها في المسائل التالية:

المسألة الأولى: ذمُّ الهوى ومتبعيه، والنهيُ عن اتباعه.

فالهوى: في أصل مادته مشتق من الخلو والسقوط؛ فمن الخلو: نحو قول الله تعالى في وصف حال أهل النار حين خروجهم من القبور: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[إبراهيم:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٧٠٨٤)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، برقم (١٨٤٧).

(٢) قاله أبو فراس الحمداني في ديوانه (٣٨٧).

٤٣] «أي: خاوية خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الفزع والوجل والخوف»[١].

وأما السقوط فنحو قول الله تعالى في ذكر مصير أهل النار: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٩] أي: «ساقط هاوٍ بأم رأسه في نار جهنم، وعبر عنه بأمه يعني: دماغه»[٢]. هذا من حيث اللغة.

أما الهوى من حيث الشرع فهو: «نزوع النفس لسِفَل شهواتها، وما تستلذه منها لباعث انبساطها من غير داعية الشرع لها[٣]، وغالبًا ما يُطلق على الزيغ والضلال.

واتباع الهوى هو: الانحراف عن الحق إلى الباطل لزيغ في القلب وفساد في العقل؛ فهو طريق الحائدين عن الصراط المستقيم من الضالين، وسبيل المتنكبين عن الحق المبين[٤].

وهو علامة من علامات أهل الباطل، وسمة من أبرز سماتهم، ولذلك نهى القرآن الكريم عن هذا المسلك الفاسد، وأكثر من التحذير منه.

وقد وردت آيات كثيرة في ذلك، كان الخطاب موجهًا فيها لأهل الحق؛ بأمرهم أن لا يتبعوا مسالك المخالفين، ومنها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

والأمر وإن جاء من الله تعالى للرسل - عليهم السلام - بالنهي عن اتباع أهواء أهل الضلال = غير أنه تشريعٌ لأهل الحقِّ كي يحذروا من أهل الباطل ويجتنبوا سبلهم

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥١٥).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٤٦٨).

(٣) انظر: انظر الكليات (٩٦٢)، والتوقيف على مهمات التعاريف (٣٤٤).

(٤) انظر: محبة الرسول بين الاتباع والابتداع لعبد الرؤوف عثمان (١٤٩).

الباطلة.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه جل وعلا يأمر نبيه محمدًا ﷺ وينهاه ليشرع بذلك الأمر والنهي لأمته.. ومعلوم أنه ﷺ لا يتبع أهواء الذين لا ولكن النهي المذكور فيه التشريع لأمته، كقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان:٢٤]»(١).

ولما نهى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن اتباع أهواء ذوي الضلال بيَّن أن هذا الاتباع **سبب من أسباب ترك الله تعالى لولاية المؤمنين ونصرتهم**؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

أي ليس لكم - في حال اتبعتم أهواءهم - من معين يذبُّ عنكم، ولا نصير يؤيدكم، ويقويكم على أعدائكم(٢)، وفي هذا تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة، - عياذًا بالله من ذلك - فإن الخطاب مع الرسول ﷺ والأمر لأمته.

كما بيَّن سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن متابعة الهوى **توجب الضلال عن سبيل الله**؛ والضلال عن سبيل الله يوجب العذاب، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

ومن مفاسد اتباع الهوى أنه **يهوي بصاحبه إلى الهلاك والشقاء**؛ قال تعالى محذِّرًا عباده من سلوك طريق أهل الضلال في تكذيبهم بالساعة وعدم الإيمان بها:

---

(١) أضواء البيان (٧/ ١٩٩).

(٢) انظر: لباب التأويل للخازن (١/ ٧٠).

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٦]، أي: تهلك وتشقى[(١)].

المسألة الثانية: النهي عن اتباع السبل المخالفة للحق.

نهى الله تعالى عن اتباع الطرق التي حاد بها أصحابها عن الصراط المستقيم، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ففي الآية أمر ونهي للمؤمنين: أمر باتباع الطريق الواضح المستقيم، والمنهج القويم الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين، ونهي عن اتباع الطرق المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية وغيرها من الأديان الباطلة، و كذلك البدع والأهواء المضلة[(٢)].

وقد ذكر الله قول موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، أي: ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم ربهم، ومعونتهم أهل المعاصي على عصيانهم، ولكن اسلك سبيل المطيعين لله جل في علاه[(٣)].

وقد أفرد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ طريق أهل الحق بقوله: (صراطي) ليبيِّن أن «الحقَّ واحد: هو صراط الله المستقيم – الذي لا صراط يوصل إليه سواه – وهو عبادته وحده لا شريك له، بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق»[(٤)]، وجمع طرق أهل الباطل بقوله: **(السبل)** حتى يبيَّن أنها على خلاف سبيل أهل الحق من جهة أنها متعددة ومتشعبة ومظلمة، كما قال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٠٣).

(٢) انظر: لباب التأويل (٢/ ٢٠٠)، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزِّي (١/ ٣٨٦).

(٣) انظر: جامع البيان (٥/ ١٧٨).

(٤) محاسن التأويل للقاسمي (١/ ٢٦٢).

تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا وحَّد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة؛ وكلها باطلة»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فوحَّد سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة متعددة»(٢).

وهذا لا يناقض قوله تعالى: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦] فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد، وصراطه المستقيم؛ فطرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها(٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسمى - سبحانه - طريقه صراطًا، وسمى تلك سبلًا، ولم يسمها صراطًا كما سماها سبيلًا؛ وطريقه يسميه سبيلًا كما يسميه صراطًا»(٤).

«والمقصود أن الطريق إلى الله واحد؛ فإنه هو الحقُّ المبين، والحقُّ واحد، مرجعه إلى واحد، وأما الباطل والضلال فلا ينحصر؛ بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل، فالباطل متعدد وطرقه متعددة.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء من أن الطرق إلى الله متعددة متنوعة جعلها الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٨٥). وقال القاسمي في محاسن التأويل (٢/ ١٩٥): «وإفراد النور لوحدة الحق، كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال».

(٢) طريق الهجرتين (١/ ٣٨٣).

(٣) انظر: محاسن التأويل (١/ ٢٦٢) بتصرف يسير.

(٤) الجواب الصحيح (٣/ ١٨٠).

كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها رحمة منه وفضلًا = فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق، وإيضاحه: أن الطريق هي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله، وما يرضيه متعدد متنوع؛ فجميع ما يرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال؛ وكلها طرق مرضاته»(١).

ثم بيَّن النبي ﷺ أن على كل رأس طريق شيطان يدعو إلى الضلالة والغواية، كما ورد ذلك من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: (هذا سبيل اللّه مستقيمًا)، ثم خط خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: (وهذه السبل؛ ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)»(٢).

فأهل الحق هم عِلْيةُ(٣) الناس باتباعهم الحق، وأهل الباطل هم سِفْلة الناس لاتباعهم الباطل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الناس قسمان: عِلْيَة وسِفْلَة؛ **فالعِلْيَةُ:** من عرف الطريق إلى ربه وسلكها قاصدًا الوصول إليه؛ وهذا هو الكريم على ربه.

والسِّفْلَة: من لم يعرف الطريق إلى ربه، ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٣٨٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (٤١٤٢)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣١٨)، من طريق عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود مرفوعـًا. قال الحافظ في التقريب (١/ ٣٨٣) عن عاصم: «صدوق له أوهام»، وللحديث شاهد من حديث جابر الذي رواه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب اتباع السنة حديث برقم (١١) يرتقي به إلى درجة الحسن.

(٣) قال ابن منظور في اللسان العرب (١٥/ ٨٣): «... ورَجُلٌ عَليٌّ؛ أَي: شريف وجمعه عِلْيةٌ يقال فلان مِنْ عِلْية الناس أَي من أَشرافهم وجِلَّتِهم لا من سِفْلَتهم أَبدلوا من الواو ياءً لضعف حَجْز اللام الساكنة ومثله صبيٌّ وصبِيْة وهو جمع رجُل عَليٍّ أَي شَريف رَفيعٍ».

فيه: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[الحج: ١٨]»[١].

المسألة الثالثة: النهي عن طاعة أهل الضلال وأئمتهم.

نهى الله تعالى عن طاعة أهل الباطل، وأمر بالإعراض عنهم، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢].

أي: «الذين وصْفُهم ودأبُهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها، إفسادًا لا إصلاحَ فيه، وهذا أضرُّ ما يكون لأنه شر محض»[٢].

وأيضًا قوله تعالى آمرًا نبيه ﷺ بعدم طاعة أهل الكفر والنفاق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

أي «ولا تطع لقول كافر ولا منافق؛ فتسمع منه دعاءه إياك إلى التقصير في تبليغ رسالات الله إلى من أرسلك بها إليه من خلقه»[٣].

فالجامع لهذه الآيات والتي قبلها: هو تحذير أهل الحقِّ من الركون إلى أهل الباطل وطاعتهم؛ لما فيه من المخاطر الجسيمة، والعواقب الأليمة.

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ٣٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٦٩).

(٣) جامع البيان (٢٠/ ٢٨٢).

المطلب الثاني

التحذير من المخالف بالتوجيه للتعوذ من طريقته

فأهل الباطل حينما زاغوا عن الحق وخالفوا أمر الله تعالى طوعًا لزعيمهم الأكبر إبليس، وأخذوا طريقته في الإضلال والتلبيس= استلزم ذلك أن يستعيذَ أهلُ الحق من طريقة هؤلاء، ليأمنوا سوء العاقبة ويجتنبوا درك الشقاء؛ فوجه الله تعالى عباده إلى ذلك، وندبهم إليه وحثهم عليه؛ فهو من سبل الوقاية؛ من شرهم وضُرِّهم.

والتعوذُ: من عاذَ به يعوذُ عوذًا وعياذًا ومُعاذًا. أي لاذ فيه، ولجأ إليه، واعتصم(١).

وجُلُّ معانيه ترجع إلى الالتجاء والاعتصام والتحصن(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير»(٣).

ومنه قول الشاعر(٤): [البحر الطويل]

---

(١) لسان العرب (٤/ ١٨٣).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٣/ ٩٣)، ولسان العرب (٣/ ٤٩٨)، ومقاييس اللغة (٤/ ١٥٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ١١٤).

(٤) وهو من قصيدة للمتنبي في ديوانه ص (٣٦) يمدح فيها أميرًا من أمراء حمص؛ وقد ذكر هذين البيتين الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البداية والنهاية (١١/ ٢٧٥) وقال: «وقد بلغني عن شيخنا العلامة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان ينكر على المتنبي هذه المبالغة في مخلوق ويقول: إنما يصلح هذا لجناب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأخبرني العلامة شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سمع الشيخ تقي الدين المذكور يقول: ربما قلت هذين البيتين في السجود أدعو الله بما تضمناه من الذل والخضوع». فتأمل كيف بلغ الغلو بالشاعر مبلغًا حتى قال أمرًا لا يليق إلا بالخالق وخصَّه بالمخلوق !!. وليس المقام مقام بسط وتفصيل؛ فحسن التنبيه.

يــا مــن ألــوذ بــه فيمــا أؤملــه ومــن أعــوذ بــه ممــن أحــاذرُهُ
لا يجـبر النـاس عظمًـا أنـت كاسـره ولا يهيضـون[١] عظمًـا أنـت جـابرُهُ

وفي توجيه القرآن الكريم للتعوذ من طريقة أهل الباطل وصفاتهم ثلاث مسائل تتضمن ثلاثة أمثلة:

المسألة الأولى: الاستعاذة من صفة الاستهزاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الاستهزاء هو**: السخرية؛ وهو حمل الأقوال والأفعال على الهزل واللعب لا على الجد والحقيقة؛ فالذي يسخر بالناس هو الذي يذم صفاتهم وأفعالهم ذمًّا يخرجها عن درجة الاعتبار، كما سخروا بالمطوِّعين من المؤمنين في الصدقات»[٢].

وقد استعاذ موسى عليه السلام من هذه الصفة التي ألصقها به قومه فقال: ﴿**أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ**﴾ [البقرة: ٦٧] فقد اتهمه بنو إسرائيل بالسخرية منهم، والتلاعب بهم، حينما قالوا: ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا**﴾[البقرة: ٦٧] «أي: تستهزئ بنا، ونحن نسألك عن أمر القتيل، وتأمرنا بذبح البقرة ؟!»[٣].

وهذا - بلا شك - اتهامٌ باطل، وافتراءٌ من جاهل «لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل، فاستعاذ منه موسى، لأنها صفة تنتفي مع الأنبياء»[٤].

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٥/ ٦٧٤): «والهَيْضُ: الكسر بعد الجبر؛ وهو أشد ما يكون من الكسر».

(٢) الفتاوى الكبرى (٦/ ٢٢).

(٣) معالم التنزيل للبغوي (١/ ١٠٦) وقال: «إنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه».

(٤) النكت والعيون للماوردي (١/ ١٣٧).

فكان جوابه – عليه السلام – أن استعاذ من طريقة الجهلة؛ وهي الاستهزاء المؤدي للجهل؛ وهذه الاستعاذة «من باب نفي الشيء بنفي لازمه، لأن الاستهزاء ملزوم للجهل، فينتفي الأمران: الاستهزاء والجهل، وجميع ما هو من لوازم الجهل، ولو نفى الاستهزاء وحده لما نفى الجهل، ولا ما عد من لوازمه»(١).

المسألة الثانية: التوجيه للاستعاذة من صفة الخيانة.

الخيانة صفة قبيحة، وخلق ذميم، حذر الله تعالى منه، ونهى عباده عنه؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. وبيَّن النبي ﷺ أنها من صفات المنافقين فقال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)(٢). وقال: (أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق) وذكر منهن: (وإذا ائتمن خان)(٣).

والخيانة إن كانت في العهد فهي الغدر، وإن كانت في الأمانة فهي التفريط بها، وإن كانت في العين فهي النظر إلى ما لا يحل(٤).

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخيانة قبيحة في كل شيء، وبعضها شر من بعض، وليس

---

(١) تفسير ابن عرفة المالكي (١/ ٣٢٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، برقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، برقم (٥٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر، برقم (٢٤٥٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق برقم (٥٨).

(٤) انظر: تهذيب الاخلاق للجاحظ (٣١)، والتوقيف (١٦٢)، والكليات (٤٣٤)، والجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٩٥).

من خانك في فلس كمن خانك في أهلك ومالك وارتكب العظائم»[(١)].

ولذلك استعاذ يوسف عليه السلام من هذه الصفة حينما افتُريَ عليه خيانة الملك في أهله فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]. أي: ألتجئ إلى الله وأعتصم به، وأتحصن من فعل هذه الجريمة وبحق من أحسن إلي وأكرم منزلي؛ فهل أقابل إحسانه إليَّ وعطفه عليَّ بخيانته في عرضه وشرفه؟! فإن ذلك من أقبح الظلم، ومنتهى اللؤم؛ ولا يفلح الظالمون.

وإذا ما أُطلِقتْ هذه الصفة القبيحة، أُطلِقَ معها ذكر اليهود؛ فإنهم من أكثر الناس خيانة وغدرًا، وأجرئهم على نقض العهود والمواثيق.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ١٣] فهذه الآية تدلُّ على أنَّ الخيانة من الصفات التي تبرز في اليهود وتسري فيهم سريان الدم في العروق، فالخيانة شأنهم وديدنهم، وطريقتهم في معاملة الناس.

المسألة الثالثة: الاستعاذة من الكبر.

بيَّن الله تعالى بأنه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] وبيَّن عاقبة هؤلاء بقوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[الزمر: ٦٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **(احتجت النار والجنة، فقالت هذه: يدخلني الجبارون، والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء، والمساكين، فقال الله عز وجل لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء – وربما قال: أصيب بك من أشاء – وقال**

(١) الكبائر (١٥٠).

لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء؛ ولكل واحدة منكما ملؤها)[(١)]. فبيَّن ﷺ أن النار مثوًى للمتكبرين.

وقال النبي ﷺ: (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبرٍ**)[(٢)].

وللكبر ثلاثة أنواع:

١- **كبر على الله تعالى**، وهو أفحش أنواع الكبر، ومنه تكبر إبليس عن طاعة ربه، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[ص: ٧٤]. وتكبر فرعون وغيره عن عبادة الله تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[العنكبوت: ٣٩].

٢- **كبر على الرسول** ﷺ بأن يمتنع المتكبر من الانقياد له تكبراً وعنادًا كما فعل كفار مكة مع النبي ﷺ.

٣- **تكبر على العباد**؛ بأن يستعظم نفسه، ويحتقر غيره ويزدريهم، ولا يقبل منهم ولو كان حقًّا وصدقًا، وهذا وإن كان دون الأولين إلا أنه إثم عظيم وجريمة منكرة[(٣)].

ويكفي زجرًا للمستكبر أن يعلم أن هذه الصفة من خصائص الله تعالى، ومن نازعه فيها قذفه في نار جهنم، فقد ورد في الحديث القدسي عن النبي ﷺ قال: (**قال الله ﷻ:**

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله تعالى: إن رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قريب من المحسنين، برقم (٧٤٤٩)، ومسلم، كتاب الجنة ونعيمها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١).

(٣) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن الهيتمي (٩٠).

الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري؛ فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار)(١).

ولما كان تكبر العباد بعضهم على بعض من قبائح الذنوب =استعاذ نبي الله موسى عليه السلام من أصحابها، وذلك في قصته مع عدو الله فرعون الذي قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦]. فقال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧] أي: «إني استَجرْتُ أيها القوم بربي وربكم، من كل متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته؛ لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء»(٢).

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ تخصيص من «موسى صلوات الله وسلامه عليه، بالاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدقًا، لم يكن للثواب على الإحسان راجيًا، ولا للعقاب على الإساءة وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفًا؛ ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصَّة»(٣).

المسألة الرابعة: الاستعاذة من تهديد الأنبياء بالقتل والرجم.

ومن أمثلته: ما قاله موسى عليه السلام مخاطبًا فرعون وقومه: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠] **وقوله (ترجمون)فيه ثلاثة أوجه:**

---

(١) رواه أبو داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر برقم (٤٠٩٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب: البراءة من الكبر والتواضع، برقم (٤١٧٤)، وبنحوه رواه مسلم مرفوعًا إلى النبي ﷺ كتاب البر والصلة، باب تحريم الكبر، برقم (٢٦٢٠).

(٢) جامع البيان (٢١/ ٣٧٥).

(٣) المصدر السابق (٢١/ ٣٧٥).

أحدها: الرجم بالحجارة، والثاني: القتل، والثالث: الشَّتم والقول بأنه ساحر أو كاهن(١).

ولم يكن ذنب موسى عليه السلام أو غيره من الرسل إلا دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى فيُقابلوا بالسُّباب والشتم والإيذاء والتهديد.

وهذا هو حال أتباع الرسل عليهم السلام؛ يُقابلون - في كل زمان ومكان - بالإيذاء والتنكيل، والاستهزاء والخيانة، لأنهم حملوا على عاتقهم أمرًا عظيمًا لا يتقلده إلا الرجال الكُمَّلُ؛ وهو الدعوة إلى الله.

ومهما بلغ الحال بأهل الباطل من الجور والطغيان، والظلم والعصيان بأهل الحق، وسعيهم للإيقاع بهم= فإن الله ناصرُ جنده، وهازم الأحزاب وحده، ولن يستطيعوا أن يطفئوا نور الله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا؛ ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

والخلاصة: أن هذه الصفات والأفعال التي وجه القرآن الكريم للتعوذ منها هي: الأفعال التي تؤدي أن يكون فاعلها من الجاهلين؛ كالسخرية والاستهزاء، والخيانة بشتى صورها، والظلم بشتى أشكاله، والتكبر، وجحد يوم الحساب، والتهديد برجم الأنبياء وقتلهم؛ كل ذلك قد تلبس به أهل الباطل؛ من اليهود وغيرهم.

وعليه فيجب على أهل الحقِّ أن يستعيذوا من الباطل وأهله بشتى الصور والأشكال، وقد فعل ذلك النبي ﷺ حينما قال له الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق، فقال له النبي ﷺ: (**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي**...)(٢).

---

(١) انظر: النكت والعيون (٥/ ٢٥٠)، وتفسير القرآن العظيم (٤/ ١٧١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٣).

المطلب الثالث

التحذير من المخالف بالنَّهي عن التَّشبُّه به

من المعلوم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أكمل هذا الدين وارتضاه لنا، ولم يترك فيه شيئًا إلا وبيَّنه بأوضح بيان، وأنصع تبيان؛ من آيات محكمة، وسنن مطهرة.

وكان من هذا البيان أن التشبُّه بأهل الباطل أو متابعتهم حرام؛ سواء كان ذلك في عاداتهم، أو أعيادهم، أو أخلاقهم، أو تقاليدهم أو غير ذلك؛ لأنَّ التشبه بهم يدل على نوع مودة وموالاة، وإن لم يجاهر المتشبه بذلك، وإن لم يورث نوع مودة ومحبة؛ فهو على الأقل مظنة المودة، فيكون محرمًا من هذا الوجه سدًّا للذريعة، وحسمًا لغائلة حب الكافرين، والولاء لهم؛ فضلاً عن كونه محرمًا من وجوه أخرى.

وهناك أسباب وحكم كثيرة تجلت في عِطْفِ النهي عن التشبه بأهل الباطل؛ ومنها:

١- أن في النهي عن مشابهة أهل الباطل قطعًا للضلال والفساد ومنعًا لانتشاره.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧]. فنهاهم عن التشبه بهم قطعًا لدابر الضلال والفساد، ومنعًا لانتشاره في الأمة.

وذلك أن أعمال أهل الباطل مبناها على الضلال والفساد، وليست قائمة على أصول ثابتة وأسس راسخة، وكل ذلك يرجع في مجمله إلى ما جنته أيديهم من التحريف لكتبهم، والتكذيب لرسلهم، بعد أن سلموا أنفسهم إلى أمواج أهوائهم، فأخذتهم ذات اليمين وذات الشمال وأوردتهم طرائق الخنا ومسالك الرَّدى فضلوا عن الصراط المستقيم، وأفسدوا ما جاءهم من الحق المبين.

٢- أن في النهي عن التشبه بهم قطعًا للطرق المفضية إلى محبتهم والميل إليهم، وما قد يتبع ذلك من مفاسد: من استحسان طرائقهم وتقليدهم، والسير بسيرتهم؛ إذ من

المعلوم أن المشابهة لهم في أي شيء تورث نوع تناسب وتقارب، والطباع سرَّاقة كما هو معلوم[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر؛ وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»[(٢)].

وقد ضرب شيخ الإسلام أمثلة على قوله: (يشهد له الحس والتجربة)فقال: «إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد، ثم اجتمعا في دار غربة، كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم، وإن كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين، أو كانا متهاجرين، وذاك لأن الاشتراك في البلد نوع وصف اختصا به عن بلد الغربة، بل لو اجتمع رجلان في سفر، أو بلد غريب، وكانت بينهما مشابهة في العمامة أو الثياب، أو الشعر، أو المركوب – ونحو ذلك – لكان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضًا، ما لا يألفون غيرهم، حتى أن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة: إما على الملك، وإما على الدين، وتجد الملوك ونحوهم من الرؤساء – وإن تباعدت ديارهم وممالكهم – بينهم مناسبة تورث مشابهة ورعاية من بعضهم لبعض، وهذا كله موجب الطباع ومقتضاه، إلا أن يمنع من ذلك دين أو غرض خاص.

فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة لهم، فكيف بالمشابهة في

---

(١) قال المناوي في التيسير (٢/ ٩٥٤) محذرًا صحبة الأحمق: «...ولأن الطباع سرَّاقة معدية وقد يسرق طبعك منه»؛ والطباع كالريح إن مرت على أرض طيبة حملت طيبًا، وإن مرت على أرض نتنة حملت نتنًا!.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٤٩).

أمور دينية؟ فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد»[١].

٣- **أن في النهي عن التشبه بهم والمنع من ذلك، والحث على مخالفتهم= تحقيقًا لمبدأ الولاء والبراء** الذي يحتِّم على المسلم اجتناب موالاتهم ومودتهم، والحرص على مباينتهم والبعد عنهم، وأن ذلك من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٤- **أن في النهي عن التشبه بهم تمايزًا بين أهل الحق وأهل الباطل**؛ تمايزًا بين من أنار الله قلبه وبصره بالحق، وبين من أظلم قلبه وأعمى بصره عن الحق، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٠].

ولهذا وغيره حذر الله في كتابه من التشبه بأهل الباطل في آيات عديدة، وأساليب متنوعة، **أجملها بمسألتين:**

المسألة الأولى: النهي عن التشبه بأهل الباطل في أفعالهم.

كالنهي عن التشبه بهم في تفرقهم واختلافهم؛ وقد ورد ذلك في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. «وأريدَ بالذين تفرقوا واختلفوا = الذين اختلفوا في أصول الدين؛ من اليهود والنصارى[٢]، من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٥٤٩-٥٥٠).

(٢) قال القرطبي في الجامع (٤/ ١٠١): «يعني اليهود والنصارى في قول جمهور المفسرين، وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الامة، وقال أبو أمامة: هم الحرورية، وتلا الآية».

وقدم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علة التفرق»[١]، فنهى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هنا عن مشابهتهم فيما وقعوا فيه من التفرق والاختلاف، لما في ذلك من المفاسد والمضار على المسلمين ومجتمعهم[٢].

وحضَّ على خلاف ذلك؛ من الاجتماع والألفة، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[آل عمران: ١٠٣].

ورتَّب على ذلك أمورًا عظيمة؛ منها:

١- نيلهم رحمة الله تعالى التي تنجيهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته[٣].

٢- توفيقهم للخيرات وإجزالهم المثوبات، ودفع البليات عنهم والمكروهات[٤].

٣- هدايتهم إلى الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف[٥].

وهذه الأمور العظيمة قد ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ١٧٥].

وأيضًا من الآيات التي نهت عن التشبه بأهل الباطل في أفعالهم: **النهي عن التشبه بهم في نسيانهم ربَهم ﷻ:**

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[الحشر: ١٩] أي: لا تكونوا كالذين تركوا أمر الله فأنساهم حظوظ أنفسهم،

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٤/ ٤٣).

(٢) وسيأتي - إن شاء الله - مزيد بيان لهذه المسألة في المبحث الذي بعده، ضمن المطلب الثاني.

(٣) انظر: جامع البيان (٧/ ٧١٢).

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢١٧).

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٨١).

فلم يقدموا لها خيرًا ينفعها عنده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقتضي أن نسيان الله كان سببًا لنسيانهم أنفسهم؛ وإنهم لما نسوا الله عاقبهم بأن أنساهم أنفسهم.

ونسيانهم أنفسهم يتضمن إعراضهم، وغفلتهم، وعدم معرفتهم بما كانوا عارفين به قبل ذلك من حال أنفسهم، كما أنه يقتضي تركهم لمصالح أنفسهم، فهو يقتضي أنهم لا يذكرون أنفسهم ذكرًا ينفعها ويصلحها، وأنهم لو ذكروا الله لذكروا أنفسهم»(١).

وأيضًا من الآيات في هذه المسألة: **النهي عن التشبه بهم في البطر والمراءاة.**

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

فنهوا عن التشبه بالمشركين في خروجهم لبدر؛ إذ خرجوا بطرًا: أي دفعًا للحق، ورئاء الناس: أي المفاخرة والتكبر عليهم، ولأن حقَّ كل مسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله؛ والجهاد من أعظم الأعمال الدينية(٢).

ومن الآيات أيضًا **النهي عن التشبه بهم في قسوة قلوبهم.**

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[الحديد: ١٦] نهي مطلق عن مشابهتهم؛ وهو خاص أيضًا في النهي عن مشابهتهم في قسوة قلوبهم»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٤٨).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٢)، والتحرير والتنوير (١٠/ ٣٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٩٠).

المسألة الثانية: النهي عن التشبه بأهل الباطل في أقوالهم كما يُعلم من خلال السياق والمعنى.

كمـا ورد في قولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٤].

أي لا تقولوا قولتهم، كي لا تتشبهوا بهم، وذلك أنّ المسلمين كانوا يقولون: راعنا يا رسول الله، وأرعنا سمعك، يعنون من المراعاة؛ وأما اليهود فكانوا يقولونها سبًّا وشتمًا، من الرعونة؛ فنهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير؛ لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم، فإنهم كانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويقصدون بها السب؛ يقصدون فاعلًا من الرعونة؛ فَنُهِيَ المسلمون عن قولها سدًّا لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي ﷺ تشبُّهًا بالمسلمين، يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون»(٢).

وخلاصة القول: أن النهي عن مشابهة أهل الباطل هو طريقة من طرائق الردِّ عليهم، إذ لو كانوا على الحق والهدى لما أمر الله تعالى عباده بمخالفتهم؛ وفي ذلك من الخير العظيم والمصلحة الكبيرة ما يعود نفعه على الإسلام والمسلمين، وما يكون إيلامه شديدًا في أهل الباطل والضلال المبين.

---

(١) انظر: الكشف والبيان للثعلبي (١/ ٢٥١)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٣٧٣).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٣٧).

المبحث الرابع
الرد على المخالف ببيان الفرق بين أهل الحق وأهل الباطل

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: بيان ما يمتاز به أهل الحق في الدنيا والآخرة عن أهل الباطل من الثواب والنصرة وغير ذلك.

المطلب الثاني: بيان اتفاق أهل الحق في دعوتهم؛ وأنه حجة، بخلاف أهل الباطل.

المطلب الثالث: بيان ما عند أهل الحق من التسليم والإذعان، بخلاف ما عند المخالفين من التألي والتحكم الباطل.

المطلب الرابع: بيان أن من شأن أهل الحق التحاكم إلى الحق، و أهل الباطل بضد ذلك.

المطلب الخامس: بيان ما يمتاز به أهل الحق من عبادة إله واحد وبين من يتعبد لآلهة متعددة.

المطلب السادس: بيان ما يمتاز به أهل الحق من اتباعهم المحكم، وأهل الباطل يتبعون المتشابه.

المطلبُ الأول

بيانُ ما يمتازُ بهِ أهلُ الحقِّ في الدنيا والآخرةِ عن أهلِ الباَطلِ من الثوابِ والنُّصرَة

لما كان أهل الحقِّ هم أعظمَ الناس اتباعًا للحق وانصياعًا له، وكان أهل الباطل أشدُّ الناس حربًا للحق وأهله، واتباعًا للضلال = كان من طريقة القرآن الكريم في الردِّ بيانُ التمايز بين أهل الحقِّ وبين أهل الباطل ففي إظهار ذلك وبيانه ردٌّ على كلِّ صاحب باطل وعلى كل مخالف للحقِّ.

ومن عظيم هذا التمايز بين الفريقين أنْ منَّ الله على عباده المخلصين بمنن عديدة، ومزايا فريدة، كالثواب والنصرة وغير ذلك. وهذا ما اقتضى الحالُ بيانَه في هذا المطلب.

والثواب والمثوبة: الجزاء والعطاء[(١)]، قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٩٥] أي: جزاءً وعطاءً من الله تعالى.

وقوله: «﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلًا كثيرًا، قال الشاعر: [البحر الخفيف]

إن يُعاقِبْ يكن غرامًا وإن يُعـ ـطِ جزيلًا، فإنه لا يبالي[(٢)]»[(٣)]

وقال آخر: [البحر الطويل]

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ٢٤٣).

(٢) ديوان الأعشى (١٤١). والغرام: الشر.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٩١).

علـى قـدر أهـل العـزم تـأتي العـزائم وتـأتي علـى قـدر الكـرامِ المكـارمُ[(١)]

والثواب: هو ثواب الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ٱلْأَخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٨].

ومن هذه الآيةِ يُستخلص ثلاثُ مسائل:

المسألة الأولى: ثواب أهل الحقِّ في الدنيا.

وهو التفضل عليهم بالسعادة والطمأنينة، والرزق الطيب في المال والأهل، والنصرِ والغلبة والتمكين لهم في الأرض.

أما التفضل عليهم بالسعادة والطمأنينة والرزق الحسن، ففي قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[النحل: ٩٧].

أي: «فلنحيينه حياة طيبة، وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب»[(٢)].

فينال عيشًا طيبًا بالقناعة والكفاية؛ مع التوفيق والهداية؛ فإن كان موسرًا فيُعترف بجميل فضل الله عليه، وإن كان معسرًا يطيبُ عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة، وتوقع الأجر العظيم [(٣)].

ولا بد من التَّنبيه على أمرين:

الأول: اختلاف المفسرين في المراد بالحياة الطيبة: هل هو في الدنيا أم في

(١) قاله المتنبي في ديوانه (٣٨٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٨).

(٣) انظر: البحر المديد لأحمد الفاسي (٤/ ٧٩).

الآخرة ؟ **وفيها قولان:**

أحدهما: أن الحياة الطيبة في الجنة؛ لأن الحياة الدنيا لا تخلو من المصائب والأكدار، والأمراض والآلام والأحزان، ونحو ذلك.

الثاني: أن الحياة الطيبة في الدنيا، وذلك بأن يوفق الله عبده إلى ما يرضيه، ويرزقه العافية والرزق الحلال[(١)].

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة؛ وتلك القرينة هي أننا لو قدرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ = صار قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ تكرارًا معه؛ لأن تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم؛ بخلاف ما لو قدرنا أنها في الحياة الدنيا؛ فإنه يصير المعنى: فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة، ولنجزينه في الآخرة بأحسن ما كان يعمل؛ وهو واضح، وهذا المعنى الذي دل عليه القرآن تؤيده السنة الثابتة عنه ﷺ»[(٢)].

الثاني: **أنه قد يشتبه** على بعض أهل الحق ما قد يكون عليه أهل الباطل من الدَّعة وكثرة الأموال والخيرات.

فالجواب: أن ذلك إنما هو من الابتلاء والاستدراج لهم؛ نسأل الله العافية.

والله ﷻ دفع هذه الشبهة عن أهل الحق ورفعها كي لا يجد الشيطان إليهم مدخلًا يصدهم عن سبيل الله والحق المبين.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾

---

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٤٤١).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٤١).

[المؤمنون: ٥٥ – ٥٦] قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟!.

بل لا يشعرون أنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثمًا، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]»(١).

ودخل عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يومًا على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير؛ وقد أثَّر الحصير في جنبه، وبجانبه قبضة من شعير في ناحية الغرفة، فذرفت عينا الفاروق. فقال له رسول الله ﷺ: (ما يبكيك يا ابن الخطاب)، فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يا نبيَّ الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك ؟!»؛ فقال: (يا بن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟!)؛ فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «بلى»(٢).

وأما النصرُ والغلبة والتَّمكين لأهل الحقِّ في الأرض: فقد ذكر المفسرون لمعنى ثواب الدنيا في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ **معنيين:**

الأول: النصر والظفر على الأعداء والظهور عليهم(٣).

الثاني: الفتح والغنيمة(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٥٣).

(٢) انظر: صحيح مسلم كتاب الطلاق، بابٌ في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله تعالى: (وإن تظاهرا عليه)، برقم (١٤٧٩).

(٣) انظر: جامع البيان (٦/ ١٢٣)، والجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٣١).

(٤) انظر: جامع البيان (٦/ ١٢٤)، والكشف والبيان للثعلبي (٣/ ١٣٨).

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثواب الدنيا، يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصر على عدوهم وعدو الله، والظفر والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد»[١].

وقد ورد في كتاب الله تعالى أنواع عديدة تدل على هذا المعنى من ثواب الدنيا؛ تنوعت فيه الألفاظ، وتعددت فيه الصور.

فمن الألفاظ: النصرة، والتأييد، والغلبة، والدفاع، والكفاية.

أما النصرة: فنحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٤٧]. والآيات في هذا المثال كثيرة جدًّا.

ويدخل فيه بأن يكون الله مولى الذين آمنوا؛ أي ناصرهم وحافظهم. كقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]. أي وليكم وناصركم على أعدائكم[٢].

وأما التأييد: كقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

أي نصرناهم على من عاداهم فأصبحوا غالبين عليهم بكل أنواع الغلبة؛ سواء كانت الغلبة بالبنان الذي يحمل أسباب النكاية بالأعداء، أو الغلبة باللسان وما أوتي من البراهين الواضحة، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة.

وفي هذا بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني لهم، ما داموا متناصرين على الحق مجتمعين عليه؛ غير متفرقين عنه ولا متخاذلين؛ كما وقع لسلفهم الذين اتفقوا فملكوا، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا[٣].

---

(١) جامع البيان (٦/ ١٢٣).

(٢) انظر: جامع البيان (٦/ ١٢٦).

(٣) انظر: محاسن التأويل (٩/ ٢٢٥).

وقد جرت سنة الله أن هذا الثواب من الله تعالى لأهل الحق لا يتأتى إلا عند الإتيان بحقه سبحانه من عبادته، وأداء حقوقه وما يجب نحوه سبحانه، فينصرهم إذا نصروه، ويمكن لهم في الأرض إذا أطاعوه؛ قال الله ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] إلى أن قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[الحج: ٤١]. فلو علم فيهم عدم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر= لما نصرهم على عدوهم وأمكن لهم في الأرض، ولكن يجعل النصر للقوي منهما[١].

ولهذا لو «**كان في المسلمين ضعف وكان عدوهم مستظهرًا عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم؛ إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطنًا وظاهرًا، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطنًا وظاهرًا**»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد؛ ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله أو بإدالة[٣] عدوه عليه فإنما هي بذنوبه إما بترك

---

(١) ومن العجب أن يبتغي كثير من المسلمين النصرَ على أعدائهم، والتمكينَ لهم في الأرض، وهم غافلون عن نصرة دين الله تبارك وتعالى، ساهون لاهون عن عبادته والقيام بأمره، مع شيوع المعاصي والآثام - التي عمت وطمت أغلب بلاد المسلمين - والمجاهرة بها!! فأنى ينصرون؟!.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٤٥).

(٣) قال ابن منظور في اللسان (١١/ ٢٥٢): «الإِدالةُ: الغَلَبة؛ يقال: أُدِيل لنا على أَعدائنا؛ أَي: نُصِرْنا عليهم».

واجب أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه»[١].

وبهذا يزول الإشكال الذي يَرِدُ على كثير من الناس عند قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[النساء: ١٤١]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات: أن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل؛ **فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم**؛ فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى؛ فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان ولو اجتمع عليه من بأقطارها إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهرًا وباطنًا؛ وقد قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾[محمد: ٣٥].

فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جند من جنود الله يحفظهم بها ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم فيبطلها عليهم كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم إذ كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره»[٢].

ثم إن ما يصيب أهل الباطل من العز والتمكين والنصر والجاه، دون ما يحصل لأهل الحق إنما هو في الباطن ذل وهوان وكسر وخذلان وإن كان الظاهر بخلافه[٣].

قال بعض السلف: «إنهم وإن هملجت[٤] بهم البراذين[١] وطقطقت[٢] بهم البغال إن

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٢٧).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٩٢٧).

(٣)إغاثة اللهفان (٢/ ٩٢٧).

(٤) قال ابن منظور في اللسان (٢/ ٣٩٣): «والهَمْلَجَة والهِمْلاجُ: حُسْنُ سير الدابة في سُرْعة».

ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه»[٣].

وأما الغلبة: كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[المائدة: ٥٦].

فالعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، وهذه من البشارة العظيمة، والتي تكفل الله لمن قام بأمره وصار من حزبه وجنده أن له الغلبة، وإن غُلب في بعض الأحيان فذلك لحكمة يريدها الله تعالى؛ ومآل أمره الغلبة والانتصار[٤].

وأما الدفاع: فهو دفاع الله تعالى عن أوليائه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[الحج: ٣٨]. أي: أن الله «يدفع عن عباده - الذين توكلوا عليه، وأنابوا إليه - شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم»[٥].

أما الكفاية والإظهار: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٢].

=

(١) قال الزبيدي في التاج (٣٤/ ٢٣٦): «البرذون: دابة خاصة لا تكون إلا من الخيل».

(٢) نقل الأزهري في التهذيب (٣/ ١٢١) عن ابن الأعرابي قوله: «الطَّقْطَقة: صوْت قوائم الخيل على الأَرض الصُّلبْة».

(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الحسن البصري. ينظر مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٥٨)، وقد رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٩) من طريق حوشب بن مسلم عن الحسن قال: «أما والله لئن تدقدقت بهم الهماليج، ووطئت الرحال أعقابهم، إن ذل المعاصي لفي قلوبهم ولقد أبى الله أن يعصيه عبد إلا أذله».

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٣٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٣٣).

قال الطبري: «فإن الله كافيكهم، وكافيك خداعهم إياك، لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان، ومتضمن أن يجعل كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى»[(١)].

ونصرة الله لهم ليست محصورة بالأسنة والرماح فقط كما تقدم آنفًا، بل يشمل تأييدهم بقوة اللسان والفصاحة والبيان، وقوة الجدل والمحاجة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

أي «ولا يأتونك بمثل يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، إلا أنزلنا عليك قرآنا جامعًا للحق في معانيه، والوضوح والبيان التام في ألفاظه»[(٢)].

وكان النبي ﷺ يقول لحسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك)[(٣)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما خص النبي ﷺ جبريل وهو روح القدس بنصرة من نصره ونافح عنه؛ لأن جبريل صاحب وحي الله إلى رسله، وَهُوَ يتولى نصر رسله وإهلاك أعدائهم المكذبين لهم، كما تولى إهلاك قوم لوط وفرعون في البحر.

فمن نصر رسول الله وذب عنه أعداءه ونافح عنه كان جبريل معه ومؤيدًا له كما قال لنبيه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[التحريم: ٤]»[(٤)].

أما الصور: فهي كثيرةٌ في نصرة أهل الحق ذكرها الله في القرآن العظيم؛ ومنها:

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٨٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، برقم (٣٢١٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٤٨٦) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) فتح الباري لابن رجب (٢/ ٥٠٨).

١- **تأييدهم بالآيات والمعجزات الدالة على صدقهم**: كانشقاق القمر للنبي ﷺ، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: (اشهدوا)»[1].

وكذلك انفلاق البحر لموسى عليه السلام، وجعله يبسًا ممهدًا، كما قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] إلى غير ذلك من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة؛ وهذا معلوم للموافق والمخالف.

٢- **إنزال الملائكة للقتال معهم**: كما نزلت لنصرة النبي ﷺ في معركة بدر.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال: ٩]. وقال تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٤ – ١٢٥].

٣- **إرسال الريح نصرة لهم**: كيوم الأحزاب حين أرسل الله ﷻ الريح لنصرة النبي ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[الأحزاب: ٩].

وكذلك إرسالها إلى عاد لاستئصالهم بعدما طغوا في الأرض ولم تنفعهم دعوة نبي الله هود عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة٦ – ٨].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: (وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا)، برقم (٤٨٦٤).

المسألة الثانية: ثواب أهل الحق في الآخرة.

وهو الجنة وما أعده الله تعالى لهم من النعيم المقيم، وتنقضي الأيام وتجف الأقلام ولا يحصى عظيم فضل الله تعالى على المؤمنين في الجنة وجزيل نواله.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فاقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[السجدة: ١٧])[١].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: «يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا؛ من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنةُ ونعيمُها»[٢].

وثواب أهل الحق في الآخرة **دائم غير منقطع بخلاف ثوابهم في الدنيا فإنه زائل فان**، ولذلك أضاف الله تعالى الحسن إلى ثواب الآخرة تنبيهًا على ذلك.

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾[آل عمران: ١٤٨] ذكر في ثواب الآخرة الحُسن تنبيهًا أن ثواب الدنيا بالإضافة إليها غير مُستحسنٍ لانقطاعه»[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٤٤)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب صفة الجنة، برقم (٢٨٢٤).

(٢) جامع البيان (٧/ ٢٧٥).

(٣) تفسير الراغب (٣/ ٩٠٢). وسيأتي معنا الكلام موسعًا عن هذه المسألة إن شاء الله في الباب الثاني من الرسالة ضمن مبحث التعامل مع المخالفين باستخدام أسلوب الترغيب.

المسألة الثالثة: كيفية تمييز الله تعالى أهل الحق عن أهل الضلال بهذين الثوابين.

وهذه المسألة هي خلاصة ما تقدم من الكلام؛ وذلك ببيان التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل في ثوابي الدنيا والآخرة، ويمكن بيان ذلك من خلال ما يلي:

١- أن الله تعالى تفضل على أهل الحق بالسعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة، بينما أهل الباطل ابتلوا بالشقاء والضنك في الدنيا والآخرة.

وقد يعتري أهل الحق هم وحزن في الدنيا؛ وذلك لعارض؛ إما لذنب قد اقتُرِف، أو لرفعة في مراتبهم.

وهذه الهموم والأحزان والابتلاءات وإن كانت في ظاهرها مؤلمة لكنها في باطن الأمر هي سعادة وطمأنينة لمن وجد حلاوة الإيمان في قلبه؛ ولعل واقع حال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السجن يبيِّن شيئًا من ذلك، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة».

وقال لي مرة: «ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أنى رحت فهي معي لا تفارقني؛ إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وكان يقول في محبسه في القلعة: «لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة؛ أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا».

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» ما شاء الله.

وقال لي مرة: «المحبوس من حُبسَ قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره

هواه»؛ ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: «﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]».

وعلمَ الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرِّهم نفسًا تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة؛ فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[١].

٢- أن الله ﷻ تفضل على أهل الحقِّ بالنصرة والعز والتأييد، بينما أهل الباطل قد وكلهم إلى أنفسهم وسلط عليهم الذل والهوان والصغار إلى يوم القيامة؛ ولهم في الآخرة عذاب أليم.

٣- أن الله تعالى قد أعد لأهل الحقِّ جنات عرضها السموات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بينما أعد لأهل الباطل نارًا وسعيرًا جزاء ما اقترفوه في الدنيا من المنكرات والآثام.

(١) الوابل الصيب (١٠٩-١١٠).

المطلبُ الثَّاني

بيانُ اتفاقِ أهلِ الحقِّ في دعوتِهم وأنَّه حُجَّةٌ بخلافِ أهلِ الباَطِلِ

اتفق أهل الحقِّ في دعوتهم على الأصول الجامعة العظيمة التي شرعها الله للناس والتي فيها سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وكان من أعظم ما اتفقوا عليه هو التوحيد الخالص لله تعالى والدعوة إليه، مع اتفاقهم في أصول دين الإسلام؛ كالإيمان بالله تعالى، وبرسله، وباليوم الآخر.

ويتضح ذلك في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: اتفاق أهل الحقِّ في دعوتهم وحجية ذلك.

أهل الحقِّ اتفقوا في دعوة الناس إلى التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، بعد أن عم الشرك البلاد، وانتشر انتشار النار في الهشيم بين العباد!. فانتكست الفطر، وأصبح الناس في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء؛ فتبدلت المفاهيم، وكثرت الأغاليط، وانتشر من الشر في عقائد الناس ما تشيب منه الأجنة في البطون، وتتفطر له القلوب وتذرف من هوله العيون.

ومع ذلك فإن أهل الحقِّ اتفقت دعوتهم، وثبتت ثبوت الجبال الراسيات لم تتغير أو تتبدل؛ قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك، ودعوا إليه، وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به»(١).

ومن الأدلة على اتفاق أهل الحقِّ في دعوتهم أنه: لم يأتِ رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا وحض الناس على التوحيد وقال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٢٤).

﴿إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩]، اعبدوا الله «الذي له العبادة، وذُلوا له بالطاعة واخضعوا له بالاستكانة، ودَعوا عبادة ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبود يستوجب عليكم العبادة غيره»(١).

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥].

فأخبر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أن «كل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحقِّ المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة»(٢).

فكان «التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى»(٣)، وهو مفتاح دعوتهم(٤)؛ ولذلك كان النبي ﷺ إذا بعث الدعاة إلى البلاد أمرهم أن يفتتحوا بين الناس بالدعوة إلى التوحيد كما في حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما ارسله إلى اليمن فقال له: (إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب؛ فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله..)الحديث(٥).

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فأخبر سبحانه: «أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه

(١) جامع البيان (١٠/ ٢٦٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٢١).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٣).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٤٤٣).

(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، برقم (١٩).

ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولًا؛ **وكلهم متفقون على دعوة واحدة؛ ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له**»[١].

وهذا ما بيَّنه النبي ﷺ حينما وصف أن (الأنبياءَ أولادُ علات)[٢].و هم أولاد الرجل الواحد من أمهات شتى.

فـ«شبه دين الأنبياء الذين اتفقوا عليه من التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه = بالأب الواحد؛ **لاشتراك جميعهم فيه وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم**»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان دينه الذي ارتضاه الله لنفسه هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، ولا يقبل من أحد دينًا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين وهو دين الأنبياء وأتباعهم، كما أخبر الله تعالى بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين»[٤].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والدين الذي لا يقبل الله غيره، **التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل** عليهم الصلاة والسلام»[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: واذكر في الكتاب مريم، برقم (٣٤٤٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، برقم (٢٣٦٥). وأولاد علات: هم أولاد الرجل الواحد من أمهات شتى. انظر: النهاية لابن الأثير (٣/ ٥٥٩)، وتهذيب اللغة للأزهري (١/ ٧٨).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١١٦١).

(٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٨١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٣).

ولذلك كان اتفاق دعوة أهل الحق من الرسل وأتباعهم في عبادة الإله الحق والدعوة إلى ذلك على ما بينهم من التفاوت والبعد في الزمان والمكان دليلًا واضحًا وصريحًا على صحة دعوتهم وحجيتها في ذاتها، وعلى من وُجِّه له خطابها.

وهذا الذي يشهد له فعل الرسل - عليهم السلام - مع أقوامهم؛ فقد جاهدوا في سبيل دعوة الناس إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ومحاربة الشرك بمختلف صوره وأشكاله على بصيرة من الله؛ بالحكمة والموعظة الحسنة والطريقة المثلى؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أي: قل يا محمد: إن هذه دعوتي وطريقتي التي أدعو إليها والتي أنا عليها؛ من الدعاء إلى توحيد الله؛ وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته على بصيرة بذلك ويقين علم مني به، وما أنا من المشركين ببراءتي من أهل الشرك به؛ فلست منهم ولاهم مني(١).

ومن اتفاق أهل الحق في دعوتهم اتفاقُهم في أصول الاعتقاد؛ كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية، أما اتفاقهم في أصول الاعتقاد: فهو كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر...»(٢).

والدليل على اتفاق أهل الحق في هذه الأصول قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾

(١) جامع البيان (١٣/ ٣٧٨)، بتصرف يسير.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥٩).

[البقرة: ٢٨٥].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بهذه الأصول العظيمة وبجميع الرسل وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة»(١).

ولذلك كان أهل الحق أكثر الناس تعظيمًا لله تعالى ولأوامره ونواهيه، وأكثر الناس محبة للرسل عليهم السلام؛ اتباعًا وتعظيمًا.

وأيضًا من اتفاق أهل الحق في دعوتهم توحيد الاتباع:

فهم أتباعُ الرسل عليهم الصلاة والسلام، يلتزمون بكل ما جاء عنهم أمرًا و نهيًا.

والله ﷻ قد ختم دينه وجمعه بسيدِ الرسل وإمامِهم محمد ﷺ، فصار أهل الحق جميعُهم تبعًا للنبي ﷺ يأخذون عنه دينه، ويبلغونه دون زيادة أو نقصان.

ولذا كان كل من سمع بالنبي ﷺ ولم يؤمن به ويتَّبعْه وادعى أنه من أتباع أحد الرسل عليهم السلام غير النبي محمد ﷺ = فقد كذب في دعواه؛ لأن أي نبيٍّ لو كان حيًّا وسمع بدعوة النبي ﷺ لم يسعه إلا اتباعه، وقد بين ذلك النبي ﷺ ذلك بقوله: (والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا، لما وسعه إلا أن يتبعني)(٢).

وخلاصة هذه المسألة: أن أهل الحقِّ مهما تباعد بهم الزمان، وتفرق بهم المكان، إلا أنهم متفقون على أصولِ دينهم، لا يضرُّهم من خالفهم أو خذلهم إلى قيام الساعة، فقد تكفل الله بنصرهم وإبقاء ذكرهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ وفي هذا ردٌّ عظيم على المخالفين ببيان ما هم عليه من التفرق والاختلاف في دينهم وعقيدتهم، وما هم عليه أهل الحق من الاتفاق في دينهم ودعوتهم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٩٦١).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (١٥١٥٦)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٦/ ٣٤)، برقم (١٥٨٩).

المسألة الثانية: صورٌ من اتفاقهم في الدعوة.

وفيها صورتان:

الأولى: أنهم لا يأخذون على دعوتهم أجرًا، ولا يريدون من أحد جزاءً ولا شكورًا إلا من ربهم جل في علاه، قال الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[هود: ٢٩].

أي: لا أسألكم على نصيحتي لكم ودعوتكم إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له أجرا على ذلك، فتتهموني في نصيحتي، وتظنون أن فعلي ذلك طلب عرض من أعراض الدنيا.

فما ثواب نصيحتي لكم ودعوتي إياكم إلى ما أدعوكم إليه، إلا على الله، فإنه هو الذي يجازيني، ويثيبني عليه[(١)].

وقال هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[هود: ٥٠ – ٥١].

أي: لا أطلب منكم على هذا التبليغ الذي بلغتكم لما فيه لكم خير الدنيا والآخرة في مقابلته جعلًا، ولا أجرة أنتفع بها في الدنيا، حاشا وكلا، إنما أجري في ذلك على الله.

وهذه عادة كل الأنبياء عليهم السلام يبلغون العلم من غير أن يأخذوا عليه جعلًا[(٢)].

وكذلك قول النبي ﷺ لمشركي قريش: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣]، أي «لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالًا تعطونيه، وإنما أطلب

---

(١) انظر: جامع البيان (١٢/ ٣٨٥).

(٢) انظر: العذب النمير (١/ ٤٩٤).

منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالات ربي؛ إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة»[١].

الثانية: شفقتهم بالمخاطَب وحرصهم على نجاته من النار، وهذه سمة بارزة فيهم، فليس همهم الغلبة عليه، أو الإيقاع به؛ بل نجاته من العذاب، وتذكيره بيوم الحساب.

فهذا **مؤمن قوم فرعون** يتلطف مع قومه ويحثهم على الإيمان بالله تعالى واتباع نبي الله موسى والنجاة بأنفسهم مما هم عليه من الكفر، قال تعالى مبينًا حاله وحالهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[غافر: ٤١]، أيكون جزائي بدعوتكم للنجاة من عذاب الله وعقوبته - بالإيمان به واتباع رسوله موسى عليه السلام - أن تكافئوني بدعوتكم إياي لأكفر بالله تعالى ورسوله فأكون من أهل النار ؟!.

وكذلك شفقة نبي الله إبراهيم بأبيه، وإلحاحه عليه كي يترك الشرك وأهله لينجو من عذاب الله وأليم عقابه، بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[مريم: ٤٥] فقابله أبوه بالشدة والتهديد بقوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾[مريم: ٤٦].

ومع هذا التهديد وتلك الشدة قابله إبراهيم عليه السلام بالشفقة، وفارقه عليها قائلًا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾[مريم: ٤٧].

والداعي إلى الحق لا بد أن يكون نصوحًا، عطوفًا، رفيقًا في دعوته للناس، ولا يكون قاسيًا شديدًا ينفر الناس ويصدهم عن سواء السبيل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٩٩).

عليه والغيرة له، وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه؛ فيتلطف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيبِ العالمِ المشفقِ المريضَ المشبعَ مرضًا، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح»[(١)].

المسألة الثالثة: حال أهل الباطل في دعوتهم.

فحال أهل الباطل فيما هم عليه: اختلاف وتفرق وتشتت.

أما **التفرق والاختلاف** فقد ذكرهما الله في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[آل عمران: ١٠٥]، «وأريد بالذين تفرقوا واختلفوا: الذين **اختلفوا في أصول الدين**؛ من اليهود والنصارى، من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق»[(٢)].

وهذا عام في جميع أهل الباطل؛ من أتباع الأديان الأخرى غير الإسلام، وأيضًا من الفرق التي تَنسِبُ نفسها إلى الإسلام والتي ذكر النبي ﷺ سلم أنها في النار.

فلو كان أهل الباطل يسلكون جادة الحقِّ لما افترقوا فيما بينهم فرقًا شتى، فأصبحوا شيعًا وأحزابًا، يتهمون بعضهم بالباطل والضلال.

وقد بيَّن الله شيئًا من حالهم يظهر فيه تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم؛ ومن ذلك ما بين اليهود والنصارى من التدابر والتباغض والتحاسد؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[البقرة: ١١٣].

---

(١) كتاب الروح (١/ ٧١٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٥٨).

وأيضًا من الأدلة على تفرقهم واختلافهم، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾[الأنعام: ١٥٩].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمراد بتفريقهم الدِّينَ: أن كل طائفة تنتحل نحلة تزعم أنها هي الدين؛ فهي في أهل الأهواء والبدع والضَّلالات، ويدخل فيهم اليهود والنصارى... فقد فرَّقوا دينهم، ومعناه: أن كل طائفة وفرقة انتحلت نحلة تزعم أنها هي الدين الحقُّ، وأن ما سواه باطل، والجميع كله ضلال وبدع وأهواء»(١).

ومما يشهد لذلك أيضًا قول النبي ﷺ: (افترقت اليهود على إحدى - أو ثنتين - وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى - أو ثنتين - وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)(٢). وفي رواية الترمذي: (كلهم في النار إلا ملة واحدة) قالوا: ومن هي يا رسول الله ؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي)(٣).

فبيَّن النبي ﷺ أن اليهود افترقوا إلى إحدى وسبعين فرقة، وهذه الإحدى والسبعين فرَّقت دينها، وجعلته إحدى وسبعين فرقة، كل واحدة تدعي أنها على الحقِّ، وأن غيرها ضال، وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، كل فرقة تزعم أنها على الحقِّ، وأن غيرها ضال، وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، تزعم كل واحدة أنها على الحقِّ.

وجميع الفرق في النار إلا فرقة واحدة، وهم ما عليه النبي ﷺ وأصحابه، فهم أهل

---

(١) العذب النمير (٢/ ٦٠٢).

(٢) رواه أبو داود، كتاب السنة، باب شرح السنة، برقم (٤٥٩٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ٤٠٢)، برقم (٢٠٣).

(٣) رواه الترمذي، كتاب صفة جهنم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في افتراق الأمم برقم (٢٦٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٩٤٣).

الحقِّ والطائفةُ المنصورة[١].

لذلك تجد أهل الباطل لا يتفقون في عباداتهم واعتقاداتهم، فكل ملة - منهم - لها رب يعبدونه، وأضغاثُ اعتقاداتٍ يعتقدونها، فعبادتهم ليست ثابتة؛ بل متجددة تزيد وتنقص على حسب أهوائهم وآرائهم.

وكذلك تراهم في كل واد يهيمون؛ فمنهم من يعبد بشرًا، وآخر يعبد حجرًا، مع التقرب إلى معبوداتهم بشتى أنواع القرابين القولية والفعلية ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ [النور: ٤٠]، طُمِستْ أعينُهم، وأُغشِيتْ قلوبُهُم؛ فلا يرون سوى الضلال لهم دينًا، والباطل لهم حقًّا مبينًا[٢].

أما التشتت: فهي سمة من سماتهم، وثمرة من ثمرات تفرقهم واختلافهم.

قال تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] أي: أن أهل الباطل تظنهم مؤتلفين مجتمعة كلمتهم، وقلوبهم مختلفة لمعاداة بعضهم بعضًا[٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأهل الباطل مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحقِّ»[٤].

---

(١) انظر: العذب النمير (٢/ ٦٠٢).

(٢) وسيأتي في المطلب الخامس بيان واسع لهذه المسألة إن شاء الله.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٢٩٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٣٦). قلت: وفي هذا تنبيه لأهل الحقِّ كي يكونوا على قلب رجل واحد، وأن يكونوا صفًّا كأنهم بنيان مرصوص.

فإن أهل الباطل مهما اختلفوا بينهم إلا أنهم قد تجمعهم العداوة لأهل الحقِّ، وهذا ما حصل بين الشيعة الإثني عشرية والنصيرية حينما اجتمعوا تحت راية واحدة في قتل أهل السنة في الشام رغم ما بين النصيرية والإثني عشرية من الاختلاف العقدي؛ وأن كل طائفة منهما تكفر الأخرى، فتأمل!

المطلبُ الثالث

بيانُ ما عند أهلِ الحقِّ من التسليمِ والإذعان بخلافِ ما عند المخالفينَ من التألِّي والتَّحكُّم الباَطل

من المعلوم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما شرع شيئًا لخلقه إلا لعلمه سبحانه ما فيه صلاح عباده ومصلحتهم في الدنيا والآخرة؛ سواء كان أمرًا أو نهيًا.

ثم إنه لم يبتلِ عباده بخير أو شر إلا ليعلم المؤمن من الكافر، ويُبيِّنَ الصادق بإيمانه من الكاذب، ويَميزَ الخبيث من الطيب.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ: «فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله وأمر بطاعتهم والانقياد لهم والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.

فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته لخلقه»[1].

وكثير من الأحكام الربانية قد تجيءُ على خلاف مراد الإنسان؛ وهي من باب الابتلاء والاختبار – كما تقدم – فأهل الحقِّ ينقادون لله ويذعنون لقضائه وقدره ويسلِّمون لحكمه وأمره، وأهل الباطل لا ترى منهم سوى العناد والمكابرة وعدم التسليم والانقياد.

وهذا ما أوضحه في المسائل التالية:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٥٨).

المسألة الأولى: حال أهلِ الحقِّ في التَّسليمِ والإذعان لله تعالى.

فحالهم إذا أتى من الله ورسوله ﷺ أمر أو نهي فإنهم يسمعون ويطيعون، مع الاستسلام لقضائه، والإذعان لأمره.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[النور: ٥١]. «أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقمنا به، وامتثلنا العمل بمقتضاه»(١).

قال الشيخ السعدي: «﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة سالمة من الحرج»(٢).

ومن الآيات الدالة على تسليم أهل الحقِّ لله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمٗا﴾[النساء: ٦٥] أي: «ينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كليًّا؛ من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة»(٣).

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾[البقرة: ٢٨٤]. شقَّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ؛ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء»، فأرشدهم النبي ﷺ إلى أن يقولوا: (سمعنا وأطعنا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٢١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٥٧٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٤٩).

وسلمنا)[١].

ولما امتثلوا بما جاء عن الله ورسوله ﷺ أنعم الله عليهم برفع الحرج عنهم، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون، مع غفران ذنوبهم ورحمته بهم.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت»[٢].

و من الأدلة على تسليم أهل الحقِّ لربهم ﷻ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] وذلك لما حاصر الأحزاب المدينة واشتد الأمر على النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن لدى كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة؛ والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] أي: الظنون السيئة أن الله لا ينصر دينه، ولا يتم كلمته.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: ١١] بهذه الفتنة العظيمة ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] بالخوف والقلق والجوع، ليتبيَّن إيمانهم ويزيدَ إيقانهم، فظهر – ولله الحمد – من إيمانهم، وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، برقم (١٢٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، برقم (١٢٦).

فعندما اشتد الكرب، وتفاقمت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، وقالوا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾[1] [الأحزاب: ٢٢] أي «صبراً على البلاء وتسليمًا للقضاء، وتصديقًا بتحقيق ما كان الله وعدهم ورسوله»[2].

ومن الصور التي تبيِّن كمال التسليم لله ولأمره وقضائه: قصة إبراهيم عليه السلام حينما أُمر بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام فـ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الصافات: ١٠٢].

فكان الإذعان والتسليم من كلا النَّبيين عليهما السلام؛ **فأما إبراهيم عليه السلام:**

فحينما امتثل الأمر بذبح ابنه وفلذة كبده، وهذا أمر شاق على الآباء وعسير عليهم، وذلك لأمور:

الأول: أن إبراهيم عليه السلام أُمِر بمباشرة الفعل بنفسه دونما سواه؛ فلو كان الأمر فيه تخيير لإبراهيم وكان المُباشِر للقتل غيرَه لكان الأمر - وإن كان صعبًا - هو أهون من مباشرة القتل بنفسه.

الثاني: أن هذا الغلام صغير السِّنِّ ضعيفُ الجسم، وحاله هذه مما ترقُّ له القلوب وتعطف له الحنايا وترحمه النفوس أكثر ممن كبر سنه وقوي جسمه.

الثالث: أن ابنه لم يرتكب ذنبًا ولم يقترف جرمًا يستحق عليه القتل، فيكون الأمر عسيرًا على المباشر للقتل أن يفعل ذلك لإقدامه على قتل بريء[3].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٦٥٩).

(٢) جامع البيان (١٩/ ٦٠).

(٣) وهو ما أثار غضب نبي الله موسى عليه السلام حينما قتل الخضر الغلام؛ فأنكر عليه وقال: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴾[الكهف: ٧٤].

الرابع: أن طريقة القتل مما تقشعر لها الأبدان، وتتصدع لها القلوب والأركان؛ فهي الذبح كما تذبح النعاج والخرفان.

فلو كان القتل ضربة بسيف فما هي إلا لمحة ويكون الرأس قد فصل عن الجسد فلا يشعر من هوى السيف عليه بالألم ويبقى ساكنًا لسرعة خروج الروح منه، بخلاف الذبح فإن هناك ألمًا عند الذبح، وخرخرة للدماء، ورجفانًا شديدًا للبدن عند خروج الروح منه. وهذا كله مما يجعل الأمر شاقًّا على الإقدام عليه.

الخامس: أن الابن هو جزء من الأب وقطعة من قلبه؛ وهذا يعرفه الآباء أكثر من غيرهم، فكيف يجسر أحد أن يقطع جزءًا من قلبه ؟!

ومع هذا كله سلَّم إبراهيم عليه السلام لأمر ربه واستسلم لقضائه وقدره، راضيًا مخبِتًا طائعًا، فنجح في اختبار ربه له فاستحق أن يكون خليلًا لله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كانت الخلة مرتبة لا تقبل المشاركة؛ امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبة من قلبه[١]، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره؛ فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذبحه من قلبه لا ذبحه بالمدية فلما أسلما لأمر الله وقدم محبة الله تعالى على محبة الولد خلص مقام الخلة وفدى الولد بالذبح»[٢].

أما التسليم والإذعان من إسماعيل عليه السلام فكان بأمرين:

الأول: حينما قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢]. أي: «امض لما أمرك الله من

---

(١) أي أخذ نصيبًا من محبة الوالد للولد.

(٢) روضة المحبين (٧٦-٧٧).

ذبحي»[١]. وفيه من رجاحة العقل والحكمة والبر بوالده أن علم أن أباه مأمور من ربه، فقال له: افعل ما تؤمر؛ طاعة لله تعالى أولًا ولأبيه النبيِّ عليه السلام ثانيًا.

الثاني: بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. أي «سأصبر وأحتسب ذلك عند الله ﷻ؛ وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤]»[٢].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال خليل الله إبراهيم لولده في وقت ما قص عليه ما رأى: ماذا ترى؟ أي ماذا تشير به؛ ليستخرج بهذه اللفظة منه ذكر التفويض والصبر والتسليم والانقياد لأمر الله، لا لمواراته لدفع أمر الله تعالى...

والتفويض: هو الصبر، والتسليم: هو الصبر، والانقياد: هو ملاك الصبر، فجمع له الذبيح جميع ما ابتغاه بهذه اللفظة اليسيرة»[٣].

وهنا قد يأتي إشكال:

لم شاور إبراهيم عليه السلام ابنه في أمر هو حتم من الله ؟

يقال: «لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله، فيثبِّت قدمه ويصبِّره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله: ولأنّ المغافصة[٤] بالذبح مما يُستَمْسَج[١]، وليكون سنة في

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٦).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٦).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤/ ٤٥٤).

(٤) قال ابن منظور في اللسان (٧/ ٦١): «غافصَ الرجل مغافصة وغفاصًا: أخذه على غرَّة».

المشاورة»(٢).

ويأتي التسليم المطلق من كلا النبيين عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] «أي استسلما وانقادا لأمر الله فلم يبق هناك منازعة لا من من الولد، بل استسلامٌ صرف، وتسليمٌ محض»(٣). فـ «أسلم إبراهيم ابنه، وأسلم الابن نفسه»(٤).

وفي هذه الصورة مثال عظيم من أمثلة التسليم لقضاء الله تعالى وقدره؛ فيجب على أهل الحقِّ الاقتداء بأخلاق الأنبياء عليهم السلام؛ ومن أعظمهم نبينا محمد ﷺ الذي كان مثالًا في التسليم والامتثال لقضاء الله وقدره(٥).

المسألة الثانية: حال أهل الباطل في التسليم والإذعان لله تعالى.

أما حال أهل الباطل فهو التولي وعدم الانصياع لله ورسله، ثم إنهم إذا دعوا للامتثال لأمر الله قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾[النساء: ٤٦]، أي أصبح حالهم أنهم يسمعون ولا يطيعون، وهو عام في كل أهل الباطل، وفي كل زمان ومكان «فقولهم:

=

(١) أي يستقبح.

(٢) الكشاف (٤/ ٥٥).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٢٠٦).

(٤) معالم التنزيل (٧/ ٤٨).

(٥) ومن أمثلة ذلك تسليمه ﷺ لما مات ابنه إبراهيم؛ فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن سلَّم لقضاء ربه وقدره وقال: (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون). رواه البخاري، كتاب: الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» برقم (١٣٠٣)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، برقم (٢٣١٥).

سمعنا وعصينا ينبغي أن يجري على إطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولا تخصيص بمادة دون مادة؛ بل وأن يُحمَل على ما هو أعم من القول الحقيقي؛ ومما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم. أي: يقول في كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحضر النبي ﷺ أو لا، بلسان المقال أو الحال: سمعنا وعصينا عنادًا أو تحقيقًا للمخالفة»[1].

وأهل الباطل هم أتباع لشيخهم وكبيرهم إبليس؛ حينما رفض الإذعان لأمر الله تعالى، والتسليم لحكمه، وامتنع عن أمر الله في السجود لآدم، فقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾[الإسراء: ٦١] ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[ص: ٧٦]، و ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[الحجر: ٣٣].

ومن الأمثلة لواقع حالهم هذا؛ ما جرى بين موسى عليه السلام وبين بني إسرائيل لما أمرهم بدخول بيت المقدس وقتال الجبارين؛ فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾[المائدة: ٢١].

فرغبهم بالأجر ووعدهم بالنصر وقال لهم: فقط ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾[المائدة: ٢٣] فقابلوه بمعصية أمره ورفضه وعدم التسليم له، بعد أن قدموا الأعذار الواهية لعدم لدخولهم لها، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة: ٢٤].

فكان موقفهم مع نبيهم عليه السلام مخزيًا مع كل ما تعرض له من أذًى في سبيل فلاحهم ونجاحهم، فقابلوه بالإرجاف، وعدم التسليم والتصديق بوعد الله لهم من النصرة والتمكين.

فشتان بين من هذا حالهم وبين حال أصحاب النبي ﷺ حينما أقبل جيش المشركين

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (١/ ٧٠٦).

بخيلهم ورجْلِهم، ولم يكونوا قد استعدوا لحرب أو خرجوا لقتال، فقالوا للنبي ﷺ: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك، وعن يسارك، ومن بين يديك، ومن خلفك، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره»(١).

فقارن بين أصحاب موسى عليه السلام وخذلانهم لنبيهم وعدم طاعتهم له، وبين أصحاب النبي ﷺ وطاعتِهم لنبيهم وتفديتهم له بآبائهم وأمهاتهم، ولا غرابة فهم جيل الكرام؛ ومن يطعن بهم ويُسيء إليهم هم أناس أوغاد لئام، شذاذ آفاق خُبلٌ هُبلٌ، لا تكفي مجامع الهجاء في الانتصاف من ثُلة رعناء؛ جعلوا الخنا لهم طبعًا، والبذاءة لهم درعًا. فرضي الله عن الصحابة عدد ذرات الرِّمال وحصيات الجبال.

ومن أسباب عدم التسليم والانقياد عند أهل الباطل العلو والتكبر.

ومن ذلك امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام إباءً وتكبراً كما تقدم، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾ [البقرة: ٣٤] فعصى إبليس ربه لكبره وغروره.

وكذلك بيَّن الله تعالى أن سبب كفر فرعون وأتباعه هو الاستكبار والعلو في الأرض؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ ﴾[يونس: ٧٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا إخبار من الله ﷻ عن تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل»(٢).

ولذلك بيَّن الله تعالى أن التواضع وعدم الاستكبار هو من أسباب قبول الحق

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: قوله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم...) الآيات، برقم (٣٩٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٦١).

والانقياد له؛ فقد وصف الله طائفة من أهل الكتاب – وهم بعض القسيسين والرهبان – أنهم إذا دعوا للحق أذعنوا له ولم يستكبروا؛ فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[المائدة: ٨٢] «يعني عن الإذعان للحق إذا لزم، وللحجة إذا قامت»[1].

ومن غريب حال أهل الباطل أنهم قد يؤثرون الموت والهلاك على الإذعان للحقِّ؛ لشدة عنادهم وتكبرهم عن قبوله، والانقياد له.

وقد وصف الله تعالى شيئًا من حالهم حينما دَعَوْا على أنفسهم بالرجم بالحجارة والعذاب الأليم بدلًا من قبول الحقِّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢] فسبحان الله.. ما الذي يَضيرهم لو قالوا: إن كان هذا هو الحقُّ من عندك فاهدنا له، ونور قلوبنا به؟! لكنهم – بجهلهم وحماقة عقولهم – آثروا الغواية على الهداية، واستحبوا العذاب على المتاب، فما جنوا إلا المهانة في الدنيا، ويوم القيامة لهم شديد العقاب.

(١) النكت والعيون (٢/ ٥٨).

المطلب الرابع

بيانُ أنَّ من شأنِ أهلِ الحقِّ التحاكمُ إلى الحقِّ؛ و أهلُ الباَطلِ بضد ذلك(١)

من مقتضى الإيمان بالله تعالى أن يخضع العباد لحكمه، ويرضوا بشرعه، ويكون هو الحكم بينهم حين الاختلاف والتنازع؛ ولا يجوز العدول عن ذلك بأي حال من الأحوال.

وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ – في آيات كثيرة من كتابه – أن الحكم له وحده لا شريك له؛ وكلما ذكر الله اختصاصه بالحكم أوضح العلامات التي يُعرف بها من يستحق أن يحكم ويأمر وينهى ويشرع ويحلل ويحرم، ومن ليس له شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: آية ٤٠]. وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص: آية ٧٠]. وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: آية ١٠].

ومن أهم السِّمات التي تميِّز أهل الحقِّ عن أهل الباطل التسليم المطلق لحكم الله ورسوله ﷺ؛ وقد ذكرت في المطلب السابق تسليم أهل الحق وإذعانهم بكل شيء يأتي عن الله تبارك وتعالى، وفي هذا المطلب أتناول أمرًا هو فرع عنه ومثال له، ويبدو ذلك في مسألتين:

المسألة الأولى: حال أهل الحق في قضية التحاكم.

فقد بيَّن الله تعالى أن من صفات أهل الإيمان تحكيم شرعه في كل أمورهم، مع التسليم المطلق لحكمه؛ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

(١) وهذا المطلب هو فرع عن سابقه؛ ولأهميته جعلته مفردًا.

فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور؛ فما قضى به فإنما هو الحقُّ الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم؛ فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة [١].

وهذا وإن كان خبراً من الله تعالى إلا أنه ضمَّنهُ الأمر والحث على طاعة الرسول ﷺ والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل عليهم السلام أن يكونوا مُطَاعين يَنقَاد لهم المرسَلون إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظَّمين تعظيم المطيع للمطاع [٢].

وأيضًا من صفات أهل الحق السمع والطاعة لحكم الله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم؛ سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج» [٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٤٩) بتصرف يسير.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (١٨٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥٧٢).

ومن صفات أهل الحقِّ أنه إذا قضى الله ورسوله أمرًا لم يتخيروا من أمرهم غير الذي قُضيَ فيهم، ولا يخالفون أمره تعالى وأمر رسوله ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٦].

وسبب نزول الآية:

أن رسول الله ﷺ انطلق يخطب على فتاه زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «فانكحيه»، فقلت: يا رسول الله أؤامر في نفسي؟، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ فقالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحًا؟ قال: «نعم»، قالت: إذن لا أعصي رسول الله، قد أنكحته نفسي(١).

فتأمل سرعة استجابة زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عندما علمت أنه أمر من الله ورسوله ﷺ؛ وهذا هو شأن أهل الحق وسلوكهم في كل زمان ومكان.

المسألة الثانية: حال أهل الباطل في قضية التحاكم.

ولا يخرج أهل الباطل في هذا عن أحد حالين:

الأول: الامتناع عن التحاكم للحق بالكلية واستبداله بأحكام أسيادهم وكبرائهم.

كما بيَّن الله تعالى حال طائفة منهم؛ وهم أحبار اليهود، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[آل عمران: ٢٣].

---

(١) انظر جامع البيان (١٩/ ١١٣).

أي: يدعون إلى القرآن ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم عن قبول حكمه إعراضًا عن قَبول الحقِّ، وإصرارًا على الباطل، وهذا ديدنهم.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾[النساء: ٦٠].

أي: يريدون التحاكم في خصوماتهم إلى الباطل ومن يعظمونه، ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله تبارك الله وتعالى(١).

ومن جعل غير شرع الله حاكمًا يتحاكم إليه فقد اتخذ سيدًا غير الله، والذي جعل عقله حاكمًا على شرع الله ما قَدَرَ الله حقَّ قدره بأنه الحاكم الشارع، والذي يقدم آراء الرجال، ويقلد الآباء والشيوخ والأحبار والرهبان ما جعل الله سيدًا، وإنما جعل السيادة للمتبوعين.

وفي سبب نزول الآية أقوال كثيرة ذكرها الإمام الطبري وغيره؛ منها:

أنه كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو إلى اليهود لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة، فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة ، فأنزل الله فيه هذه الآية(٢).

ومنها: أنه تنازع رجل من المنافقين ورجل من اليهود، فقال المنافق: اذهب بنا إلى كعب بن الأشرف. وقال اليهودي: اذهب بنا إلى النبي ﷺ. فأنزل الله هذه الآية(٣).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكر بعض الأقوال في سبب نزولها: «والآية أعم من ذلك

(١) انظر: جامع البيان (٧/ ١٨٨).

(٢) انظر: المصدر السابق (٧/ ١٨٩).

(٣) انظر: جامع البيان (٧/ ١٩٣).

كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل»[١].

الثاني: قَبول التحاكم للحق إن كان الحقُّ معهم، ورفضه إذا كان ضدهم.

وهذا حال من أحوالهم؛ أنهم يُعرضون عن الحكم إن كان الحقُّ ضدهم، ويرضون بالحكم إذا كان الحقُّ لهم ووافق أهواءهم، وقد بيَّن الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾[النور: ٤٨ - ٤٩].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾[النور: ٤٨] أي: إذا صار بينهم وبين أحد حكومة، ودعوا إلى حكم الله ورسوله=﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[النور: ٤٨]؛ يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية؛ لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع، ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[النور: ٤٩] أي: إلى حكم الشرع ﴿مُذۡعِنِينَ﴾[النور: ٤٩] وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم»[٢].

ثم قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[النور: ٥٠].

فبيَّن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن سبب إعراضهم عن الاحتكام إلى كتاب الله، وإلى رسول الله **لا يخرج عن واحد من ثلاثة أمور**:

الأول: إما أن يكون سببه مرض النفاق الذي سرى في قلوبهم؛ فلا يقبلون إلا ما وافق أهواءهم ؟! وذلك في قوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[النور: ٥٠].

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٧٢).

الثاني: أو أنهم شكوا وارتابوا في عدل النبي ﷺ أو نبوته[1] فلم يقبلوا الحكم منه، وذلك في قوله: ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾[النور: ٥٠].

الثالث: أو أنهم خافوا أن يجور عليهم الله ورسوله ﷺ في الحكم. وذلك في قوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[النور: ٥٠].

فهم لم يعدلوا عن الاحتكام إلى الله ورسوله ﷺ إلا لأنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق، لأنهم قوم أهل ظلم لأنفسهم بخلافهم أمر ربهم، ومعصيتهم الله فيما أمرهم من الرِّضا بحكم رسول الله ﷺ فيما أحبوا وكرهوا، والتسليم لقضائه[2].

وبهذا يتبيَّنُ الفرق بين أهل الحق وبين أهل الباطل في التحاكم إلى الله تعالى، وقبول حكمه، سواء كان لهم أو عليهم.

---

(١) انظر: النكت والعيون (٤/ ١١٧).

(٢) انظر: جامع البيان (١٧/ ٣٤٢).

المطلبُ الخامسُ

بيانُ ما يمتازُ به أهلُ الحقِّ من عبادةِ إلهٍ واحدٍ وبين من يتعبَّد لآلهةٍ متعدِّدة

ومن الردِّ على المخالفين في العقيدة بيان التمايز بين أهل الحق وبين أهل الباطل في تحقيق التوحيد، وأن أهل الحق حققوا التوحيد لله تبارك وتعالى، وأهل الباطل قد وقوعوا في الشرك وعبدوا غيره تعالى.

وعند المقارنة بين حال كلا الفريقين في هذا الباب تتبيَّنُ مِيزَة أهل الحقِّ وكذا فضيلتهم واختصاصهم في عبادتهم للإله الحقِّ المعبود ورفعة الدرجة وعلو القدر والمكانة، وحال أهل الباطل في تعدد آلهتهم واختلافها، وما هم عليه من المذلة والمهانة.

وهذا ما توضحه المسائل التالية:

المسألة الأولى: امتياز أهل الحقِّ عن أهل الباطل في العبادة من حيث العقل والفطرة.

فلا عجب في عبادة أهل الحق لله تعالى؛ فهي عقيدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها لكن العجب ممن عبد من دون الله آلهة أخرى، وترك دين الفطرة والتوحيد وأسلم وجهه لكل شيطان مريد.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال الله في الحديث القدسي: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة =

وقال النبي ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه)(١).

فإن كانت الفطرة تؤيد ما عليه أهل الحق من عبادة الإله الواحد الحق فكذلك العقل يؤيده؛ فإن العقل السليم يشهد أنه لا غرابة في عبادة أهل الحقِّ لله تعالى، على خلاف ما عليه أهل الباطل؛ فإن العقل السليم يمجُّه ويرفضه رفضًا قاطعًا.

ومن الأدلة العقلية على صحة عبادة أهل الحق لله ﷻ أمور أهمها:

١- انفراد الله بالنعم ودفع النقم.

فمن عرف أن النعم الظاهرة والباطنة؛ القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نقمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها، وإن أحدًا من الخلق لا يملك لنفسه - فضلًا عن غيره- جلب نعمة ولا دفع نقمة= تيقَّن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار.

٢- اتصاف المعبودات التي عُبدت من دون الله بالنقص.

فالله تعالى أخبر عن المعبودات التي عبدت من دونه أنها لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئًا، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص.

وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة

=

وأهل النار برقم (٢٨٦٥) من حديث عياض المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام، برقم (١٣٥٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم (٢٦٥٨).

والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حقَّ المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كله، لا بالمخلوقات المدبَّرات النَّاقصات الصم البكم الذين لا يعقلون.

٣- إكرام الله ﷻ لأهل التوحيد وإذلاله لأهل الشرك والتنديد.

فما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك= ما ذاك إلا لأن الله جعل التوحيد موصلًا إلى كل خير، دافعًا لكل شر في الدين والدنيا، وجعل الشرك به والكفر سببًا للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر الله تعالى قصص الرُّسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم= قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾[البقرة: ٢٤٨] أي: لعبرة يعتبر بها المعتبرون فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك(١).

فهل يستوي من يعبد إلهًا واحدًا خالق الخلق ورازقهم ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم، يُتوجَّهُ إليه بالعبادات، ويُتقرَّبُ إليه بالطاعات = مع من يعبد آلهة كثيرة من البشر والحجر وغيرها وهي ضعيفة فقيرة مربوبة مآلهها للبوار والدمار؟!.

وهل يستوي من يعبد إلهًا حيًّا سميعًا بصيرًا قويًّا قادرًا، ومن يعبد أمواتًا وجمادات صماء بكماء عاجزة لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا ؟!

قال تعالى مبينًا شيئًا من حالهم: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن (١٢٤)، بتصرف يسير.

صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[الأعراف: ١٩١ – ١٩٥].

المسألة الثانية: امتياز أهل الحق عن أهل الباطل في هذا الباب من حيث الدعوة والتعبد.

- فأهل الحق يعبدون إلهًا واحدًا خلقهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، ودعوا إلى ذلك وجاهدوا فيه جهادًا عظيمًا.

- وأهل الباطل **تنوعت آلهتهم وتعددت معبوداتهم**، وكل طائفة منهم تعبد إلهًا خاصًّا بها، تُقدِّمُ له ألوان الطاعات، وأصناف القُرُبات.

وقد تخبطوا في ذلك تخبطَ الناقة العمياء في الليلة الظلماء، وتشتتوا بسبب أهوائهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة.

فتجدُ منهم من يعبد البشر:

وقد بيَّن القرآن الكريم أن هؤلاء على ضربين:

١- من يعبدُ بشرًا ويتخذُه إلهًا؛ كالنصارى الذين عبدوا المسيح عليه السلام واتخذوه إلهًا.

٢- ومن يعبد بشرًا بطاعته إياه بما يُحلُّه ويُحرمُه.

وقد جمع الله تعالى كلا الفريقين بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[التوبة: ٣١].

فبيَّن أن النصارى اتخذوا المسيح ربًّا من دون الله، وقد أمروا أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وبين أن اليهود اتخذوا أحبارهم والنصارى رهبانهم سادة لهم من دون الله

يطيعونهم في معاصي الله؛ فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم، ويحرمون ما يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين: **أحدهما**: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل= فهذا كفر؛ وقد جعله الله ورسوله شركًا - وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم - فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله؛ مشركًا مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام[(٢)] ثابتًا لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذُّنوب»[(٣)].

ومن أهل الباطل من يعبد الأصنام.

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم كثيرًا، ومنهم قوم نوح عليه السلام حينما صنعوا تماثيل على هيئة أناس صالحين ثم عبدوها، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[نوح: ٢٣]. وانتقلت هذه الأصنام من بعدهم وصارت آلهة لمشركي

---

(١) جامع البيان (١١/ ٤١٦).

(٢) قال الشيخ ناصر بن حمد الفهد في كتابه صيانة مجموع الفتاوى من السقط والتصحيف ص (٥٩): «وقوله هنا: (بتحريم الحلال وتحليل الحرام) قد أشار عدد من أهل العلم إلى أنها قد تكون تصحيفًا من النساخ، والأظهر أن العبارة هي: (بتحريم الحرام وتحليل الحلال)».

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠).

العرب إضافة إلى ما أحدثوه من أصنام أخرى كاللات والعزى ومناة.

وأيضًا وقعت عبادة الأصنام في قوم إبراهيم عليه السلام، وقد أنكر عليهم هذه الجريمة، ولم يكتف بالإنكار عليهم فقط؛ بل قام بتحطيم أصنامهم جميعِها إلا واحدًا هو أكبرها، بغية مناظرتهم، وإظهار حقارة أصنامهم وضعفها، وعدم قدرتها على حماية نفسها فضلًا عن حماية عابديها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ٥١ – ٥٣].

إلـــى أن قـــال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[الأنبياء: ٥٧ - ٥٨] إلى آخر الآيات.

ومن نظر في واقع العرب قبل بعثة النبي ﷺ رأى الأعاجيب من حالهم في عبادة الأصنام.

ومن ذلك: ما ورد أن عمرو بن الجموح كان له صنم وكان بعض الفتيان ممن أسلم وشهد العقبة يأتونه ليلًا فيلقون صنمه في حفر بني سلمة، وفيها عذرة الناس منكَّسًا على رأسه؛ فيطلبه فيغسله ويطيبه ثم يقول له: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه، فإذا نام وأمسى عمرو عدَوْا عليه ففعلوا به مثل ذلك فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى.

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى؟ فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام عمرو عَدَوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس، ثم غدا

عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلمه من أسلم من رجال قومه، فأسلم وحسن إسلامه(١).

وكذلك كان لأحد المشركين صنم يعبده، فجاء يوما فوجد ثعلبًا يبول على رأسه فأنشد يقول: [البحر الطويل]

أربٌّ يبول الثعلبانُ برأسه لقد ذلَّ من بالتْ عليه الثَّعالبُ(٢)

والأخبار في ذلك كثيرة جدًّا.

ومن أهل الباطل من عبد الكواكب:

وهم الصابئة، الذين يعبدون الكواكب والنجوم؛ كقوم إبراهيم عليه السلام؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان قوم إبراهيم مشركين يعبدون هذه الكواكب زاعمين أن في ذلك جلب منفعة أو دفع مضرة(٣)، ويدعونها ويبنون لها الهياكل ويعبدون فيها أصنامهم»(٤).

وقد ناظرهم الخليل في عبادتهم تلك الكواكب مناظرة بديعة بيَّن فيها ضلالهم، وسفه بها عقولهم، وبيَّن براءته منهم؛ وأنه أخلص دينه وأفرد عبادته للذي خلق هذه الكواكب من غير مثال سابق.

وللصابئة بقايا في العراق، لهم طقوس وعبادات؛ ويطلق عليهم (الصابئة المندائيون)وهي طائفة الصابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم، والتي تعتبر يحيى عليه السلام

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٥٢ - ٤٥٣)، الإصابة لابن حجر (٢/ ٥٢٢ - ٥٢٣).

(٢) انظر: القاموس المحيط (١/ ٤٢)، لسان العرب (١/ ٣٣٧)، الأصنام لابن الكلبي (٤٧).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/ ١٩٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٤٨).

نبيًّا لها، يقدِّس أصحابها الكواكب والنجوم ويعظمونها؛ ويتوجهون في عبادتها نحو نجم القطب الشمالي؛ ومن طقوسهم: التعميد في المياه الجارية وهو من أهم معالم هذه الديانة(١).

ومنهم من عبد الجن والملائكة.

وهم شرذمة من العرب أضلتهم الشياطين، وزينت لهم عبادة الملائكة على حسب زعمهم، وهم في حقيقة الحال ما عبدوا إلا هؤلاء الشياطين.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن تلاعبه ـ أي الشيطان ـ بهم أن زين لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم بزعمهم ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم ولكن كانت للشياطين فعبدوا أقبح خلق الله وأحقهم باللعن والذَّم»(٢).

ولذلك لما قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾[سبأ: ٤٠] تبرأت الملائكة من ذلك؛ وقالت: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾[سبأ: ٤١].

ووجه عباد المشركين للشياطين بعبادتهم الملائكة: أن الشياطين يأمرون المشركين بعبادة الملائكة، فيطيعونهم في ذلك، وهذه الطاعة هي عبادتهم؛ لأن العبادة: الطاعة؛ كما قال تعالى مخاطبًا كل من اتخذ معه آلهة: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ

---

(١) ومن أهم من تكلم على هذه الديانة: الليدي دراوور في كتابها: الصابئة المندائيون، مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٩م، وعبد الحميد عبادة في كتابه: مندائي أو الصابئة الأقدمون، طبع في بغداد ١٩٢٧م. وعبد الرزاق الحسني في كتابه: الصابئة في حاضرهم وماضيهم، طبعة لبنان ١٩٧٠م.
ومن كتبهم: الكنزاربّا، وهو كتاب الصابئة الكبير؛ ومنه نسخة في خزانة المتحف العراقي.

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٩٤).

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يس: ٦٠](١)؛ وعبادة الشيطان: طاعته في معصية الله تعالى(٢).

فلذا كانت عبادة المشركين للملائكة هي عبادة للشياطين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما عبد المشركون الملائكةَ بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[سبأ: ٤٠ - ٤١]؛ فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته، ويوهمه أنّه ملَك»(٣).

ومنهم من عبد الشجر:

كمشركي العرب، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾[النجم: ١٩] روى الطبري عن مجاهد معنى (العزى) قال: «شجيرات»(٤).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابن جرير: وكذا العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها»(٥).

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٦٨١).

(٢) انظر: جامع البيان (١٩/ ٤٧٠).

(٣) الداء والدواء (٣٢٧).

(٤) انظر: جامع البيان (٢٢/ ٤٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٥٥).

المسألة الثالثة: امتياز أهل الحق عن أهل الباطل في العبادة من حيث الثبات والاستقرار.

فأهل الحقِّ في **ثبات واستقرار**، وأهل الباطل في **زيادة ونقصان**، واختراع الإفك والبهتان.

فأهل الحقِّ في ثبات واستقرار منذ أن انقسم الناس في العبادة واختلفوا؛ فلم تتلوث فطرهم بالشرك ونجاسته! بل يمموا وجوههم وقلوبهم إلى شطر الحي القيوم مسلِّمين، مستسلمين، منقادين له وحده؛ فحياتهم ومماتهم وصلاتهم ونسكهم وجميعُ أمرهم لله تعالى.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وأما أهل الباطل فهم في زيادة ونقصان في معبوداتهم؛ فقلما يثبتون على عبادة إله؛ وكم عبد هؤلاء من آلهة ثم هلكت واندثرت بمرور الأيام والليالي؟!.

وكم بدلوا من معبوداتهم على حسب أمزجتهم وأهوائهم ؟!

فتجد الهندوس مثلًا لم يستقروا على إله واحد بل جمعوا في العبادة أكثر من إله: (براهما – فشنو – سيفا).

وعندما تفطنوا لغرابة هذا التعدد في العبادة قرر الكهنة في القرن التاسع الميلادي جمع الآلهة في إله واحد أخرجَ العالم من ذاته وهو الذي أسموه: براهما؛ من حيث هو موجود، وفشنو: من حيث هو حافظ، وسيفا: من حيث هو مهلك.

فمن عبد أحد الآلهة الثلاثة فقد عبدها جميعًا أو عبد الواحد الأعلى بزعمهم، ولا يوجد أي فارق بينها(١).

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٧٢٦).

وبهذا يظهر التمايز بين أهل الحقِّ وبين أهل الباطل في التعبد؛ بين أهل الحقِّ الذين عبدوا الإله الواحد الحقَّ الكامل في أسمائه وصفاته؛ ذي الكمال المطلق من جميع الوجوه، وبين أهل الباطل الذي عبدوا الآلهة المخلوقة ذي النقص المطلق من جميع الوجوه.

المطلب السادس

بيان ما يمتاز به أهل الحق من اتباعهم المحكم، وأهل الباطل يتبعون المتشابه

وهي سمة بارزة من سمات أهل الحقِّ، وعلامة فارقة من علاماتهم؛ فإنهم يلتزمون بالنصوص الثابتة الصحيحة المحكمة، ويردون المتشابه إلى المحكم؛ عملًا بالحق وإرضاءً لرب الخلق؛ بخلاف أهل الباطل الذين لا يجدون سوى المتشابه دليلًا لإثبات باطلهم وترويجه بين الناس.

وفي هذا المطلب مسائل:

المسألة الأولى: تعريف المحكم والمتشابه.

فالمحكم في اللغة له عدة إطلاقات؛ منها: المنع والرد، تقول: حكمت وأحكمت وحكَّمت بمعنى منعت ورددت، ومن هنا قيل للحاكم بين الناس حاكمًا، لأنه يمنع الظالم ويرده عن ظلمه[(١)].

والمتشابه يطلق في اللغة على المماثلة بين شيئين؛ فالشَّبْه والشِّبه والشبيه: المثل؛ والجمع: أشباه، وأشبه الشيء ماثله[(٢)].

وأما اصطلاحًا[(٣)]: فالمحكم: ما استقل بنفسه، وظهر معناه، ولم يحتج إلى بيان، ولم

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ١٤١- ١٤٣).

(٢) المصدر السابق (١٣/ ٥٠٣).

(٣) اختلف العلماء في تعريف المحكم والمتشابه على أقوال عديدة ذكرها الإمام الطبري في جامع البيان (٥/ ١٩٢)، وقد ناقش شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأقوال ورد بعضها. انظر مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٨٦). وقد ذكرت في هذا المطلب من هذه الأقوال ما يناسب المقام.

يحتمل إلا وجهًا واحدًا(١).

والمتشابه: ما احتاج إلى بيان(٢)، واحتمل التأويل(٣).

المسألة الثانية: منهج أهل الحقِّ في التعامل مع المحكم والمتشابه.

يؤمنون بكل ما جاء عن الله تبارك وتعالى ويسلمون له؛ سواء كان محكمًا أو متشابهًا؛ فإنْ كان محكمًا عملوا به، وإن كان متشابهًا ردوه إلى المحكم، وقالوا: كل من المحكم والمتشابه من عند الله تبارك وتعالى، وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض؛ بل هو متفق يصدق بعضه بعضًا ويشهد بعضه لبعض(٤).

ولذلك وصف الله من هذا حاله بالرُّسوخ في العلم فقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران: ٧]، فهم يؤمنون بالمحكم ويدينون به، ويؤمنون بالمتشابه ولا يدينون به، وهو من عند الله تبارك وتعالى(٥).

ولذلك سَلِم أهل الحقِّ من الخطأ فيما أخبر الله عن نفسه؛ من أسمائه وصفاته ووعده ووعيده، ونحو ذلك؛ مما ضل فيه أهل الباطل.

المسألة الثالثة: منهج أهل الباطل في التعامل مع المحكم والمتشابه.

فمنهج أهل الباطل في أي مسألة لا توافق أهواءَهم هو الصرف للنصوص عن معناها؛ فهم يعمدون إلى النصوص المتشابهة التي توافق النصوص المحكمة فيصرفونها

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٢٢).

(٢) المصدر السابق (١٧/ ٤٢٢).

(٣) جامع البيان (٥/ ١٩٦).

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن (١٢٢).

(٥) انظر: جامع البيان (٥/ ٢١١).

عن معناها إلى معنى يوافق أغراضهم وباطلهم.

وهذا المتشابه لا يعلم تأويله الحق وتفسيره الصحيح - الذي يحمل عليه - إلا الله، والعلماء الراسخون في علمهم، المتمكنون في فهمهم، الذين يرجعون المتشابه إلى المحكم، ويقولون: كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا، فلا يمكن أن يخالف بعضه بعضًا[(١)].

وقد بين الله تعالى حالهم هذا بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[آل عمران: ٧].

فبين حال قلوبهم أولًا ووصفها بالميل والانحراف[(٢)]، ثم بين أن هذا المرض أدى إلى سلوك ذلك المسلك الفاسد.

قال الإمام الشاطبي[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأثبت لهم الزيغ أولًا؛ وهو الميل عن الصواب، ثم اتباع المتشابه؛ وهو خلاف المحكم الواضح المعنى، الذي هو أم الكتاب ومعظمه.

ومتشابهه على هذا قليل، فتركوا اتباع المعظم إلى اتباع الأقل المتشابه الذي لا يعطي مفهومًا واضحًا ابتغاء تأويله؛ وطلبًا لمعناه الذي لا يعلمه إلا الله، أو يعلمه الله والراسخون في العلم، وليس إلا برده إلى المحكم؛ ولم يفعل المبتدعة ذلك»[(٤)].

---

(١) انظر: مع الإثني عشرية في الأصول والفروع لعلي السالوس ص(٣٣٤).

(٢) انظر: جامع البيان (٥/ ٢٠٢).

(٣) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، إمام حافظ جليل مجتهد من المحققين، كان شديدًا على أهل البدع، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (٧٩٠ هـ). انظر: الديباج المذهب ص (٢٢٠)وشذرات الذهب(٦/ ٢٨٢).

(٤) الاعتصام (١/ ٢٤٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه... ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه وابتغاء تأويله؛ وهو الحقيقة التي أخبر عنها»(١).

ولذلك قلما تجد أحدًا من أهل الباطل إلا وقد عمد إلى هذا المسلك لإثبات باطله وترويجه بين الناس.

قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكاد ترى مبتدعًا إلا قد ترك المحكمات، وأقبل على المتشابهات يسأل عن تأويلها، ويفتتن ويفتن من تبعه، نسأل الله التوفيق لاستعمال السنة ونعوذ به من متابعة أهل الزيغ والبدعة»، ثم نقل عن أيوب(٢) قوله: «لا أعلم من أصحاب الأهواء أحدًا إلا وهو يجادل بالمتشابه»(٣).

المسألة الرابعة: مقارنة بين أهل الحقِّ وأهل الباطل في المحكم والمتشابه.

المسائل التي خالف فيها أهل الباطل أهل الحق وضلوا فيها=كثيرة جدًّا، وبخاصة في مسائل الاعتقاد؛ وغالب ما يعتمدونه لإثبات باطلهم هو المتشابه من الكلام، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، وأكتفي بمثالين للدلالة على المقصود.

المثال الأول: القول بتعدد الآلهة.

وذلك بالاستدلال بصيغ الجمع كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[يس: ١٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧٧).

(٢) هو أيوب بن أبي تميمة بن كيسان السختياني، أبو بكر البصري، كان سيد الفقهاء، ثقة ثبت، من العلماء العباد، توفي سنة (١٣١هـ).

انظر في ترجمته: تهذيب التهذيب لابن حجر ١/ ٣٩٧.

(٣) دلائل النبوة (٦/ ٥٤٥)، وانظر: الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٠١).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما أهل الضلال والزيغ فاتبعوا المتشابه وجعلوه مثارًا للشك والتشكيك؛ فضلوا وأضلوا، وتوهموا بهذا المتشابه ما لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ ولا بكتابه ولا برسوله...

فاتبع النصراني هذا المتشابه وادعى تعدد الآلهة، وقال: إن الله ثالث ثلاثة!، وترك المحكم الدال على أن الله واحد.

أما الراسخون في العلم: فيحملون الجمع على التعظيم لتعدد صفات الله وعظمها، ويردون هذا المتشابه إلى المحكم في قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [البقرة: ١٦٣] ويقولون للنصراني: إن الدعوى التي ادعيت - بما وقع لك من الاشتباه - قد كفرك الله بها وكذبك فيها فاستمع إلى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[المائدة: ٧٣]؛ أي كفروا بقولهم: إن الله ثالث ثلاثة»[١].

المثال الثاني: القول بأن الله في كل مكان.

وذلك بالاستلال بلفظ المعية؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾[المجادلة: ٧] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[الحديد: ٤].

فذهب بعض أهل الباطل إلى القول بأن الله في كل مكان وهو معنا وفينا !![٢]، فاتبعوا المتشابه المجمل، وتركوا الصريح المحكم؛ حينما استدلوا بتلك الآيات.

---

(١) تقريب التدمرية (٨٠).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٤٧).

أما أهل الحق فذهبوا إلى أن الله تعالى مستو على عرشه، بائن من خلقه، وقد نقل الإجماع على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله: الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وأجمع عليه سلف الأمة: من أنه سبحانه فوق سمواته، على عرشه، عليّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون»[(١)].

و استدلوا على ذلك بالمحكم من الآيات ومنها:

١- **الآيات التي فيها ذكر الاستواء على العرش** كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[طه: ٥].

٢- **الآيات التي صرح فيها أنه في العلو**، كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[الملك: ١٦] وقوله: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[النحل: ٥٠] وقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[فاطر: ١٠] وغيرها من الآيات.

وردوا على أهل الباطل فسادَ استدلالهم ذلك فقالوا:

١- إن «كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس في ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين وشمال؛ فإذا قيدت بمعنًى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو النجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي؛ لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة»[(٢)].

٢- أن «هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي

---

(١) العقيدة الواسطية (٨٣).

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (٥٠١).

﴿ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤] دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: «إنه معهم بعلمه»[(١)]، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته»[(٢)].

٣- أن معية الله لخلقه تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: معيَّة عامة: وهي التي تتعلق بالناس جميعًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤] وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].فهذه المعية معية العلم والاطلاع.

الثاني: معيَّة خاصة: وهي ما وردت في مثل قول الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقوله: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨] فهذه المعية تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، وهي للمؤمنين.

وكلا المعيتيين مصاحبة منه للعبد، لكن الأولى: مصاحبة اطلاع وإحاطة، والثانية:

---

(١) قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه شيء». رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٠١). وسُئل سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤] فقال: «علمه». انظر: خلق أفعال العباد للإمام البخاري ص(٨)، وأقوال السلف وأئمة الإسلام كثيرة جدًّا في إثبات أن الله في السماء وعلمه في كل مكان.

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (٥٠٢).

مصاحبة موالاة ونصر وإعانة(١).

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيكون ظاهر الآية أن مقتضى هذه المعية علمه بعباده وبصره بأعمالهم مع علوه عليهم، واستوائه على عرشه؛ لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا أنه معهم في الأرض؛ وإلا لكان آخر الآية مناقضًا لأولها الدال على علوه واستوائه على عرشه»(٢).

وخلاصة القول: إن سلامة أهل الحق في اتباعهم المحكم، وضلال أهل الباطل وإضلالهم باتباعهم المتشابه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك الجهم وشيعته دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث فضلوا وأضلوا بكلامهم بشرًا كثيرًا»(٣).

كما أنه ابتلاء ليُعلم الصادق في إيمانه من الكاذب الجاهل.

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالحكمة من ذلك: ابتلاء العباد واختبارهم ليتبين الصادق في إيمانه من الشاك الجاهل الزائغ؛ فالصادق في إيمانه الراسخ في عمله الذي يؤمن بالله وكلماته، ويعلم أن كلام الله ﷻ ليس فيه تناقض ولا اختلاف، فيرد ما تشابه منه إلى ما كان محكمًا، ليصير كله محكمًا.

وأما الشاك الجاهل الزائغ الذي يتبع ما تشابه منه، ليضرب كتاب الله تعالى بعضه ببعض، فيَضلُّ ويُضِل، ويكون إمامًا في الضلال والشقاء، فيفتن الناس في دينهم، ويوقعهم في الشك والحيرة، ويفتن بعضهم ببعض»(٤).

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٥٤)، وتيسير الكريم الرحمن (٨٣٧).

(٢) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى (٥٦).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٣/ ٤٤٥).

(٤) تقريب التدمرية (٨٢).

المبحث الخامس

الرد على المخالفين بكشف مقاصدهم السيئة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الرد على المخالفين ببيان مقاصدهم.

المطلب الثاني: بيان الأسباب التي أدت إلى تلك المقاصد.

المطلب الأول

الرد على المخالفين ببيان مقاصدهم

إن بيان مقاصد المخالفين وكشف ما يسعون إليه ضدَّ أهل الحقِّ هو من الردِّ عليهم؛ يستبينُ به سبيل المجرمين، وينكشف عوار المبطلين، ويتحقق به المقصد الأسمى من الدين.

ومن مقاصد المخالفين:

الصدُّ عن سبيل الله تعالى.

فإن الصدَّ عن سبيل الله وعبادته من أعظم مقاصد المخالفين؛ بشتى صورهم وأفكارهم، وإن لبَّس بعضهم هذا الأمر بلبوس ظاهره الصلاح، إلا أن باطنه الكذب الصُّراح.

فإن القوم لم يتركوا وسيلة ولم يدعوا حيلة لتنفيذ ما يقصدونه إلا وأقبلوا عليها بخيلهم ورجلهم.

ومن تلك الوسائل:

١- الدعوة إلى عبادة غير الله تبارك وتعالى.

وهذه إما أن تكون بالتصريح: كصنيع فرعون حينما دعا الناس إلى عبادة نفسه، بقوة ملكه وسطوة سلطانه؛ فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨] وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤] وقال لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء: ٢٩]

وإما أن تكون بغير تصريح وتُفهم من خلال الخطاب:

- كمودَّتهم ومحبتهم شيوع الكفر بين أهل الحقِّ؛ وهو صنيع طائفة من المنافقين؛

قال الله ﷻ: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾[النساء: ٨٩].

- وكذلك حَنَقهم وعدم الرضى على المؤمنين حتى يسلكوا سبيلهم ويتبعوا باطلهم؛ كحال اليهود والنصارى، كما أخبر الله تعالى رسوله ﷺ، أنه لا يرضى عنه اليهود ولا النصارى إلا باتباعه دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أي: حتى تتبع دينهم وطريقتهم، وما أحدثوه من أهوائهم؛ بأن تتبع كتابهم الذي بدلوا فيه وحرفوه وأخفوه[١].

٢- تفريق أهل الحق وتمزيق جماعتهم.

وهو أسلوب قديم من أساليب الطغاة والمجرمين؛ وقد استعمله فرعون ليُحكِم سيطرته ويفرض جبروته على الناس، قال تعالى مبينًا تلك الحال: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ ﴾[القصص: ٤].

قال ابن عاشور: «فقد جعل أهل بلاد القبط فرقًا ذات نزعات؛ تتشيع كل فرقة إليه وتعادي الفرقة الأخرى ليتم له ضرب بعضهم ببعض، وقد أغرى بينهم العداوة ليأمن تألبهم عليه، كما يقال: «فرِّق تحكم» وهي سياسة لا تليق إلا بالمكر بالضد والعدو، ولا تليق بسياسة ولي أمر الأمة الواحدة»[٢].

فسبيل المفسدين الذي خطه فرعون لمن بعده له ثلاث مراحل:

الأولى: العلو في الأرض.

الثانية: تفريق الصف إلى فرق وجماعات متناحرة ومتنافسة.

---

(١) انظر: لباب التأويل (١/ ١٠١)، ونظم الدرر للبقاعي (١/ ٢٣٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/ ٦٧).

الثالثة: استضعاف طائفة، واستخدام البقية في ذلك، وكلما انتهى من طائفة أتْبَعها بأخرى.

وهذا المقصد هو نفسه الذي اتبعه إبليس لصد الناس عن عبادة الله تعالى؛ فعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم**)[١].

وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه؛ فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا؛ فيقول: ما صنعت شيئًا؛ قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت**)[٢].

ولا يقتصر تفريقهم جماعة أهل الحقِّ على الظهور بمظهر العداوة والخصومة لهم، بل قد يلبِّسون فعل الشر والمكر بلبوس المحبة والخير؛ فهم كالذي يسقي الماء للصادي، وفيه السُّم القاضي.

ومن أمثلة ذلك ما فعله أناس من المنافقين حينما ابتنوا مسجدًا إلى جانب مسجد قباء، يريدون به تفريق جمع المسلمين وتقويض صفهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[التوبة: ١٠٧].

هذا وإن كان في ظاهره حسنًا غير أن المراد منه إنما هو الشر والإفساد، ونظائر هذا كثيرة في زماننا.

منها ما يقوم به النصارى من الحملات التي ظاهرها التنصيرية!؛ كبناء المشافي

---

(١) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه.. برقم (٢٨١٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه.. برقم (٢٨١٣).

والمدارس ودور الرعاية للمسنين والعجزة ونحوهم في بعض بلدان المسلمين الفقيرة؛ والتي يغلب عليها الجهل بالدين، بهدف تنصيرهم وإخراجهم من دينهم.

وكذلك ما تفعله الرافضة من تشييع الناس في كثير من البلاد الإسلامية وذلك بإنشاء المدارس وبناء المساجد(١)، واستقطاب الجهال من المسلمين للدراسة في حوزاتهم، مع تقديم كامل النفقات لهم، والاهتمام البالغ بهم، بهدف تشييعهم ونقلهم من الدين الحق إلى الباطل. فإلى الله المشتكى.

٣- خيانتهم المستمرة لأهل الحق.

فأهل الباطل لا يؤمن مكرهم، ولا ينتهي عن أهل الحقِّ شرهم، طالما فيهم عرق ينبض، وجناح يعلو بهم ويخفض.

فمن شدة ما يجدون في صدورهم على الحقِّ وأهله لا يتورعون عن فعل أي نقيصة وقبيحة بحقهم، ومن ذلكم الخيانة.

ومن تأمل الصراع بين الحقِّ والباطل يجد أن الخيانة من أعظم ما يتسلح به المجرمون ويحارب به المفسدون، فهي خفيفة الزاد، سهلة الارتياد، يحسنها من أراد(٢).

---

(١) وغالب هذه المساجد تلعب دور الحوزات والحسينات في نشر الدين الرافضي، ثم ما تلبث أن تنقلب إلى معاهد لتعليم عقائد الرافضة مع مرور الوقت وطول المدة، وقد انتشرت في الشام العديد من الحسينات والحوزات؛ وبخاصة في دمشق وما حولها= أفسدت عقائد كثير من أهل السنة مع ما هم فيه من إفساد أهل التصوف والخرافة لهم؛ وفي وقت – ليس بالبعيد – دخل الناس في دين الرفض أفواجًا، جراء ظهور زعيم الرافضة في لبنان وحربه المكذوبة ضد إخوانهم اليهود؛ لكن – لله الحمد – ما لبث أن رجع أغلب هؤلاء إلى سالف عهدهم إبَّان محنة أهل الشام مع القرامطة الطغام اللئام.

(٢) وسيأتي مزيد كلام عن هذا المسلك في أثناء الرسالة إن شاء الله.

٤- إثارة الشكوك والشبهات حولهم، وإطلاق التهم والإشاعات ضدهم.

ومن ذلك طعنهم بالأنبياء وأتباعهم، ونبزهم بالألقاب الشنيعة، وإثارة الشكوك حول دعوتهم بقصد التشويه والتنفير، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

فهم يطعنون في النيات، ويطلقون التهم المفتراة، ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾[الفرقان: ٤] إلى ما غير ذلك من الأكاذيب التي لا تنتهي، والأباطيل التي لا تنقضي.

ومن مقاصدهم أيضًا:

كسر الحقِّ بالتنقص من أهله، وكسر شوكتهم.

فهؤلاء إذا أعجزهم أن يكسروا الدين الحقَّ فلا أقل – عندهم – من أن ينتقصوا أهله كي يكسروه. وأنى لهم ذلك ؟! فدونهم المفاوز والمهالك. بإذن الله.

وهم يلجؤون لوسائل كثيرة من أجل تحقيق هذا المقصد؛ منها:

١- الاستهزاء بأهل الحقِّ والسُّخرية منهم.

وهو دليل عجز يستخدمه أهل الباطل للتنفير من أهل الحقِّ وكسر شوكتهم؛ ولم يسلم من فعلهم هذا حتى الأنبياء. فهم أكثر من استَهزَأ بهم أصحاب النفوس المريضة، والدَّعاوى العريضة.

قال الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[الفرقان: ٤١] وقالوا – على وجه الاحتقار والاستصغار – ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[الفرقان: ٤١] أي: غير مناسب ولا لائق أن يبعث الله هذا الرجل، وما ذلك منهم إلا لشدة ظلمهم وعنادهم، وقلبهم الحقائق، ويفهم من كلامهم الساقط هذا التسفيه لحكم الله، والتحقير

للنبي ﷺ وحاشا الله ورسوله من مقالهم النتن، وكلامهم العفن[1].

والشواهد من كتاب الله كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾[هود: ٣٨].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[الزخرف: ٤٦-٤٧] وغيرها من الآيات.

٢- إذلالهم.

ومن الأساليب الخبيثة التي يتبعها أهل الباطل سياسة الإذلال والإهانة لخصومهم، كي تظهر عليهم سمات العزة والمهابة – بزعمهم – وهذا ما فعله ابن سلول حينما قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[المنافقون: ٨].

فوصفَ النبيَّ ﷺ ومن معه بأنهم أذلاء!!، كي يثبت العزة لنفسه ولمن هو على شاكلته، وقد صرح بها – عليه من الله ما يستحق –.

وهذا نظير ما فعله فرعون مع نبي الله موسى عليه السلام حينما قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[الزخرف: ٥٢].

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومقصوده بذلك كله: تعظيمُ أمرِ نفسه وتحقيرُ أمرِ موسى، وأنه لا يمكن أن يتبع الفاضل المفضول»[2].

ومن هذا أيضًا ما فعله كفار قريش حينما وضعوا على رأس النبي ﷺ سلا الجزور قاصدين بذلك إذلاله وإهانته والسخرية منه.

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٥٨٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٧).

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظروا إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها[١] ودمها وسلاها[٢] فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد الرسول ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت الرسول ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك...»[٣]. والأمثلة والشواهد على ذلك كثيرة.

ويدخل تحت هذا المسلك: التسفيه والتحقير والتشويه للسمعة، وسأكتفي هاهنا بالإشارة:

فمن التسفيه: قولهم لنبي الله هود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾[الأعراف: ٦٦].

ومن التحقير: قولهم لنبي الله نوح عليه السلام: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود: ٢٧].

ومن التشويه للسمعة: ما فعله المنافقون من قذفهم لعرض النبي ﷺ، وهو ما درجت عليه قطعان الرفض، وأصحاب الإفك المحض[٤].

---

(١) الفرث: بقايا الطعام في الكَرِش.

(٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٠٥) «والسلا: هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية: المشيمة».

(٣) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن زوجها المصلي شيئا من الأذى، برقم (٥٢٠).

(٤) وقد ابتلى الله ﷻ الرافضة في أعراضهم جراء إجرامهم بحق عرض النبي ﷺ، فانتشر بينهم الخنا والزنا جهارًا باسم الدين؛ نتج عنه انحلال في الأخلاق، وأمراض في الأجساد.

=

٣- التلبيس عليهم.

والتلبيس: الخلط، وهو أن يقوم هؤلاء بخلط الحق مع الباطل حتى ينفذوا باطلهم بصورة الحق، وقد نهاهم الله تعالى عن هذا فقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٤٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فنهى عن لبس الحقِّ بالباطل وكتمانه؛ ولبَّسه به: خلطه به، حتى يلتبس أحدهما بالآخر، ومنه التلبيس: وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره، فكذلك الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق»[1].

ومن تلبيسهم: قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]؛ فإنهم لبسوا أنهم أكثر أموالًا وأولادًا - وهذا حق - لنفي العذاب عنهم - وهذا باطل -، فجاء

=

وقد كشف الدكتور الرافضي حسين عبد الله الجابري مدير معهد الأمراض السارية والمعدية في مدينة (النجف) الشيعية جنوب العراق في محاضرة ألقاها بجامعة الكوفة، في ٢٧/ ٠٧/ ٢٠١٠، عن معدلات الإصابة بمرض الإيدز في المناطق الجنوبية للعراق، فقال: «أن حالات الايدز ارتفعت بنسبة مخيفة جدًّا»؛ وأكد: أن هذا يرجع لانتشار ظاهرة زواج المتعة غير المبني على أية ضوابط صحية، خاصة مع كثرة السياح الشيعة القادمين من إيران وباكستان وغيرهما.

وبحسب إحصائيات الحكومة العراقية الحالية فإن مدينة النجف سجلت في حزيران الماضي، رقمًا قياسيًا بلغ أكثر من ٨٠ حالة إيدز وأكثر من ٤٠٠٠ مدمن على المخدرات الإيرانية. انظر: موسوعة الرشيد الالكترونية.(*www.alrashead.net*).

وهذه إحصائية لمدينة شيعية واحدة فقط؛ فما الحال إذن في باقي مدنهم وأماكن تواجدهم؟! فنعوذ بالله مما حاق بهم، ونحمد الله الذي عافانا مما ابتلاهم.

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٦).

تلبيسهم ذلك من أنه لو لم يكن الله راضيًا على ما نحن عليه من الملة والعمل لم يخولنا الأموال والأولاد، ولم يبسط لنا في الرزق، وإنما أعطانا ما أعطانا من ذلك لرضاه أعمالنا، وآثرنا بما آثرنا على غيرنا لفضلنا، وزلفة لنا عنده[١].

وكأن لسان حالهم يقول لأهل الحقِّ: لقربنا وفضلنا عند الله أعطانا، ولبعدكم عن الله منعكم وحرمكم؛ وهذا بلا شك من خلط الحقِّ بالباطل.

والحقُّ أن يقال لهم: إن ذلك ليس شرطًا، بل الله ما أعطاكم لأنه يحبكم، وما منع عن أهل الحقِّ لأنه يبغضهم، وإنما جعل ذلك كله ابتلاءً لكم ولهم، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء: ٣٥]، فأهل الحق يصبرون ويحمدون الله على السراء والضراء، وأهل الباطل إن أصابتهم مصيبة كفروا بالله تعالى وانقلبوا على أعقابهم.

ثم ليُعلمَ أن إعطاء الله العصاة والمجرمين ما هو إلا استدراج لهم فقد قال النبي ﷺ: **(إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج)**؛ ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤][٢].

٤- تنفير الناس منهم.

فإن عجز أهل الباطل عن كسر دعوة أهل الحق فإنهم يعمدون إلى تنفير الناس من الحق وأهله، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت: ٢٦].

(١) انظر: جامع البيان (١٩/ ٢٤٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (١٧٣١١)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١/ ٤١٢) برقم (٤١٣).

«أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، فـ (الغوا فيه) أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكنوا -مع قدرتكم- أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه»[(١)].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا لسان حالهم، ولسان مقالهم، في الإعراض... وهي شهادة من الأعداء، وأوضح الحقِّ ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم أنهم إن لم يلغوا فيه؛ بل استمعوا إليه وألقوا أذهانهم= أنهم لا يغلبون، فإن الحق غالب غير مغلوب؛ يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه»[(٢)].

ومن مقاصدهم:

تدمير الأخلاق الحميدة، وتبديل القيم الأصيلة.

لا خلاف أن الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والهدى والضلال، والعفة والفاحشة= قديم قدم الإنسان ومستمر إلى قيام الساعة، وشاء الله للتدافع بين الحق والباطل أن لا يزول ليميز الخبيث من الطيب، وليحق الحق وينصره، ويبطل الباطل ويزجره، وما هو جار اليوم من تدمير للأخلاق ونشر للرذيلة وهدم للفضيلة لا يخرج عن هذا السياق، وقد دأب أهل الباطل لإشاعة الرذيلة، وطمس الفضيلة، وإذكاء نار الشهوات في النفوس، وكل ذلك بقصد إبعاد الناس عن عبادة ربهم، وسهولة التسلط عليهم والإيقاع بهم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٤٨).

(٢) المصدر السابق (٧٤٨).

ومن أعظم ما يستعمله أعداء أهل الحق في تنفيذ هذا المقصد: **النساء والمال**.

وقد بيَّن الله تعالى أنواع الشهوات في قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[آل عمران: ١٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: ١٤] بدأ بهن لكثرة تشوف النفوس إليهن؛ لأنهن حبائل الشيطان وفتنة الرجال. قال رسول الله ﷺ: (ما تركت بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء) أخرجه البخاري ومسلم[١]. ففتنة النساء أشد من جميع الأشياء»[٢].

ولذلك استعمل أعداء الإسلام المال والنساء في حربهم ضد المسلمين، فأنشأوا تلك القنوات، وأغرقوا الناس بالشهوات، فتبدلت القيم والمفاهيم، وقويت الرذيلة وشاعت، وخفت الفضيلة وضاعت.

فركض الكثير من المسلمين وراء زبالات الأمم، ونسوا ما كان عليه أسلافهم من الفضائل والقيم. ولا وحول ولا قوة إلا بالله.

وقد جاء في بعض النصوص مما سودته الأيادي الغادرة، والنفوس الماكرة، خططًا لتنفيذ هذا المقصد وغيره، ومنها قولهم: «ولكي تبقى الجماهير في ضلال لا تدري ما وراءها وما أمامها، ولا ما يراد بها، فإننا سنعمل على زيادة صرف أذهانها بإنشاء وسائل المباهج والمسليات، والألعاب الفكاهية، وضروب أشكال الرياضة واللهو، وما به

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة...، برقم (٥٠٩٦)، ومسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء برقم (٢٧٤٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٩).

الغذاء لملذاتها، وشهواتها، والإكثار من القصور المزوقة، والمباني المزركشة، ثم نجعل الصحف تدعو إلى مباريات فنية رياضية من كل جنس، فتتوجه أذهانها إلى هذه الأمور، وتنصرف عما هيأناه فنمضي به إلى حيث نريد»[(١)].

فنسأل الله السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يكفينا الله شر الأشرار وكيد الفجار، ونسأله سبحانه السلامة من النار إنه الرحيم الغفار.

والمقصود من هذا البيان الذي تقدم: أن أهل الحق إذا سلكوا جانب بيان المقاصد عند أهل الباطل وفضحها أمام الناس وكشفها للملأ = كان ذلك من أعظم أبواب الخير ومن أجود أنواع الرد على المخالفين، وما يتحصل من ذلك من دفع شرورهم، وتحجيم مفاسدهم، والأمن من تعدِّيهم وغوائلهم.

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول الثالث عشر (١٦٧).

المطلب الثاني

الأسباب التي أدت إلى تلك المقاصد

لا شك أن الأسباب التي أدت إلى ظهور المقاصد الرديَّة لأهل الباطل كثيرة جدًّا، من أبرزها:

١- الكفر والنفاق.

وهو أصل كل بليَّة وشر، ولذلك كثرت النصوص في بيان ذلك:

منها ما كان الكفر سببًا في الصدِّ عن سبيل الله تعالى؛ وتنفير الناس عن الحقِّ لكي يعرضوا عنه.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥].

ويستعمل الصدُّ عن سبيل الله بمعنيين:

أحدهما: منع الناس عن دين الله.

والثاني: الامتناع عنه؛ وكلاهما يحصل من الكافرين، فكما يكفرون في أنفسهم، يحثون غيرهم على الكفر[(١)].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم والالتفات إليه، أو حتى الإصغاء له ولمن جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه= فأكثروا اللغط والكلام في

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٤/ ١٧٧) بتصرف يسير.

غيره، حتى لا يسمعوه، ولا تمكنوا أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة ألفاظه ومعانيه، لعلكم إن فعلتم هذا تغلِبُون ولا ينتصرون[١].

ومنها ما كان سببًا في الطَّعن على الأنبياء والتنقُّص منهم، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[الأعراف: ٦٦] وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾[الزخرف: ٣٠].

فلم يقدِّروا الأنبياء حق قدرهم، بل تجرؤوا عليهم كما هي عادة أهل الباطل في التنقُّص من كل داعية إلى الحقِّ والهدى، ورميه بالألفاظ البذيئة والألقاب الشنيعة.

٢- الحسد.

وهو من الأخلاق السيِّئة، والصفات الذميمة؛ وفيه تسفيه للحق سبحانه، بأنه أنعم على من لا يستحق. جل الله وتعالى عما يقول الظالمون.

فالحسد من شر المسالك، ويورد صاحبه المهالك، وهو مدعاة للكَلَف[٢]، ومفضاة للتَّلف؛ قال الماورديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو لم يكن من ذمِّ الحسد إلا أنَّه خلق دنيء، يتوجَّه نحو الأكفاء والأقارب، ويختصُّ بالمخالط والمصاحب، لكانت النَّزاهة عنه كرمًا، والسلامة منه مغنمًا، فكيف وهو بالنفس مضرٌّ، وعلى الهمِّ مصرٌّ، حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف، من غير نكاية في عدو، ولا إضرار بمحسود»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة؛ ليس فيها حرص

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٠٨)، وتيسير الكريم الرحمن (٧٤٨).

(٢) أي: ما يصيب القلب من الأمراض بسبب هذا الخلق الذميم. والكلف في اللغة: ما يصيب الوجه من النمش والبهاق. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٧٩٥).

(٣) أدب الدين والدنيا (٥٠٥).

على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، وتتمنى أن فاته كسبها حتى يساويها في العدم...فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو»(١).

والحسد من الأسباب التي تفضي إلى الصدِّ عن سبيل الله تعالى وإلى محبة شيوع الباطل بين الناس، قال الله تعالى في حق اليهود: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[البقرة: ١٠٩] فكان الحسد سببًا في محبتهم لردَّة الناس عن الإسلام وشيوع الكفر فيهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يتمنون ارتدادكم حسدًا، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق، لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل؛ بل مالم يحصل لهم مثله= حسدوكم »(٢).

٣- الكبر والاستعلاء.

وهو خلق رديء، وصفة قبيحة قد تؤول بصاحبها إلى الكفر؛ كما وقع ذلك لإبليس فإنه لما استكبر عن السجود لآدم عليه السلام، ورفض أن يطيع الله تعالى كان ذلك سببًا في كفره، وطرده من الجنة؛ ولعنه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وللكبر ثلاثة أنواع:

أحدها: الكبر على الله تعالى؛ وهو أعظم أنواع الكبر، مثل تكبر فرعون والنمرود على عبادة الله تعالى.

---

(١) كتاب الروح (٢/ ٧٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٠).

الثاني: الكبر على الأنبياء والمرسلين؛ بالامتناع عن الانقياد لهم، والاقتداء بهديهم، كاستكبار قوم نوح عليه السلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾[نوح: ٧]؛ وكذلك عاد على ما جاء به نبي الله هود عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[فصلت: ١٥].

الثالث: الكبر على العباد؛ بازدرائهم واحتقارهم والترفعِ عنهم، ومن باب أولى أن لا ينقاد لهم ويأخذ عنهم[(١)].

فالكبر سبب عظيم في فساد مقاصد هؤلاء تجاه أهل الحقِّ، لأن المتكبر تأبى نفسه قبولَ ما يسمعه من غيره وإن اتضح سبيله، وبان له صدقه؛ بل يدعوه كبره إلى المبالغة في تزييفه، وإظهار بطلانه، ومعاداته، والمكر به بكل ما يقدر عليه من الوسائل والسبل.

ولذلك عندما أرسل الله شعيبًا عليه السلام إلى قومه ودعاهم إلى عبادة الله تعالى، انبرت طائفة من المستكبرين وخيروه بين أمرين كلاهما شر ومرٌّ؛ إما أن تخرج من قريتنا، أو تعود إلى ملتنا؛ والمقصد من ذلك دفع الحقِّ وإضلال الخلق.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[الأعراف: ٨٨].

ومن كبرهم واستعلائهم على أهل الحقِّ نبزهم بالألفاظ الشنيعة، والألقاب الوضيعة بقصد تنفير الناس عنهم وعن عقيدتهم النَّقيَّة الصافية[(٢)].

---

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي (١٨١).

(٢) وهو مسلك مشهور عند أهل الباطل؛ وذلك باختراع الألقاب الباطلة والأوصاف الساقطة ورمي أهل الحق بها، حتى صار ذلك علامة من علامات أهل البدع والضلالة؛ فقد نبزوا أهل السنة =

ومن ذلك وصفهم لهم بالأراذل، قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[الشعراء: ١١١]؛ فقد وصفوا نبيهم بأنه بشر، وهذا حق أريد به باطل؛ و مقصدهم من ذلك تنفير الناس منه، وإبعادهم عنه[1]، ورمي أتباعه بأنهم سِفْلَةُ القوم وحقراؤهم. وما أجدرهم بهذا الوصف الذي رموا به أولياء الله تعالى.

هم الأسافل قد شاهت وجوهُهُمُ   لبئسَ ما فعلوا وبئسَ ما قالوا[2]

ومن الاستعلاء: التسلط والقهر.

فحب التسلط والقهر حين امتلاك القوة يبعث على الصدِّ عن سبيل الله ونشر الفساد في الأرض.

=

والجماعة بألقاب عديدة وصفات كثيرة منها:

نبز الجهمية أهل الحق بـ(المشبهة) و(النقصانية) و(المخالفة) و(الشكاك) حينما خالفوهم في مسائل الاعتقاد؛ كإثبات الصفات لله تعالى ومباحث الإيمان.

وكذلك نبز الزنادقة والمعتزلة وسائر أهل الكلام والخوارج أهل الحق بـ(الحشوية) و(النابتة أو النوابت) و(المجبرة المشبهة).

وكذلك القدرية بـ(المجبرة أو الجبرية).

كما نبزهم الرافضة بـ(الناصبة أو النواصب) و(العامة) و(الجمهور) و(الحشوية) وغيرها.

أما الأشاعرة والماتريدية فكان لهم نصيب في ذلك فقد نبزوا أهل الحق بـ(المشبهة) و(المجسمة) و(الحشوية) و(النوابت) و(الغثاء) و(الغثراء). انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق للدكتور محمد بالكريم ص(١٤٣-١٧٤).

(١) انظر: التفسير الوسيط (٦/ ١٢٨٤).

(٢) نظمته من البحر البسيط.

قـــــال تعــــــالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[الأعراف: ١٢٧].

أي: مستعلون عليهم بقهر الملك والسلطان(١).

٤- الهوى.

وهو من الأسباب التي تبعث صاحبها على فعل كل ما فيه مضرة بأهل الحقِّ والنكاية بهم؛ ذلك أن الهوى يعمي الأبصار ويصم الأسماع عن قبول الحق والاستجابة له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه،... ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء، ليعظم هو ويُثنى عليه»(٢).

ومن الأمثلة على أن الهوى باعث عظيم على ارتكاب الأفعال المشينة، والمقاصد السيئة ضد أهل الحق= قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة: ٨٧] فكان استكبارهم و تكذيبهم وقتلهم للأنبياء والرسل ثمرةً خبيثة من ثمرات أهوائهم، وكل قصدهم في التكذيب والقتل إنما هو الصدُّ عن سبيل الله تعالى ومحاولةُ إطفاء نوره. ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

---

(١) انظر: جامع البيان (١٠/ ٣٩٦).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٥٦).

الفصل الثاني

منهجُ القرآنِ الكريم في تفنيدِ شُبهِ المُخالفينَ في العقِيدَة

وفيه تمهيد، وستة مباحث:

التمهيد: التعريف بالشبهة، ومنهج القرآن في التحذير منها.

المبحث الأول: الرد على الشبه المتعلقة بالإيمان بالله تعالى.

المبحث الثاني: الرد على الشبه المتعلقة بالملائكة.

المبحث الثالث: الرد على الشبه المتعلقة بالرسل.

المبحث الرابع: الرد على الشبه المتعلقة بالكتب.

المبحث الخامس: الرد على الشبه المتعلقة بالقدر.

المبحث السادس: الرد على الشبه المتعلقة باليوم الآخر.

التمهيد

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الشبهة.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: التعريف اللغوي للشبهة.

الشبهة من شَبَهَ، وأصل مادته يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفًا[(١)] ولها في اللغة استعمالات عديدة منها:

١- **المماثلة**: فـ «الشِّبْهُ، والشَّبَهُ، والشَّبِيهُ: المِثْلُ، والجمع: أَشْباهٌ، وأَشْبَه الشيءُ الشيءَ ماثله»[(٢)]، ومنه قول الراجز: ومن يشابه أبه فما ظلم[(٣)]. أي: من يماثله[(٤)]، والمتشابهات: المتماثلات.

٢- **المساواة**: «وشَبَّه: إذا ساوى بين شيء وشيء»[(٥)]، وتشابهت الآيات: أي تساوت[(٦)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٢٤٣).

(٢) لسان العرب (١٣/ ٥٠٣).

(٣) ينسب هذا البيت لرؤبة بن العجاج؛ قيل: إنه مدح فيه عدي بن حاتم الطائي، وقد قال قبله: [بحر الرجز]: **أنت الحليم والأمير المنتقِم تصدع بالحقِّ وتنفي من ظلم**. انظر: مجمع الأمثال (٢/ ٣٥٥).

(٤) انظر: تاج العروس (٣٦/ ٤١١).

(٥) لسان العرب (١٣/ ٥٠٣).

(٦) انظر: تاج العروس (٣٦/ ٤١٢).

٣- **الإشكال**: فـ«المشْتَبِهاتُ من الأُمور المشْكِلاتُ»[(١)]، «وشبه الشي: أشكل»[(٢)].

٤- **الالتباس**: يقال: أمور مشتبهة ومشبهة أي: ملتبسة[(٣)]، ويقال: اشتبهت الأمور وتشابهت: إذا التبست الأمور ولم تتميز ولم تظهر[(٤)].

٥- **الخلط**: يقال: «شبه عليه أي: خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره»[(٥)]، واشتبه الأمر على فلان أي: اختلط عليه[(٦)].

وتجمع الشبهة على شُبَه وشُبُهات.

والخلاصة أن الشبهة في اللغة: هي ما كان فيه شبه بغيره، ومماثلة له في صفة من صفاته، حتى جعله ذلك ملتبسًا ومشكلًا ومختلطًا.

المسألة الثانية: تعريف الشبهة شرعًا.

الشبهة: ما التبس أمره فلا يدرى أحلال هو أم حرام؟ وحق هو أم باطل؟.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشُّبَه: هي ما يشتبه فيها الحق والباطل حتى تشتبه على بعض الناس»[(٧)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشُّبهات: ما يشتبه فيه الحقُّ بالباطل والحلال بالحرام على

(١) لسان العرب (١٣/ ٥٠٣).

(٢) تاج العروس (٣٦/ ٤١٣).

(٣) انظر: المصدر السابق (٣٦/ ٤١١).

(٤) انظر: المصباح المنير (١٥٩).

(٥) لسان العرب (١٣/ ٥٠٤).

(٦) انظر: تهذيب اللغة (٦/ ٥٩).

(٧) مجموع الفتاوى (٣/ ٦٢).

وجه لا يكون فيه دليل على أحد الجانبين، أو تتعارض الأمارتان عنده فلا تترجح في ظنه إحداهما»[١].

والخلاصة: أن الشبهة ما كان ظاهرُها مزخرفًا، وباطنُها فاسدًا؛ تُشابهُ الحقَّ في الظاهر، وهي في واقع الحال من الضلالات.

المطلب الثاني: التحذير منها.

التحذير من الشُّبَه أمر عظيم، ومطلب شرعي كبير، وذلك لما يترتب عليه من إبرازٍ للحق ونصره، ودفعٍ للباطل وكسره، وتشجيع أهل الحق على الثبات والإقدام، ودمغ أهل الباطل للكف والإحجام.

وقد حذر القرآن الكريم من الشبه وأهلها؛ قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾[آل عمران: ٧].

«فالذين في قلوبهم مرض وزيغ وانحراف - لسوء قصدهم - يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة وآرائهم الزائفة، طلبًا للفتنة وتحريفًا لكتابه، وتأويلًا له على مشاربهم ومذاهبهم ليَضلوا ويُضلوا»[٢].

وفي الآية تحذير من أمرين:

أحدهما: التحذير من ذات الشبهة: وذلك بذكرها بهذا الوصف وهو التشابه، والذي اشتق منه اسم الشبهة، وما فيها من معاني اللبس والخلط والشك والإيهام.

الثاني: التحذير من أهلها: وذلك بوصفهم بالزيغ والضلال، والخروج عن الحق إلى

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٠٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٩٦٢).

الباطل، والتلبيس على أتباعهم لإضلالهم ونشر الباطل فيهم[(١)]؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾[آل عمران: ٧].

وقد حذر النبي ﷺ من الشبه وأهلها، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)[(٢)].

ويستفاد من الحديث عدة فوائد:

أحدها: تحذير أهل الحق من الوقوع بشرَكِ الشبه وأصحابها.

الثانية: الحض على اجتناب الشبهات والوقاية منها، وعدم الانغماس فيها أو إشاعتها بين الناس.

واعلم أن للشُّبه مفاسدُ كبيرة ومخاطرُ كثيرة؛ منها:

- **الإفساد بشتى صوره وأشكاله، كبث الفرقة والفتنة بين المؤمنين.**

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه»[(٣)].

- **التشكيك والإضلال.**

وتكمن خطورة الشبهة في أنها «تُلْبِس ثوب الحقِّ على جسم الباطل»[(٤)]، الأمر الذي

---

(١) انظر: اللباب في تفسير الكتاب (٥/ ٣٨)، وتفسير القرآن العظيم (٢/ ٨)، والبحر المحيط (٣/ ٢٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب منه آيات محكمات، برقم (٤٥٤٧)، ومسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف فيه، برقم (٢٦٦٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١٢٢).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٩٥).

يؤدي إلى الشك في الحق والإضلال عنه، ومن هنا يتضح ضررها ويكمن خطرها.

فهي كالدرهم الزائف؛ فإنه يغتر به الجاهل بالنقد؛ نظرًا إلى ما عليه من لباس الفضة.

أما الناقد البصير ذو الخبرة بأحواله، فإنه يجاوز نظره الى ما وراء ذلك، فيطلع على زيفه[١].

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٣٩٦).

المبحث الأول

الرد على الشُّبه المتعلقةِ بالإيمان بالله تعالى

لا شك أن من أعظم أساليب أهل الباطل في تشويه الحق ودفعه - قديمًا وحديثًا - هو الاعتراض عليه بالشُّبه؛ إذ لا يُدفع الحقُّ بالباطل، لكن يُشغَّب عليه برمي الشبه تارة، أو بالكذب والمعاندة تارة أخرى.

فـ «**الحق أبلجُ كالصَّباح لناظر لو أن قومًا حكموا الأحلاما**»[(١)]

ومن تلك الشبه ما يتعلق بالإيمان بالله تعالى، وقد ذكر القرآن الكريم شبه المخالفين في الإيمان بالله وردَّ عليها، **وهذا ما تبينه المطالب التالية**.

المطلب الأول: الشبه المتعلقة بتوحيد الربوبية.

وهذه الشبه قد تكون قليلة، وذلك أن الخلق قد أقروا بربوبية الله ﷻ ولم ينكره أحد منهم، إلا طائفة من الشذاذ المكابرين المعاندين المنكرين لما هو متقرر في فطرهم؛ فإنكارهم إنما كان بألسنتهم؛ مع اعترافهم بذلك في قرارة أنفسهم.

ومن أشهر من عُرف بذلك فرعون؛ الذي قال لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨] وكلامه هذا مجرد دعوى لم تَقُمْ عليها بينةٌ ولا دليل، بل كان هو نفسه غير مؤمن بما يقول.

وقد أخبر ﷻ - وهو العليم بذات الصدور - أن كلام فرعون ودعواه لم يكن عن عقيدة أو يقين، وإنما هو مكابرة وعناد، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤].

---

(١) ديوان أحمد شوقي (٥١٢)، والبيت من البحر الكامل.

وسأقتصر على ذكر شبهتين في هذا المطلب[١]، وذلك في مسألتين:

المسألة الأولى: شبهة أن الدهر هو المتصرف في الكون، والرد عليها.

عرض الشبهة:

هذه الشبهة قائمة على نفي قدرة الله تعالى على إماتة الخلق وإحيائهم، وذلك باعتقاد أن الدهر هو الفاعل لذلك.

قال الله تعالى مبينًا مقالتهم تلك: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية: ٢٤].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول الله تعالى ذكره مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا: ما يهلكنا فيفنينا إلا مر الليالي والأيام وطول العمر إنكارًا منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم»[٢].

وبيَّن ابن عاشور منشأ هذه الشبهة بقوله: «وإذ قد كانت شبهتهم في إنكاره مشاهدة النَّاس يموتون، ويخلفهم أجيال آخرون ولم يرجع أحد ممن مات منهم»[٣].

الردُّ عليها:

فقد ردَّ القرآن الكريم على هذه الشبهة بردٍّ موجز محكم، وذلك **بمقدمة وعرض وخاتمة:**

أما المقدمة: وذلك بأمرين:

---

(١) وستأتي معنا بعض الشبه في هذا النوع في المبحث الخامس إن شاء الله.

(٢) جامع البيان (٢١/ ٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٩٥).

الأول: أن هذا القول الذي قالوه، وأقاموا عليه تصوراتهم وأفكارهم، إنما هو من قَبيل الجهل الذي لا يستند إلى شيء من العلم، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾[الجاثية: ٢٤] «لأنهم قالوا ذلك تخرُّصًا بغير خبر من الله تعالى ولا برهان عندهم بحقيقته»[(١)].

الثاني: أن هذا القول الذي قالوه إنما هو من واردات الظنِّ الذي لا يستند إلى شيء من اليقين، وليس قائمًا على أساس متين، وذلك في قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية: ٢٤]، فهو لم يَقُم على علم صحيح، ويقين معتمد على العقل أو النقل، ولكن على الظنِّ والتخمين والتوهم والتخيُّل[(٢)].

أما العرض: فقد بيَّن لهم فساد مقالتهم، ببيان الصحيح النَّاقض لها؛ فقرر أن الإحياء والإماتة ليستا بفعل مرور الأيام والليالي كما يزعمون! بل بقدرة الله تعالى؛ قال الله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

فالدهر ليس إلا خلقًا من خلق الله تعالى يصرفه كيفما أراد، وليس هو المتصرف كما زعم أهل الشرك والإلحاد.

وأما الخاتمة: فقد ختم الله تعالى ردَّه ذلك بثلاثة أمور:

الأول: أنه بيَّن لهم عظيم ملكه، وسعة سلطانه، وذلك بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الجاثية: ٢٧] ولعل هذا يكون دافعًا لهم للتأمل في ملكوت السموات والأرض، وبيان تهالك حجتهم وفسادها؛ فإن الذي بيده ملكوت السموات والأرض يستحيل أن يكون الإحياء والإماتة بيد غيره.

---

(١) جامع البيان (٢١/٩٥).

(٢) انظر: التفسير الوسيط (٩/ ١٨٨).

الثاني: أنه بيَّن لهم عاقبة أمرهم إذا استمروا في غيهم وكفرهم، وذلك بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧]، وفيه تأكيد على أن الله بيده إحياء الناس وإماتتهم، وذلك أن الساعة بيده سبحانه يقيمها متى شاء.

الثالث: أنه بيَّن لهم شيئًا من حال الأمم في ذلك الموقف العظيم، والمكان المهول، وذلك بقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسار على المبطلين الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة؛ اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم وفاتهم الثواب وحصلوا على أليم العقاب»[(١)].

المسألة الثانية: شبهة: أن ضَرْبَ اللهِ الأمثالَ بالشيء المحتقر؛ كالبعوضة والذباب= ينقص من قدره.

عرض الشبهة:

اعترض المنافقون والمشركون على بعض ما ضرب الله من به الأمثال، مما يُحتقر ويستصغر، كالبعوضة والذباب.

وقالوا: إن الله أعلى وأجلَّ من أن يضرب الأمثال بهذه الأشياء الصغيرة والحقيرة!![(٢)]، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٧٧).

(٢) انظر: جامع البيان (١/ ٤٢٤)، النكت والعيون (١/ ٨٨)، تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٠٦).

الردُّ على الشبهة:

وذلك من وجوه عديدة:

أحدها: أن الله خالق كل شيء، وهو – سبحانه – أعلم بخلقه، ولا يمنعه أن يضرب الأمثال بما صغُر أو كبُر من خلقه.

ولذلك ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[البقرة: ٢٦].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكأن في هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الحقيرة، واعترض على الله في ذلك»[(١)].

ومعنى الآية: أن الله تعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها، فلا يستصغر شيئًا يضرب به مثلًا- ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة- كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها، كما ضرب المثل بالذُّباب والعنكبوت في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٤١]، وغير ذلك من أمثال الكتاب العزيز.

فما استنكره السفهاء وأهل العناد والمراء، واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبًا بها المثل= ليس بموضع للاستنكار والاستغراب.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٧).

فالتمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب. وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المتمثل له عظيمًا كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيرًا كان المتمثل به كذلك، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمرًا تستدعيه حال المتمثل له وتستجره إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية. ألا ترى إلى الحق لما كان واضحًا، جليًّا أبلج، كيف تمثل له بالضياء والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته، كيف تمثل له بالظلمة؟[1].

الثاني: أن في ضرب المثل فوائد عظيمة بينها الله تعالى في القرآن الكريم.

ومن هذه الفوائد:

١- أن فيه ابتلاءً للناس كي يميز به الصادق من الكاذب.

فالمثل إذا جاء ازداد به المؤمن هداية وتوفيقًا وعلمًا وإيمانًا، مع اليقين أن ما علمه منها حق، وما اشتمل عليه حق، وإن خفي عليه وجه الحق فيها فإنه يعلم أن الله لم يضربها عبثًا، بل لحكمة بالغة، وأفضالٍ سابغة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[البقرة: ٢٦].

وأما الكافر والمنافق فيعترض ويتحير، فيزداد كفرًا إلى كفره، كما ازداد المؤمن إيمانًا على إيمانه، قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[البقرة: ٢٦][2].

٢- أنه يتبيَّن في ضرب المثل العاقل والعالم من غيره.

---

(١) محاسن التأويل (١/ ٢٧٧ -٢٧٨) بتصرف يسير.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٤٧).

فالذي يعقل الأمثال هم العالمون؛ قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فدل على أن العالمين يعقلونها، وإن كان غيرهم لا يعقلها»[١].

وقال بعض السلف: «إذا سمعتُ المثل في القرآن فلم أفهمْه بكيت على نفسي»؛ وتلا الآية[٢].

٣- أن في ضرب المثل تقريبًا للمراد إلى ذهن السامع، فيجعله مجسدًا كأنه أمامه.

فالأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل، ويستقر بالقلب.

ولهذا أكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثال؛ فتأمل كيف بيَّن حال المنفق رياء حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه تضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي- الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر- بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به؛ وتضمن تشبيه ما عَلِقَ به من أثر الصدقة بالغبار الذى علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر وأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها كما يذهب الوابل التراب

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٢٩).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٠٨).

الذي على الحجر فيتركه صلدًا؛ فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله»(١).

وقال: «تأمل جزاء هذا المثل البليغ وانطباقها على أجزاء الممثل به؛ تعرف عظمة القرآن وجلالته؛ فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي والمانِّ والمؤذي، فقلبه في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، والعمل الذي لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر؛ فقوة ما تحته وصلابته تمنعه من الثبات والنبات عند نزول الوابل؛ فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ، وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر؛ فإذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه، فبرز ما تحته حجرًا صلدًا لا نبات فيه، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه»(٢).

والكلام في هذا المقام مما يحلو وتطول به مداد الأقلام، وللاستزادة يُرجع إلى الكتب التي صُنِّفت في هذا الباب؛ ككتاب الأمثال في القرآن لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وغيره، وكذلك ما ذكره أهل العلم في كتب التفسير.

المطلب الثاني: الشبه المتعلقة بتوحيد الألوهية.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: شبهة تقليد الآباء والأجداد في العبادة والرد عليها.

عرض الشبهة:

فمن الشبه التي أكثر منها المخالفون: تقليد الآباء والكبراء في العبادة، واحتجاجهم

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٨٠٢).

(٢) الأمثال في القرآن (٥٢).

بها على عدم قبول الحق، أو السير في الطريق الذي أوجبه الله تعالى عليهم.

وقد عرض الله تعالى شبهتهم تلك في آيات كثيرة منها:

١- قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾[البقرة: ١٧٠].

٢- وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[المائدة: ١٠٤].

٣- وقوله: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ٥٣].

٤- وقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء: ٧٤].

ومن شدة اعتنائهم بهذه الآفة وتمسكهم بها قالوها لكل داع إلى الله؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣].

الردُّ عليها:

بنى القرآن الكريم رده لهذه الشبهة على أصلين:

أحدهما: بيان بطلان فعل الآباء والأجداد.

وفي هذا فائدة عظيمة جدًّا محصلها: **هدمُ الأصلِ هدمٌ للفرع، وحسمُ أصلِ الداء حسمٌ لما ينتج عنه من البلاء**(١).

ومن وجوه الرد في هذا الأصل:

---

(١) ولذلك ينبغي على المجادِل لأهل الباطل أن يعتني بتفنيد أصول شبهات المخالفين؛ فإنه يقضي بذلك على كثير من متعلقاتها وأفرادها وفروعها.

١- **الحكم عليهم بالضلال**؛ فإنه إن ثبت أن فعل الآباء والأجداد ضلال فإن تقليد من بعدهم لهم يكون ضلالًا أيضًا، وهذا ما بينه إبراهيم عليه السلام بقوله لما احتج عليه قومه بهذه الشبهة فقال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الأنبياء: ٥٤] أي: أن فعل الآباء هو ضلال وباطل بالأصالة، فيكون تقليدكم لهم ومتابعتكم إياهم على ضلالهم وباطلهم هو من الضلال والباطل أيضًا.

٢- **الحكم عليهم بالجهل**؛ فقد نفى عنهم العقل وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠] وكذلك نفى عنهم العلم كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة: ١٠٤] فتأمل كيف قرن نفيه للعقل والعلم بنفيه للهداية عنهم، ففي ذلك إشارة أن الضلال وعدم الهداية ثمرة من ثمرات الجهل. والله أعلم.

الثاني: بيان بطلان فعلهم بتقليدهم آباءهم وأجدادهم في الباطل.

وذلك من وجوه:

١- **الحكم على الأبناء بالسفه والحماقة بتقليدهم آباءهم في الباطل**؛ فلو كان في آبائهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر، لكن آباءهم ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فكيف يُقلَّد من لا علم عنده صحيحًا، ولا عقل رجيحًا، ويترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله؛ ذلك النور الذي يملأ القلوب علمًا وإيمانًا، وهدًى، ويقينًا، أليس ذلك ضربًا من السفاهة، ولونًا من الحماقة ؟!! سبحانك اللهم.

٢- **الإنكار عليهم، وتوبيخهم، وذمهم لتقليد آبائهم وأجدادهم**، قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة: ١٠٤]. فأتى بالاستفهام الدال على الإنكار المتضمن للتوبيخ والتقريع.

٣- **إبدالهم بما هو خير لهم من ذلك الباطل**؛ وهو قول النبي ﷺ للمشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

أي: ألا أدلكم على دين هو أهدى مما ورثتموه عن آبائكم، والذي فيه نجاحكم وفلاحكم(١)؟!

وقد جاء بالاستفهام التقريري المشوب بالإنكار لإقناعهم أن ما جاء به أهدى مما عليه آباؤهم، ولاستدعائهم إلى النظر فيما اتبعوا فيه آباءهم، لعل ما دعاهم إليه الرّسول أهدى مما هم عليه.

وجاء باسم التفضيل من الهدي إرخاءً للعنان لهم ليتدبروا ما هم عليه، وما جاء به لعله يكون في ذلك هدايتهم للحق، وتخليصهم من الباطل(٢).

٤- **ذكر ما سيقع لهم في الآخرة من نكال وندامة وحسرة إن استمروا على ذلك**، والآيات في بيان ذلك كثيرة جدًّا منها:

١- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

٢- وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ

---

(١) وفيه فائدة عظيمة وهي: أنه ينبغي للمجادل من أهل الحق إذا أراد أن يبطل باطلًا ويستأصله من قلوب وعقول مخالفيه= أن يوفر لهم البديل الحق؛ وليس مجرد أن يبطل مذهبهم دون تبيان ما يصلح حالهم في الدين والدنيا. فتأمل ذلك!!.

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٥/ ١٩٠).

لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾[الفرقان: ٢٧ – ٢٩].

٣- وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[البقرة: ١٦٦ – ١٦٧]. وغيرها من الآيات.

المسألة الثانية: شبهة الشفاعة والرد عليها.

تعريف الشفاعة لغةً وشرعًا.

الشفاعة في اللغة: مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر، يقال: شَفَعَ الشيءَ؛ ضمَّ مثلَه إليه، فجعل الوتر شفعًا[(١)].

أما شرعًا: فهي «التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة»[(٢)].

عرض الشبهة.

اعتقد كثير من المخالفين أن بعض الخلق يشفع عند الله؛ فعبدوه من دون الله، وتقربوا إليه بأنواع من العبادات؛ كالخوف والرجاء والذبح والنذر والدعاء وغيرها، رجاء أن يشفع لهم بزعمهم عند الله تعالى.

ومن أقوالهم في ذلك: قولهم عن أصنامهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[يونس: ١٨] و ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[الزمر: ٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها

---

(١) انظر: القاموس المحيط (٩٤٧)، والمعجم الوسيط (١/ ٤٨٧).

(٢) تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٨).

والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه»[(١)].

الرد عليها:

أحكم القرآن الكريم الطوق حول هذه الشبهة، وحول عقول أصحابها ولم يدع لهم سبيلًا للتمادي فيها؛ فإما القبول والتسليم، وإما المعاندة والمكابرة.

فرد عليهم من عدة أوجه منها:

١- النقض والإبطال.

نقض قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨] وأبطله بقوله: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[يونس: ١٨].

وهذا النقض من وجهين:

أحدهما: في قوله: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[يونس: ١٨]. وفيه الإنكار عليهم بأنهم أخبروا عن أمر لا يكون، فإنه لو كان لعلمه[(٢)].

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أتخبرون الله بما لا يعلم الله صحته، وأن له شريكًا، أو عنده شفيعًا بغير إذنه، ولا يعلم الله لنفسه شريكًا؟!»[(٣)].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي أتخبرون الله أن له شريكًا في ملكه أو شفيعًا بغير إذنه؟!، والله لا يعلم لنفسه شريكًا في السموات ولا في الأرض!!؛ لأنه لا شريك له، فلذلك لا يعلمه»[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٥).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٥/ ١٤٨).

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن (٤/ ١٢٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٢٢).

ووجه بطلان قولهم من خلال ما تقدم: أنهم ادَّعوا أن هذه المعبودات شفعاء عند الله تعالى، وهو إنباء بما ليس بالمعلوم لله، وإذا لم يكن معلومًا له وهو العالم المحيط بجميع المعلومات= لم يكن شيئًا؛ لأن الشيء هو ما يُعلم ويُخبر عنه، وإلا فهو لا شيء.

وإن قيل: كيف أنبأوا الله بذلك؟!

الجواب: أنه تهكم بهم، وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنَّ الذي أنبأوا به باطل غير منطوٍ تحت الصحة(١).

الثاني: في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[يونس: ١٨]. وفيه تنزيه الله جل جلاله عن فعلهم هذا، وبيان أنه شرك.

فتأمل كيف نقض عليهم شبهتهم بقوله: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ...﴾[يونس: ١٨]، و كيف أبطلها بقوله: ﴿...يُشۡرِكُونَ﴾[يونس: ١٨].فإنها نفيسة من النفائس.

وتأمل كيف بيَّن في أول الآية بقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾[يونس: ١٨] أن هذه المعبودات لا تضر من كفر بها، ولا تنفع من عبدها، مع العجب أنهم تركوا عبادة من بيده النفع والضر، والتفتوا إلى من لا يضر ولا ينفع، وهذه إحدى حماقات تلك العقول. فتأمل(٢)!!

---

(١) انظر: الكشاف (٢/ ٣٣٦).

(٢) وهذا ما نراه كثيرًا في زماننا عند كثير من عباد القبور الذين قدَّسوا العظام الرُّفات، وأسلموا وجوههم للقبور والأموات، فقدموا لهم النُّذور والقرابين، وأغدقوا عليهم بما نفُسَ من الحَلْي والعَيْن، فصار الأموات أغنياء بحماقة هؤلاء، والعابدون تعساء لانغماسهم في ذاك الوباء؛ وقد صدق حافظ إبراهيم عندما قال: [البحر الكامل]

أحياؤُنا لا يرزقون بدرهم ... وبألفِ ألفٍ يُرزق الأمواتُ!

من لي بحظِّ النائمين بحفرة ... قامتْ على أحجارها الصَّلواتُ

=

ولذلك قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر: ٤٣] «والكلام تهكم؛ إذ كيف يشفع من لا يعقل؟! فإنه لعدم عقله لا يتصور خطور معنى الشفاعة عنده، فضلًا عن أن تتوجه إرادته إلى الاستشفاع؛ فاتخاذهم شفعاء من الحماقة»[1].

وهنا نكتة لطيفة نبه عليها العلماء وهي:

بيان وجه الجمع بين نفيه تعالى النفع والضر معًا عن ذلك المعبود من دون الله في قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾[الحج: ١٢] مع إثباتهما في قوله: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾[الحج: ١٣]؛ ومن المعلوم أن صيغة التفضيل في قوله: «أقرب» دلت على أن هناك نفعًا وضرًا، ولكن الضر أقرب من النفع[2].

فالجواب: «أن الآية الأولى في الذين يعبدون الأصنام، فالأصنام لا تنفع من عبدها، ولا تضر من كفر بها؛ ولذا قال فيها: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾[الحج: ١٢] والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام، هي التعبير بلفظة «ما» في قوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ [الحج: ١٢] لأن لفظة «ما» تأتي لما لا يعقل، والأصنام لا تعقل.

أما الآية الأخرى فهي فيمن عبد بعض الطغاة المعبودين من دون الله، كفرعون القائل: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص: ٣٨] ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ

=

يسعى الأنامُ لها ويجري حولها ... بحرُ النذورِ وتقرأ الآياتُ!
ويقالُ هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلةٌ تُقضى بها الحاجاتُ

(١) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٦).

(٢) انظر: أضواء البيان (٤/ ٢٨٤).

﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء: ٢٩] ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤] فإن فرعون ونحوه من الطغاة المعبودين قد يغدقون نعم الدنيا على عابديهم؛ ولذا قال له القوم الذين كانوا سحرة: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[الشعراء: ٤١ – ٤٢] فهذا النفع الدنيوي بالنسبة إلى ما سيلاقونه من العذاب والخلود في النار كلا شيء، فضر هذا المعبود بخلود عابده في النار أقرب من نفعه بعرض قليل زائل من حطام الدنيا»(١).

٢- الحصر المراد به الإبطال.

فإن الله تعالى حصر الشفاعة به سبحانه، فلا تكون إلا بأمره وحده، ولا يملكها غيره، وهي خاصة بمن له ملك السموات والأرض، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر: ٤٣ – ٤٤].

فقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر: ٤٣] مر معنا في النوع الأول أن هذه المعبودات لا تضر من كفر بها، ولا تنفع من عبدها، «وأفاد تنكير (شيئًا) في سياق النفي، عموم كل ما يُملَك، فيدخل في عمومه جميع أنواع الشفاعة»(٢).

وأما قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾[الزمر: ٤٤]. «أي: هو مالكها، لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع له مرتضى، والشفيع مأذونًا له؛ وكلاهما مفقود ها هنا»(٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال، ولا يُتصور أن يكون

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/ ٢٧).

(٣) محاسن التأويل (٨/ ٢٩١).

نبي فمن دونه مالكًا لها، بل هذا ممتنع كما يمتنع أن يكون خالقًا وربًّا»(١).

وبعد أن حصر الله الشفاعة به، وأنها لا تكون إلا بأمره = بيَّن أنه إن أراد إعطاء الشفاعة لأحد فلا بد من شرطين:

أحدهما: الرضى؛ وذلك بقسميه: ١- رضا الله عن الشافع، ٢- ورضاه عن المشفوع له.

والثاني: الإذن؛ أي: إذنه بالشفاعة لمن اراد أن يشفع.

وقد بينهما الله في عدة آيات، وجمعهما في قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[النجم: ٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكل من دعي من دون الله لا يملك الشفاعة، فإن المالك للشيء هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته، والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال»(٢).

٣- التقرير العقلي.

وهو نوع عظيم من أنواع الردِّ على المخالفين وشبهاتهم، وذلك بذكر أشياء يقرونها تكون فيها النبال دامغة لكل جدال، وقاصمة الظهر قاطعة لكل كرٍّ وفر.

ومن ذلك حملهم على الإقرار بأن الذين عبدتموهم من دون الله رجاء شفاعتهم لكم عنده= هم خلق وعباد أمثالكم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٠٦).

(٢) المصدر السابق (١٤/ ٤٠٥).

كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[الأعراف: ١٩٤ – ١٩٥].

وهذا نوع من أنواع التحدي لهؤلاء العابدين للأوثان، وذلك بتقريرهم أنه لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون له، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئًا وتشفع لكم عند باريكم، فادعوهم فليستجيبوا لكم، فإن استجابوا لكم وحققوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على الله أعظم الفرية.

ثم خاطب عقولهم، وجعلهم يقرون أن ما يعبدونه ليس له من أسباب القوة شيء، فإذا كانت لا تملك أرجلًا تمشي بها، ولا أيدٍ تبطش بها، ولا أعينًا تبصر بها، ولا آذانًا تسمع بها = فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان.

فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها، وهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء، فلأي شيء عبدتموها ؟![1].

وبهذا يتبيَّن كيف أبطل الله تعالى شبهة ادعائهم أن معبوداتهم تملك الشفاعة عند الله تعالى.

المطلب الثالث: الشبه المتعلقة بتوحيد الأسماء والصفات والرد عليها.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنكار اسم من أسماء الله تعالى؛ كإنكارهم اسم الله (الرحمن).

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾[الفرقان: ٦٠]. وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣١٢).

عرض الشبهة:

وذلك أنهم جحدوا وكفروا باسم الله (الرحمن) لزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول ﷺ أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله وهو يدعو معه إلهًا آخر يقول: (يا رحمن)[١].

روى ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «كان النبي ﷺ ساجدًا يدعو: (يا رحمن يا رحيم)؛ فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا، وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[الإسراء: ١١٠][٢].

الردُّ عليهم من وجوه، منها:

١- **أن الله تعالى أعقب مقالتهم تلك بتقديس ذاته وتمجيدها، وتذكيرهم بعظمة خلقه وعظيم آياته،** فقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ... ﴾[الفرقان: ٦١]الآيات.

فبيَّن لهم آثار رحمته عليهم، وكأن الخطاب: يا أيها الذين أنكرتم اسم الله الرحمن أليس من رحمته بكم، وشفقته عليكم، أن خلق لكم الشمس والقمر والنجوم بما فيها منافع لكم ؟! وكيف ستكون حياتكم وحياة غيركم بدونها؟!

٢- **أن الله بيَّن أن (الرحمن) هو اسم له، وليس كما توهموه من تعدد الآلهة،** فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[الإسراء: ١١٠].

أي: يا محمد ﷺ قل لمشركي قومك المنكرين دعاء الرحمن: ادعوا الله بأي اسم من أسمائه، سواء دعوتموه باسم الله أو باسم الرحمن، فإنما تدعون واحدًا، وله الأسماء الحسنى.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٨٥).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٢٣).

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما قيل ذلك له ﷺ لأن المشركين فيما ذكر سمعوا النبي ﷺ يدعو ربه: يا ربنا الله، ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين، فأنزل الله على نبيه عليه الصلاة والسلام هذه الآية احتجاجًا لنبيه عليهم»(١).

المسألة الثانية: تشبيه الله بخلقه والردُّ على ذلك.

عرض الشبهة:

فاليهود قد وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة، وذلك بناء على تصورهم الفاسد في أن صفات الله تشابه صفات المخلوقين، فأدى ذلك إلى أن يقولوا كلامًا فيه تنقُّص لله تعالى، وكفر به ﷻ.

ومن ذلك قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] تعالى الله عما يقول الكافرون علوًّا كبيرًا.

الردُّ على قولهم الأول من وجهين؛ وجه في الآية نفسها، ووجه في غيرها:

أما الأول: فهو أن الله تعالى توعدهم بحفظ ما قالوه وكتابته عنده، ثم عقابهم عليه في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾[آل عمران: ١٨١] فلو لم يكن كلامُهم – هذا – كفرًا وباطلًا لما توعدهم عليه بعذاب أليم في جهنم؛ فلا يعذب الله تعالى على قول الحقِّ وفعله.

أما الثاني: فهو أن الله تعالى بيَّن أنه منزه عما يجري للخلق من النقص والخلل، وما يعتريهم من الخطأ والزلل؛ قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(١) جامع البيان (١٥/ ١٢٣).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته؛ لا في ذاته ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ يرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جدًّا، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات.

وفيها ردٌّ على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾[الشورى: ١١] وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۖ﴾[الشورى: ١١]»(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا ريب أن أهل السنة والجماعة والحديث من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم متفقون على تنزيه الله تعالى عن مماثلة الخلق، وعلى ذمِّ المشبهة الذين يشبهون صفاته بصفات خلقه، ومتفقون على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وطريقة سلف الأمة وأئمتها: أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله: من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل؛ إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٥٤).

[الشورى: ١١] فهذا ردٌّ على الممثلة؛ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] ردٌّ على المعطلة»(١).

أما الردُّ على قولهم: إن (يد الله مغلولة).

فقولهم: مغلولة: من الغُل؛ وهو القيد؛ من الجلد أو الحديد، يوضع في اليد أو العنق. ومرادهم في ذلك: أنها مقبوضة بخيلة بالعطاء!!؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا(٢).

وردَّ عليهم القرآن الكريم من أربعة وجوه:

الأول: الدعاء عليهم من جنس ما وصفوا الله تعالى به، وذلك بقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤] «فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقًا عليهم، فكانوا أبخل الناس وأقلهم إحسانًا، وأسوأهم ظنًّا بالله، وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي»(٣).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم»(٤).

الثاني: أنه طردهم من رحمته، وأبعدهم عن مغفرته، جزاء هذه المقالة، فقال تعالى: ﴿وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾[المائدة: ٦٤]، ولا يطرد الله أحدًا من رحمته إلا إذا أتى ما يوجب ذلك.

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٥٢٢).

(٢) انظر: جمع البيان (٨/٥٥٢).

(٣) منهاج السنة (٢٣٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٤٦).

الثالث: أن الله تعالى بيَّن لهم خلاف ما يقولون؛ فبيَّن أنه «لا حِجْر عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد؛ فإنه تعالى قد بسط فضله وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر العباد أن يتعرضوا لنفحات جوده، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم»[(١)]، وذلك في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة: ٦٤].

فوصف ذلك البسط بأنه كثير العطاء، وبيَّن أن يديه «سحاء الليل والنهار، وخيره في جميع الأوقات مدرار، يفرج كربًا، ويزيل غمًّا، ويغني فقيرًا، ويفك أسيرًا، ويجبر كسيرًا، ويجيب سائلًا ويعطي فقيرًا عائلًا، ويجيب المضطرين، ويستجيب للسائلين. وينعم على من لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصيًا، بل خيره يرتع فيه البر والفاجر، ويجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال، ثم يحمدهم عليها، ويضيفها إليهم وهي من جوده، ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركه الوصف، ولا يخطر على بال العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه، فسبحان من كل النعم التي بالعباد فمنه، وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده.

وقبح الله من استغنى بجهله عن ربه، ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة - ونحوهم ممن حاله كحالهم - ببعض قولهم = لهلكوا وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال وهو تعالى يحلم عنهم ويصفح ويمهلهم ولا يهملهم»[(٢)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٣٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٣٧).

الرابع: أنه توعد بمعاقبتهم أعظم العقوبات، جزاء تجرئهم على ربهم جل جلاله فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾[المائدة: ٦٤].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا أعظم العقوبات على العبد؛ أن يكون الذكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح، وسعادة الدنيا والآخرة، وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتن الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها، والاستسلام لله بها، وشكرًا لله عليها= أن تكون لمثل هذا زيادة غي إلى غيه، وطغيان إلى طغيانه، وكفر إلى كفره، وذلك بسبب إعراضه عنها، ورده لها، ومعاندته إياها، ومعارضته لها بالشبه الباطلة»[1].

(١) المصدر السابق (٢٣٧).

المبحث الثاني

الرد على الشُّبه المتعلقة بالملائكة

الملائكة خلقٌ جليلٌ، وهو ذو منزلة عظيمة عند الله ﷻ؛ فقد وصفهم الله تعالى بأنهم مقربون(١)، وأنهم كرام كاتبون(٢)، بررة(٣)، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦].

أقسم الله بهم(٤)، وأثنى عليهم(٥)، وجعل الإيمان بهم من أصول الديانة(٦) تستبين بها سبيل المؤمنين عن سبيل المجرمين الكافرين.

فلذا وجب حبهم، وتعظيم قدرهم، والتأدب حين ذكرهم، والحذر كل الحذر من التنقص بهم، فإن ذلك يناقض صفات المؤمنين، ويماثل أفعال الضالين المبطلين، الذين ابتدعوا العقائد الفاسدة، والشبه الباطلة الكاسدة، التي لا تروج إلا في أسواق الجهالة، وموائد البطالة.

---

(١) قال الله ﷻ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء: ١٧٢].

(٢) قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١].

(٣) قال تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥ – ١٦].

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾[الصافات: ١ – ٣].

(٥) في قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٦ – ٢٧].

(٦) روى الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه...) الحديث. رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان.. برقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.. برقم (٩).

وقد أورد القرآن الكريم فيما يتعلق بالملائكة بعض الشبه التي قالها المجرمون، وردَّ عليها؛ ومن أبرزها: شبهتان هما من جنس واحد؛ الأولى: اعتقاد أن الملائكة إناث، والثانية: اعتقاد أنهم بنات الله ﷻ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وسيكون العرض والرد - بحول الله وقوته - في المطالب التالية.

المطلب الأول: شبهة: أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

عرض الله تعالى شبهتهم هذه في مواضع من القرآن الكريم منها:

١- قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾[الزخرف: ١٩].

٢- وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾[النجم: ٢٧].

٣- وقوله: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾[الإسراء: ٤٠].

المسألة الثانية: منشأ هذه الشبهة.

لعل منشأ هذه الشبهة الفاجرة، والمقالة الخبيثة الماكرة، من الاعتقاد الباطل بأن الله تعالى قد حصلت بينه وبين الجِنَّة مصاهرة، فنتج عن ذلك خلق الملائكة البررة.

وقد بيَّن الله ذلك بقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾[الصافات: ١٥٨]، وذكر العلماء في تفسير هذه الآية عدة أقوال؛ منها:

زعمُ اليهود أن الله تعالى صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم، وقد ساق الإمام الطبري بسنده إلى قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى تزوج إلى الجن،

فخرج منهما الملائكة»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الذين كانوا يقولون من العرب: إن الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من أنه **صاهر الجن فولدت له الملائكة = فقد نفاه الله عنه بامتناع الصاحبة، وبامتناع أن يكون منه جزء؛ فإنه صمد**، وقوله: ﴿**وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ**﴾[الأنعام: ١٠١]»[(٢)].

وذكر الإمام الطبري أقوالًا أخرى منها: أنه قول المشركين: إن الملائكة بنات الله[(٣)]؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ولا يستبعد – والله أعلم – أن يكون وصف الملائكة بأنهم بنات الله قد جاء من تلك المقالة اليهودية الخبيثة.

المطلب الثاني: الردُّ على هذه الشبهة.

ردَّ القرآن الكريم على هذه الكفر الصراح والكذب الوقاح ردًّا وافيًا، وجادلهم بها جدالًا شافيًا، فأقام الحجة على أهل الضلالة، ودمغ بآياته أهل الغواية والبطالة.

وفي هذا المطلب مسألتان:

المسألة الأولى: الرد على وصف الملائكة بالأنوثة.

وذلك من وجوه:

١ – أن الله طالب القائلين بذلك بدليل يصدِّق مقالتهم.

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٧٢).

(٣) انظر: جامع البيان (١٩/ ٦٤٥)

كدليل الحس والمشاهدة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾[الزخرف: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴾[الصافات: ١٥٠] أي: أَشَهِد هؤلاء المشركين الجاعلين ملائكة الله إناثًا خلق ملائكته الذين هم عنده، فعلموا ما هم، وأنهم إناث، فوصفوهم بذلك، لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم[(١)]؟!.

وفي هذا تهكم بهم، وتوبيخ لهم، فإنهم إذ لم يشهدوا خلق الملائكة فمن أين عرفوا أنهم إناث ؟!.

ولذلك جاء بالاستفهام الدال على الإنكار في قوله: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾[الزخرف: ١٩] أي: أنهم لم يشهدوا خلقهم، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بالدلائل العقلية، وأما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على إثبات النبوّة، وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة، فلا سبيل لهم إلى إثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية، فثبت أنهم ذكروا هذه الدعوى من غير معرفة لا بضرورة ولا بدليل.

ولذلك هددهم الله تعالى وتوعدهم بأنه سيكتب شهادتهم المزعومة تلك، ويسألهم عنها، ويعاقبهم إن لم يأتوا ببرهان عليها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلًا.

ونستخلص من هاهنا قاعدة مهمة جدًّا وهي: (**رفض الدَّعاوى القائمة على غير الدليل، وطرح الاتهامات المفتقدة إلى برهان**).

وتقرير هذه القاعدة: أن كل دعوى عارية عن الدليل مردودة، وكل اتهام خال من البرهان هو مجرد زعم وافتراء وباطل لا أساس له، وكل قول لا حجة تؤيده فهو جهالة،

(١) انظر: جامع البيان (٢٠/ ٥٦٧).

وقائله من أهل الغواية والضلالة(١).

قال الشاعر: [البحر الخفيف]

والدعاوى ما لم يقيموا عليها   بينات أبناؤها أدعياء(٢)

٢- أن الله بيَّن أن مقالتهم تلك لم تكن إلا من باب الظن الذي لا يستند إلى العلم.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٧ – ٢٨].

أي: ليس لهم – بمقولتهم تلك – علم لا عن الله ولا عن رسوله ﷺ، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول؛ بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وإنما يتبعون – في ذلك القول القبيح – الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، فإن الحقَّ لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة(٣).

ولذلك نستخلص هنا قاعدة عظيمة أيضًا وهي: **(أي دعوى تقوم على الظن والوهم فهي باطلة مردودة)**. وهي من القواعد المهمَّة في مجادلة المخالفين.

فالظن لا ينصر حقًّا، ولا يدفع باطلًا، وقد قرر الله ذلك في قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦] وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ

(١) انظر: موسوعة بيان الإسلام (١/ ٥٥).

(٢) وهذا البيت مشهور جدًّا يكاد يكون قاعدة في باب الأدلة وإثباتها؛ وهو للشيخ الأديب أبي العبَّاس أحمد بن محمد بن محمد الحِميري المعروفِ بـ(ابنِ الونّان) المتوفى سنة (١١٨٧هـ) وقصيدته مشهورةٌ باسم: (حديقة ابن الونان).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٨٢٠).

ﵟٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗاﵞ[النجم: ٢٨].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، أن رسول الله ﷺ، قال: (إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث)[(١)].

قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: «وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث – مع أن تعمد الكذب الذي لا يستند إلى ظن أصلًا، أشد من الأمر الذي يستند إلى الظن – فللإشارة إلى أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند إلى شيء يجوز الاعتماد عليه؛ فيعتمد عليه ويجعل أصلًا ويجزم به، فيكون الجازم به كاذبًا؛ وإنما صار أشد من الكاذب لأن الكذب في أصله مستقبح مستغنى عن ذمه، بخلاف هذا؛ فإن صاحبه بزعمه مستند إلى شيء، فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة في ذمه والتنفير منه، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض؛ لخفائه غالبًا ووضوح الكذب المحض»[(٢)].

المسألة الثانية: الردُّ على وصف الملائكة بأنهم بنات الله.

وذلك من وجوه:

الأول: أن مختلقي هذه المقالة كاذبون مفترون في قولهم: إن الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﵟأَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَﵞ[الصافات: ١٥١ – ١٥٢].

أي: من شدة كذبهم وافترائهم على الله يقولون: إن الملائكة بنات الله؛ وإنهم لكاذبون في ذلك.

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب: باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، برقم (٥١٤٢)، ومسلم، كتاب:البر والصلة، باب: تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها برقم (٢٥٦٣).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٤٨٢).

وتأمل قوله: ﴿إِفْكِهِمْ﴾؛ ومعناه: الكذب، ثم قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، ففيه تأكيد أنهم كاذبون كذبًا كبَّارًا، وكأنه وصف كذبهم بأنه كذب مركب بعضه فوق بعض!، نعوذ بالله من الضَّلال.

الثاني: أنه بين لهم أنهم أصحاب ظلم وتنقص للخالق جلَّ جلاله.

وذلك حينما نسبوا له الولد، ونسبوا له أخس الصنفين عندهم؛ وهم الإناث، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾[الصافات: ١٤٩].

أي: اسأل هؤلاء المشركين الذين عبدوا الملائكة وزعموا أنها بنات الله؛ فجمعوا بين كفرين: الشرك بالله، ووصفه بما لا يليق بجلاله= ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩]، **فهذه قسمة ضيزى ومقولة جائرة من جهتين:**

- **جعلهم الولد لله تعالى.**
- **جعلهم أردأ القسمين وأخسهما له**؛ وهو البنات؛ التي لا يرضونهن لأنفسهم[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كلام ماتع عن هذه المسالة: «وكان المشركون يقولون: إن الملائكة بنات الله كما حكى الله ذلك عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[الزخرف: ١٩].

وهم مع هذا يجعلون البنات نقصًا وعيبًا، ويرون الذكر كمالًا، فقال لهم: كيف تصفون ربكم بأنقص الوصفين وأنتم مع هذا لا ترضون هذا لأنفسكم ؟!

فهذا احتجاج عليهم بطريق الأولى في بطلان قولهم: إن له البنات ولهم البنين... وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٧٠٨).

وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النحل: ٥٧ – ٦٠]إلى قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾[النحل: ٦٢].

فبيَّن سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنهم يفضلون أنفسهم على ربهم، ويجعلون له ما يكرهون، ويقولون بوصفهم الكذب أن لهم الحسنى، وأنهم يجعلون لأنفسهم ما يشتهون، وأن ما جعلوا لله نظيـــــره إذا ﴿بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾[النحـل: ٥٨ – ٥٩] فبـيَّن سـبحانه أن هذا الحكم حكم سيِّئ.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾[النجم: ٢٢] أي قسمة جائرة، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾[الزخرف: ١٥ – ١٩] فقال تعالى مقيمًا للحجة مخاطبًا باستفهام الإنكار، المبين لبطلان ما أنكره وامتناعه، وأن ذلك مستقر في الفطر: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾[الزخرف: ١٦] فإنه لو قدر على سبيل الفرض أن يتخذ ولدًا، أكان يتخذ مما يخلق بنات ويصفيكم بالبنين؟! أي يجعل البنين صافين لكم لا يشرككم في اتخاذ البنين، بل تكونون أنتم مخصوصون بخير الصنفين، وهو سبحانه مخصوص بالصنف المنقوص؟!

ثم ذكر عنهم ما يبين فرط نقص البنات عندهم فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ

لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ١٧] وهن الإناث - كما ذكر ذلك في سورة النحل - أي بالذي جعله مثلًا للرحمن وهن البنات اللاتي جعل للرحمن مثلهن فضربه للرحمن مثلًا، أي: جعله له مثلًا حيث مثل به الملائكة الذين جعلهم بنات الله، فجعلهن يماثلن البنات اللاتي جعل الرحمن مثلهن، فضرب للرحمن - أي جعل له - مثلًا، يماثل البنات اللاتي إذا بشر أحدهم بها ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم.

ثم بيَّن نقص النساء فقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾[الزخرف: ١٨] وهن النساء، تربين في الحلية، ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[الزخرف: ١٨] وهي المرأة؛ لا تكاد تتكلم بحجة لها إلا كانت عليها، فبيَّن أنهم من نقصهنَّ، يكْمُلْنَ بالحلية التي تزينهن في أعين الرجال، وهي لا تبِيْن في الخصام، وعدم البيان صفة نقص، فإن الله ميز الإنسان بالنطق والبيان، الذي فضله به على سائر الحيوان، كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن: ١ - ٤]»[(١)].

الثالث: أنه طالبهم بدليل يثبت صحة ما ادعوه؛ وذلك بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الصافات: ١٥٦ - ١٥٧].

أي: ألكم حجة ظاهرة ودليل واضح على صدق ما قلتموه؟، فإن كان كذلك فهاتوا برهانًا على ذلك إن كنتم صادقين، وإلا فأنتم كاذبون فيما تزعمون، وباطل ما قلتموه، وفاسد ما تدعون.

وخلاصة الرد على هاتين الشبهتين ما يلي:

أن قولهم: إن الملائكة إناث وأنهم بنات الله= باطل، لأنه غير مستند لا إلى طريق

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٦٢).

العلم ولا إلى الحس، أو الخبر، أو النظر.

أما الحس: فمفقود ههنا، لأنهم ما شاهدوا كيفية خلق الله للملائكة، وهو المراد من قوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾[الصافات: ١٥٠].

وأما الخبر: فمفقود أيضًا، لأن الخبر إنما يفيد العلم، إذا علم كونه صدقًا قطعًا، وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون، لم يدل على صدقهم لا دليل، ولا أمارة دليل، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[الصافات: ١٥١ – ١٥٢].

وأما طريق النظر: فمفقود؛ وبيانه من وجهين:

الأول: إن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب، لأن الله تعالى له الكمال المطلق، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأدنى، قال تعالى: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[الصافات: ١٥٣ – ١٥٤].

فإسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل، فإن كان حكم العقل معتبراً في هذا الباب= كان قولهم باطلًا.

الثاني: مطالبتهم بإثبات الدليل على صحة مذهبهم، فإذا لم يجدوا ذلك ظهر ضده وهو خلو الدعوى من أي دليل يدل على صحة ما قالوه، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[الصافات: ١٥٦ – ١٥٧].

فثبت بما ذكر أن القول الذي ذهبوا إليه لم يدل على صحته لا الحس، ولا الخبر، ولا النظر، فكان المصير إليه باطلًا قطعًا[1].

---

(١) انظر: ومنهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام للدكتور: حمود الرحيلي (٢/ ٢٥٣– =

المبحث الثالث
الشبه المتعلقة بالرُّسل

لا شك أن الله تعالى لم يتخير من عباده إلا صفوتهم كي يكونوا رسله إلى أهل الأرض؛ فلذلك كان الأنبياء عليهم السلام أفضل من مشى على هذه المعمورة، وقد اختصهم الله بصفات عظيمة، وسمات رفيعة، ميزهم بها عن غيرهم؛ في عقلهم ودينهم، وأعدهم لمزيد فضله ورحمته يوم القيامة.

و«لما كان العقل البشري لا يتمكن من عبادة الله - تعالى - على الوجه الذي يرضاه ويحبه، وكذلك لا يستطيع التنظيم والتشريع المناسب للأمة على اختلاف طبقاتها؛ إذ لا يحيط بذلك إلا الله وحده = كان من حكمة الله ورحمته أن أرسل الرسل وأنزل الكتب لإصلاح الخلق وإقامة الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء: ١٦٥]»(١).

فحكمة إرسال الرسل تتلخص في أمور:

أولها: إقامة الحجة على الخلق حتى لا يحتج أحد على الله فيقول: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[طه: ١٣٤].

الثاني: توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح لهم في دينهم ودنياهم؛ فالرسل يذودون الناس عما يضرهم ويدعونهم إلى ما ينفعهم.

الثالث: جمع الأمة على دين واحد، ورجل واحد؛ فإن انقياد الناس لما يشاهدونه

=
٢٥٥).

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٥/ ٢٩٩).

من الآيات المؤيدة للأنبياء أسرع وأقوى وأشد تماسكًا؛ فإنهم يجتمعون عليه، عن عقيدة راسخة وإيمان ثابت، فيحصل الصلاح والإصلاح[(١)].

لكن أهل الباطل أنكروا هذا العطاء من رب الأرض والسماء، وجفوا رسل ربهم الذين ما جاؤوا إلا رحمة بهم، فمنهم من قتلوه، ومنهم من آذوه بشتى أنواع الإيذاء؛ بشتم وتكذيب، وتهديد وترهيب؛ ومن لم يقدروا عليه رموه بالكذب والبهتان، وغمروا قلوب أتباعهم بالشبه والبطلان تنفيرًا عن الحق، وإضلالًا منهمُ للخلق.

لكن راية الحق شامخة، وكلمته صائبة ودامغة، تُطاول القمم، ويُرى الباطل أمامها كأنه قزم، فسبحان من رفع الحق وجمَّله، وأذل الباطل وجَنْدَلَه[(٢)].

ولقد أورد القرآن الكريم بعضًا من الشبه التي أثارها المبطلون حول الرسل عليهم الصلاة والسلام، وفندها تفنيدًا، حتى صارت كالسراب بعيدًا.

وهاهنا بيان لبعض ما أورده القرآن الكريم من شبه المخالفين حول المرسلين، والرد عليها.

وذلك في المطالب التالية.

المطلب الأول: **شبهة عبادة بعض الخلق للرسل عليهم السلام**.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

تقدم آنفًا أن الرسل عليهم السلام هم صفوة الخلق وأعظمهم، فهم مقربون عند الله جل في علاه؛ فأدت هذه المنزلة العظيمة التي حظي بها الرسل عليهم السلام إلى الغلو في

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ العثيمين (٥/ ٢٩٩) بتصرف يسير.

(٢) صرعه ورماه أرضًا.

بعضهم حتى عُبد من دون الله تعالى.

كحال النصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام، حتى رفعوه من مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق إلا بالله جل في علاه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[النساء: ١٧١].

وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله)[١].

فالنصارى لما غلوا في مدح نبيهم بالباطل، وأفرطوا في تعظيمه، عبدوه من دون الله، وما ذلك إلا لغلوهم في قرب النبي من ربه، فأدى ما أدى إلى الاعتقاد به!!.

المسألة الثانية: الرد على هذه الشبهة.

رد الله تعالى على هذه الشبهة من طريقين:

أحدهما: رد إجمالي. وفيه بيان الأسس العريضة، والقواعد الكلية في الرد عليهم، ومنها:

١- أن الله تعالى نهى عن الغلو في الدين، وبين أنه سبب من أسباب وقوع الناس في عبادة الصالحين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[النساء: ١٧١] فقد بيَّن أن أهل الكتاب ما ضلوا إلا بعدما غلوا في دينهم؛ فأتوا بالعجائب من الباطل، مما لم ينزل الله به

---

(١) رواه البخاري بسنده من طريق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، برقم (٣٤٤٥).

من سلطان، ومن هؤلاء النصارى وعبادتهم للمسيح عليه السلام.

٢- **أن الله تعالى نهى عن القول عليه إلا الحق.**

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[النساء: ١٧١]، فإن «هذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما:

١- قول الكذب على الله.

٢- والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله.

والثالث: مأمور به وهو قول الحق في هذه الأمور»[١].

ولذلك قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام = نص على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾[النساء: ١٧١]...»[٢].

الثاني: الرد التفصيلي:

ردَّ القرآن الكريم على هذه الشبهة من وجوه:

الأول: تكفير من قال: إن الله هو المسيح ابن مريم، وأن الله ثالث ثلاثة، كما مر معنا.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: ٧٢].

وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[المائدة: ٧٣].

وقد ردَّ هذين الإفكين من وجوه:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢١٦).

(٢) المصدر السابق (٢١٦).

- فأما قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: ٧٢].

أ- فقد حاججهم الله بقول المسيح عليه السلام الذي يعرفونه ولا ينكرونه، وهو قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة: ٧٢].

فإذا كان صاحب العلاقة الذي عظمتموه وعبدتموه من دون الله تعالى يقول لكم: اجعلوا العبادة والتذلل للذي يذل له كل شيء، و يخضع له كل حي، فهو مالكي ومالككم، وسيدي وسيدكم الذي خلقني وإياكم= فكيف أجزتم لأنفسكم أن تجعلوه ربًّا وتعبدوه من دون الله ؟

وقول المسيح عليه السلام هذا: **فيه إثبات العبودية التامة لنفسه، وإثبات الربوبية الكاملة لربه الشاملة لكل مخلوق**[1].

ب- ثم إنه عليه السلام لم يكتف بأمرهم بعبادة الله الواحد المتفرد بالعبادة والطاعة، بل بيَّن لهم حكمَ قولهم وعقوبتَه.

فبيَّن أن قولهم ذاك شرك، فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾[المائدة: ٧٢]، ثم بيَّن عقوبته: وهو تحريم دخولهم الجنة، وأن مرجعهم ومكانهم الذي سيأوون إليه هو نار جهنم. فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾[المائدة: ٧٢].

ت- ثم وصفهم بأنهم ظالمون، وذلك حينما تنكبوا عن الحق، وأشركوا برب الخلق.. وذلك بقوله:﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة: ٧٢]، وفيه إشارة إلى أنهم هم الذين تسببوا في هذه النهاية الوخيمة، والعاقبة الأليمة، والتي أدت إلى ظلم أنفسهم، واستحقاق

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢٣٩).

نزول العذاب بهم.

ث- ثم بيَّن أن هؤلاء الظالمين لن يجدوا من عذاب الله من ينقذهم، أو يدفع عنهم بعض ما نزل بهم، وذلك في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[المائدة: ٧٢].

- **وأما قولهم:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾[المائدة: ٧٣].

أ- فقد **كذبهم الله تعالى بتنزيه نفسه عما قالوه من الكفر، مع إثبات التوحيد،** فقال: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[المائدة: ٧٣]. أي: ما لكم معبود إلا معبود واحد، الذي ليس بوالد لشيء ولا مولود، بل هو خالق كل والد ومولود[1].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾[النساء: ١٧١] أي ليس الله «ثالث ثلاثة كما تقولون، لأن من كان له ولد فليس بإله، وكذلك من كان له صاحبة فغير جائز أن يكون إلهًا معبودًا، ولكن الله الذي له الألوهة والعبادة، إله واحد معبود، لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة، ولا شريك.

ثم نزه جل ثناؤه نفسه، وعظمها ورفعها عما قال فيه أعداؤه الكفرة به، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾[النساء: ١٧١] أي: علا الله وجل وعز وتعظم وتنزه عن أن يكون له ولد أو صاحبة ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[النساء: ١٧١]»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[النساء: ١٧١] إشارة لطيفة إلى أن «الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل

---

(١) انظر: جامع البيان (٨/ ٥٧٩).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٧٠٧).

على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟»[١]، وهو ما أشار إليه وقرره في قوله: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ١٠١].

ب- ثم نهاهم عن هذه الفرية، فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ ﴾[النساء: ١٧١].

أي: «انتهوا عن الشرك والتثليث، يكن الانتهاءُ عن ذلك خيرًا لكم؛ لأَنكم - به - تخرجون من العقيدة الناشئة عن الضلال والأوهام، إلى العقيدة المبنية على الحجة والبرهان، فتفوزون من الله بالرضوان»[٢].

ت- ثم هددهم، وبالعذاب توعدهم، إن لم يكفوا عن غيهم، ويتوبوا من ضلالهم، ليَحيقنَّ بهم شديد العذاب، في يوم لا ينفع فيه ندم ولا متاب. فقال: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[المائدة: ٧٣].

ث- ثم بيَّن لهم عظيم رحمته بهم، وأن باب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم، حتى لا يقنط من رحمة الله من أراد الرجوع، وحتى تقام الحجة على من ركب رأسه وكابر وآثر الذلة والخنوع= فقال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من كرمه تعالى، وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٩).

(٢) التفسير الوسيط (٢/ ٩٩٠).

تاب إليه تاب عليه»[١].

الثاني: بيان خصوصية خلق المسيح عليه السلام ودفع توهم الشبه التي حصلت لذلك.

فإن الله تعالى قد خلق عيسى عليه السلام بدون أب، فقال له: (كن) فكان بشرًا سويًّا، وقصة خلقه عليه السلام مشهورة، وفي الكتاب مسطورة، من وقت أن ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ مريم عليها السلام ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[مريم: ١٦]، إلى أن جاءت ﴿قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم: ٢٧] و ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[مريم: ٢٧]. إلى آخر الآيات.

والذي يعنينا هنا أمران:

الأول: شبهة أن المسيح خُلقَ بدون أب، فاستلزم ذلك عند النصارى أن يكون ابن الله.

وقد ردَّ الله تعالى هذه الشبهة بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩].

فكأنه يقول لهم: إن كنتم عبدتم عيسى عليه السلام لأنه خُلق بدون أب؛ وهو أمر عظيم بلا ريب= كان حريًّا بكم أن تعبدوا آدم عليه السلام، لأنه خُلق لأنه خُلِق على غير عادة البشر وليس هو بإله فكذلك عيسى عليه السلام.

فإن من حكمة الله سبحانه أن «خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبيِّن عموم قدرته؛ فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء: ١]، وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح؛ فإن حواء خلقت

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥٨).

من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا؛ وهو أصل خلق حواء»[١].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلهذا شبَّهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح، **فإذا كان سبحانه قادرًا أن يخلقه من تراب، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان؟** وهو سبحانه خلق آدم ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩] لما نفخ فيه من روحه، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه، وقال له: كن فيكون، ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتًا وناسوتًا»[٢].

الثاني: شبهة أن المسيح كلمة الله وروح منه، استلزم ذلك أن يكون هو الله.

فقد زعم كثير منهم أن القرآن ذكر ألوهية المسيح باعتباره كلمة الله وروحه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء: ١٧١].

والردُّ على هؤلاء يكون ببيان معنى كُلٍّ من الكلمة والروح في هذه الآية مع ما تقدم أيضًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾[النساء: ١٧١].

فهي الكلمة التي تكلم الله بها، فكان بها عيسى، وهي قوله: ﴿كُن﴾[آل عمران: ٥٩] ولم يكن عيسى عليه السلام هو تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم[٣] كما سيأتي معنا.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٥٤-٥٥).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٥٥).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢١٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: (كن)؛ فكان عيسى بـ(كن) وليس عيسى هو الـ(كن)، ولكن بالـ(كن) كان، فالـ(كن) من الله قول، وليس الـ(كن) مخلوقًا»(١).

ثم إنه لو كان عيسى عليه السلام هو ذات الله بناءًا على قولهم: هو الكلمة، لكان كل شيء خلقه الله تعالى بقوله (كن) هو ذات الله، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠] وهذا مستحيل عقلًا ونقلًا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء: ١٧١]. أي: روح من الأرواح التي خلقها، وكملها بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام، فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام، وأضافه الله إلى نفسه تشريفًا له(٢).

وما أضيف إلى الله أو جاء بلفظ: (منه).

فإنه على ثلاثة أوجه:

الأول: معانٍ تقوم بالأعيان والذوات لا تقوم بنفسها؛ فإن أضيفت إلى الله فإضافتها إضافة صفة إلى موصوفها، ككلام الله في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦] وعلم الله في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[النساء: ١٦٦].

الثاني: أعيان تقوم بنفسها؛ فإذا أضيفت إلى الله فإضافتها إضافة مخلوق إلى خالقه،

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤١٨).

(٢) انظر: النكت والعيون (١/ ٥٤٦)، وتفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٧)، وتيسر الكريم الرحمن (٢١٦).

ومملوك إلى مالكه؛ وأضيفت بيانًا لشرفها، كروح الله، وهو جبريل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[مريم: ١٧] وناقة الله في قوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾[الشمس: ١٣].

الثالث: معانٍ المراد بها ذوات تقوم بنفسها؛ فإن أضيفت إلى الله فإضافتها إضافة مخلوق إلى خالقه كذلك، كقوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء: ١٧١] فهو مخلوق بكلمة الله، وروح من الأرواح التي خلقها، وكقوله لجنته في الحديث القدسي[١]: (أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي)[٢].

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مخلوقة منه، صادرة من عنده، لأن (من) هنا لابتداء الغاية، وليست للتبعيض كما زعم أهل الباطل، وهي كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية: ١٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقوله في الآية والحديث[٣]: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء: ١٧١] كقوله:

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: وتقول هل من مزيد، رقم (٤٨٥٠)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، برقم (٢٨٤٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٠).

(٣) يشير إلى حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء). رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم... برقم (٣٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٢٨).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ﴾[الجاثية: ١٣].

أي: من خلقه ومن عنده، وليست (من) للتبعيض، كما تقوله النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هي لابتداء الغاية»[1].

الثالث: بيان أن عيسى عليه السلام رسول من الرسل، وواحد من البشر.

وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾[المائدة: ٧٥].

أ- فقد بيَّن الله تعالى أن غاية ومنتهى أمر المسيح عليه السلام، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

ب- وإذا تُوهِّم أن ما أتى به المسيح عليه السلام من الآيات ترفعه من كونه بشرًا إلى مقام الربوبية، فهذا قصور في العقل، وبلادة في الفهم، فما أتى به من الآيات هو كآيات الأنبياء السابقين أجراها الله على أيديهم لتأييدهم، وليست من صنعهم، وكل نبي له آية تناسب أمته، فإذا كان عيسى قد أحيا الموتى بإذن الله، فقد أَلقى موسى العصا فانقلبت من جماد إلى حية تسعى بإذن الله.

وهذا أبلغ من إحياءِ الموتى، لأن الحياة، هنا أجريت على جماد لم تسبق له حياة حيوانية، بخلاف إحياء ميت سبقت له الحياة.

على أن إحياء عيسى عليه السلام للموتى كان بقدر ما يتطلبه المقام، فلم يتجاوزها

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٧).

إلى إحياء كل ميت، كشأن الإله القادر. فكيف يكون إلها ؟![(١)].

ت- ثم بيَّن أن أمه مريم (صديقة) فليست إلهًا، ولا صاحبة للإله، كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾[الأنعام: ١٠١] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[الجن: ٣].

قال العلامة السعدي: «والصديقيَّة: هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح.

وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبية، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى بذلك فضلًا وشرفًا.

وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبية، لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾[يوسف: ١٠٩]، فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلأي شيء اتخذهما النصارى إلهين مع الله؟»[(٢)].

ث- ثم بيَّن الله أن عيسى وأمه عليهما السلام ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[المائدة: ٧٥] وفي هذا دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء منه، فإن الإله هو الغني الحميد[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وقد تضمنت هذه الحجة دليلين ببطلان إلهية المسيح وأمه:

---

(١) انظر: جامع البيان (٨/ ٥٨٢)، وتيسير الكريم الرحمن (٢٣٩)، والتفسير الوسيط (٢/ ١١٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٣٩).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢٣٩).

أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب، وضعف بنيتهما عن القيام بنفسهما، بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهًا، إذ من لوازم الإله أن يكون غنيًّا.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام، يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها.

ولهذا - والله أعلم - كنى سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدًا من هذا الجنس.

ولو كان يليق به ذلك أو يمكن، لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقذرة التي يستحي منها، ويرغب عن ذكرها.

فانظر ما تضمنه هذا الكلام الوجيز البليغ المشتمل على هذا المعنى العظيم الجليل الذي لا يجد سامعه مغمزًا له، ولا مطعنًا فيه ولا تشكيكًا، ولا سؤالًا يورده عليه بل يأخذ بقلبه وسمعه»[(١)].

الرابع: بيان عدم امتناع المسيح عليه السلام من عبادة الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[النساء: ١٧٢].

فإن الله تعالى بيَّن لهؤلاء الذين غلَوْا في نبيهم أن المسيح «لا يمتنع عن عبادة الله رغبة عنها، لا هو ولا الملائكة المقربون، فنزههم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار»[(١)].

ولذلك يقال للمعترضين من باب الردِّ عليهم: فإذا كان هذا حال نبيكم - الذي عبدتموه من دون الله - مع ربه ﷻ، فكيف أجزتم لأنفسكم عبادة المخلوق العابد، وتركتم عبادة الخالق المعبود؟، فلو كنتم تحبونه حقًّا - كما تدعون - لاتبعتموه في عبادة من يعبد، ولما خالفتموه وعبدتم مَنْ لا يَعبد.

فإن قيل ما وجه إيراد الملائكة المقربين مع عيسى عليه السلام في الذكر في هذه الآية؟

قيل: «إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله، كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عبيده، وخلق من خلقه، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٦]»[(٢)].

مسألة:

ويدخل تحت هذا المطلب شبهة من زعم أن النبي ﷺ يعلم الغيب المطلق، وذلك نتيجة الغلو به ﷺ، وهذا ما جعل صاحب البردة أن يقول: [البحر البسيط]

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم[(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٨٠).

(٣) البردة للبوصيري (٢٢) وقد أدرج هذا البيت تحت الفصل العاشر: (في المناجاة وعرض الحاجات)، فابتدأ فصله ذاك بما يقف له شعر الرأس لشناعته وقبحه؛ وهو الشرك بالله تعالى؛ =

وقد كثر هذا الشطط في كتب القوم وأقوالهم.

ورد القرآن الكريم هذه الشبهة وبين أن علم الغيب مما استأثر الله تعالى بعلمه، فقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل: ٦٥] وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[الأنعام: ٥٩].

وقد ثبت من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قولها: «... ومن حدثك أنه يعلم الغيب –أي النبي ﷺ – فقد كذب، وهو يقول: لا يعلم الغيب إلا الله)[(١)].

=

فقال:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم.

فلا غرابة إن ينسب علم اللوح والقلم إلى النبي ﷺ بعد ما قرر هذا المدعي أن المصائب إذا حلت بالعبد لا يستطيع أن يرفعها إلا النبي ﷺ!!، وفي هذا طعن بالذات الإلهية، وطعن بالنبي ﷺ كما لا يخفى على أصحاب الفطر السليمة.

وقد رد أهل السنة والجماعة على المخالفات التي وقعت فهذه القصيدة يرجع لها فإنها قيمة. ومن هذه الردود: ردّ الإمام الشوكاني ضِمن كتابه: «الدرّ النضيد»، وردود شرّاح كتاب التوحيد: كالشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»، والشيخ عبد الرحمن بن حسن في «فتح المجيد»... وغيرها، كما ألّف الشيخ عبد الله أبا بطين رسالة في الردّ عليها، وهي مطبوعة ضِمنَ كتاب «الشيخ العلاّمة عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين مفتي الديار النجدية» للدكتور علي بن محمد العجلان، وهذا الردّ في نحو (٧٠) صفحة. وكذلك ردّ العلاّمة محمود شكري الألوسي ضِمن كتابه: «غاية الأماني في الرد على النبهاني»، وأيضًا: «نقد البردة» للشيخ عبد البديع صقر، وغيرها.

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا)، برقم (٧٣٨٠).

وقال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾[الأعراف: ١٨٨].

أي: لو كنت أعلم الغيب لحصلت على كثير من الخير الذي ينفعني، وابتعدت عما يؤذيني ويضرني، وفي هذا برهان واضح على نفي علم الأنبياء بالغيب، إذ لو ثبت لهم ذلك لاستكثر ﷺ من الخير الذي ينفعه، وابتعد عما يؤذيه ويضره، وبخاصة في سبيل تبليغ الدعوة، وفي جهاد الكفار والمشركين[١].

المطلب الثاني: شبهة إنكار الرسالة بسبب كون الأنبياء من البشر، والرد عليها.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

أنكر أهلُ الباطل - أعداءُ الرسل - أن يكون الله بعث إليهم رسولًا، وشبهتهم في ذلك كون الرسل من البشر، فلا فضيلة لهم في خلق ولا رزق ولا مكانة، فأنكروا أن يكون الرسول بشرًا.

وقد بيَّن الله شبهتهم تلك، وبيَّن أنها سبب مانع في إيمانهم بالرسل عليهم السلام، قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك عادة الأمم؛ أن تعجب من بعث الرسل، ويقولون: لا يمكن أن يبعث الله رسولًا؛ يأكل ويشرب ويتزوج ويُولدَ له، حتى إن الله جل وعلا بيَّن أن هذه الشبهة الكاذبة كانت هي المانع الأكبر من إيمان الناس، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٤]»[٢].

(١) انظر: التفسير الوسيط (٣/ ١٥٥٩).

(٢) العذب النمير (٣/ ٤٨٣).

فجعلوا بعثة البشر من المحال، وقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤] وقالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] وقالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] والآيات في هذا الباب كثيرة جدًّا.

ثم تمادى بهم الحال فزعموا أمرين:

أحدهما: أنَّ الله تعالى لو أراد أن يرسل رسولًا فإنه يختاره من الملائكة، قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤].

الثاني: أنَّ الله تعالى لو أرسل رسولًا من البشر، فإنه يرسله من عظماء قومه في المال والجاه؛ قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

لذلك جعلوا اختلاط الأنبياء بالناس، ومشيهم في الأسواق مطعنًا بهم؛ إذ ليس ذلك من عادة العظماء والملوك، والقادة والأمراء، ولذا قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

فيتلخص مما تقدم: أن شبهتهم قائمة على نفي قَبول الرسالة من الرسل لأنهم بشر، وأنهم لو أرادوا قَبولها فينبغي أن تكون من مَلَك أو مَلِك.

فردَّ القرآن الكريم على هذه الشبهة وبيَّن فسادها، وهو ما توضحه المسألة التالية.

المسألة الثانية: الرد على هذه الشبهة.

ردَّ القرآن الكريم على هذه الشبهة من طريقين:

الأول: الرد الإجمالي؛ وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وليس لأحد أن يعترض على الله

تبارك وتعالى، فهو الخالق المالك المتصرف في ملكه وخلقه ما يشاء؛ قال الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤].

أي: هو أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه، وليس لأحد أن يعترض عليه في هذا أو في غيره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقَبولها، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها، وأن يضعها عند غير أهلها»(١).

الثاني: أن من حكمة الله العظيمة أن يجعل رسله إلى خلقه بما يماثل أجناسهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾[المؤمنون: ٣٢].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد عن اشمئزازهم»(٢).

وقد دعا إبراهيم عليه السلام لأهل مكة بأن يبعث الله رسولًا منهم، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾[البقرة: ١٢٩]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: من جنسهم وعلى لغتهم»(٣).

ولذلك كان من حكمة الله تعالى في بعث الرسل من جنس أقوامهم أمور، أهمها:

أ- **أن في ذلك رحمةً بهم وإحسانًا إليهم**، وذلك أن الله يبعثُ إليهم رسولًا من أنفسهم يبلغهم دين ربهم، ويبيِّن لهم حقيقة ما ينفعهم وما يضرهم؛ في دنياهم وآخرتهم.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٩٥-١٩٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٥١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٤١).

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلًا منهم، ليدعو بعضهم بعضًا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال»[١].

ب- أن في ذلك إيناسًا لهم، وهو أسرعُ لانقيادهم، وأبعدُ عن اشمئزازهم.

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «فكون الرسل إلى بني آدم من جنسهم ومن نوعهم، يسهل عليهم الأخذ منهم، وتسهل عليهم معاشرتهم وصحبتهم، والاهتداء بهديهم= هو من نعم الله تعالى عليهم»[٢].

الثاني: الردُّ التفصيلي:

أول ما وردت هذه الشبهة على لسان قوم نوح عليه السلام، ثم رددتها الأمم من بعدهم، وآخرهم ملة الشرك التي كانت في عهد النبي ﷺ، وقد رد القرآن الكريم على هذه الشبهة وفنَّدها تفنيدًا:

١- فأما رده على قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[إبراهيم: ١٠] فقد بيَّن أن الرسالة اصطفاء ومنَّة من الله يهبها لمن يشاء.

فلما قال أهل الباطل للرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[إبراهيم: ١٠] قالت لهم الرسل عليهم السلام: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[إبراهيم: ١١] كما قلتم، ولكن ليس في ذلك ما

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤١).

(٢) العذب النمير (٣/ ١٩٤).

يدفع ما جئنا به من الحق، فإن الرسالة منة من الله يهبها لمن يشاءُ من عباده، فيصطفيهم لها، ويختصهم بها؛ بمحض فضله وامتنانه، لا بحسب ولا نسب، ولا بجاه ولا كثرة نشب[١].

فإذا منَّ الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك من فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله، ويمنعه من تفضله.

ولو كان عندكم شيء من الإنصاف، أو مُسكَة عقل عند الخلاف، لنظرتم إلى ما جئناكم به فإن كان حقًّا قبلتموه، وإن كان غير ذلك رددتموه، وما جعلتم كوننا بشرًا مثلكم حجة لكم على رد ما جئناكم به[٢].

٢- وأما الردُّ على قولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[المؤمنون: ٢٤]. **فإنه رد عليهم من وجهين:**

أحدهما: أنه كما أرسل لهم رسلًا من جنسهم، فإنه لو كان في الأرض بدلًا منهم ملائكة لأرسل لهم رسلًا من جنسهم أيضًا.

قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٥].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة، ومن خصه الله من بني آدم برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها، فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم وهم بهيئاتهم التي خلقهم الله بها؟، وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، ثم أرسلنا إليهم

---

(١) النشب: المال.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد (٤٢٢)، والتفسير الوسيط (٥/ ٤٧١).

رسولًا أرسلناه منهم؛ ملكًا مثلهم»[(١)].

والحكمة في ذلك أمور منها:

١- أن الجنس إلى الجنس أميل كما تقدم معنا آنفًا.

٢- أن البشر لا يطيقون رؤية الملك على هيئته الأصلية، فقد نقل القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قوله: «لو رأوا الملك على صورته لماتوا، إذ لا يطيقون رؤيته»[(٢)].

وهذا من رحمة الله تعالى ولطفه بهم، ولو أراد الله تعالى أن يرسل إليهم ملكًا لأرسله بصورة رجل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾[الأنعام: ٩] لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة بهيئاتهم الأصلية، ولذلك كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وكذلك جاء الملكان إلى داود في صورة رجلين، وكذلك أضياف إبراهيم و لوط عليهما السلام، وجبريل عليه السلام تمثل لمريم بشرًا سويًّا.

٣- أن طاعة الملائكة قويَّة فقد يستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي.

٤- «أن النبوة فضل من الله؛ فيختص بها من يشاء من عباده، سواء كان ملكًا أو بشرًا»[(٣)].

٥- أنه لو جعل الملك في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار كون الرسول بشرًا، وحينئذ لا

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٩١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٩٣).

(٣) المصدر السابق (١٢/ ٤٨٧).

يجدي ذلك، ما دام الأمر يقتضي ظهوره في صورة بشر، وسيظلون في طلبهم إنزال الملك؛ لا ينفكون عنه، وقد كانوا في غنًى عن كل هذا[١].

الثاني: أنه لو أنزل ملكًا لأدى ذلك إلى هلاكهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[الأنعام: ٨] وفي الآية وجوه:

أ- فإن إنزال الملك على البشر آية باهرة، فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء الكفار فربما لم يؤمنوا، وإذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال، فهذه سنة الله الجارية، فمن رحمة الله بهم أنه لم ينزل الملك إليهم، لئلا يستحقوا هذا العذاب[٢].

ب- أنه - كما تقدم - لا طاقة لهم برؤية الملك، فإذا ما شاهدوه زهقت أرواحهم لعدم قدرتهم على معاينة الملائكة بصورهم الحقيقية[٣].

ولذلك لما رأى النبي ﷺ جبريل بصورته الأصلية، غشي عليه[٤]، وهو من هو في القوة والمنزلة الرفيعة عند الله تعالى.

٣- **وأما الردُّ على قولهم**: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣١٢).

(٢) انظر: جامع البيان (٩/ ١٦٠).

(٣) انظر: التنوير والتحرير (٧/ ٢١٠).

(٤) كما في حديث مسلم وغيره، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رسول الله ﷺ: (جاورت بحراء شهرًا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أر أحدًا، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدًا، ثم نوديت فرفعت رأسي، فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل عليه السلام - فأخذتني رجفة شديدة...) الحديث. وفي رواية: (فجئثت منه فرقًا حتى هويت إلى الأرض). رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، برقم (١٦١).

٣١]. وقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾[الفرقان: ٧].

فإن منشأ شبهتهم هذه هو: قياسُهمُ الرسل عليهم السلام على العظماء من أقوامهم؛ وما يُعرفون به من الصفات الرقيعة، والأخلاق الوضيعة؛ من الترفع والكبر على الناس، وعدم الاختلاط بهم أو معاشرتهم؛ فجعلوا ذلك قادحًا فيهم، ومجلبة لعدم الأخذ منهم.

فكان الردُّ عليهم:

أن الخلق كله خلق الله، وهو سبحانه يتصرف في خلقه كما يريد، بلا ممانع ولا مدافع، وله في ذلك الحكم العظيمة والحجج البليغة.

أ- ولذلك ردَّ على قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف: ٣١]. بقوله: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢] **فأتى بالهمزة للإنكار الدال على التجهيل والتعجب من إعراضهم وتحكمهم**، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة، ثم أعقب ذلك بمثال فقال: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾[الزخرف: ٣٢].

أي: نحن قسمنا بين الناس معيشتهم، وأوقعنا هذا التفاوت بينهم، في القوة والضعف، والعلم والجهل، والحذاقة والبلاهة، والشهرة والخمول، وسخرنا بعضهم لبعض في أشغالهم، على حساب دواعي حاجة الحياة، ورفعنا بذلك بعضهم فوق بعض، وجعلنا بعضهم محتاجًا إلى بعض ومسخرًا به، فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير المعيشة الدنيا، فكذلك الحال في إقامة بعضهم دون بعض للتبليغ، فإن ذلك أعظم شؤون البشر(١).

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٥/ ٢٠١).

وكذلك إن عجزوا عن الإعراض عن حكمه في أحوال الدنيا - مع قلتها ودناءتها - فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمه وقضائه في تخصيص العباد بمنصب النبوة والرسالة؟!.

ب- وردَّ على قولهم في حقِّ النبي ﷺ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾الفرقان: ٧ بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان: ٢٠].

فجميع الرسل كانوا متصفين بصفات البشر، ولم يكن المشركون منكرين وجود رسل قبل محمد ﷺ، بدليل أنهم قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وإذا كانوا موجودين فبالضرورة كانوا يأكلون الطعام، إذ هم من البشر، ويمشون في أسواق المدن والبادية، لأن الدعوة تكون في مجامع الناس، إذن فلماذا جعلوا ذلك منقصة في حق النبي ﷺ، ولم يكن الرسول ﷺ بدعًا من الرسل، ولم يخرج عن كونه بشرًا؟[1].

ولعله لو احتجب عنهم، وترفع عن مخالطتهم كما يريدون، لجعلوا ذلك منقصة به أيضًا، ولقالوا: لو كان هذا المدعي للنبوة مرسلًا من ربه لخالط الناس، ولم يحتجب عنهم أو يتكبر عليهم!!.

فالقضية إذن ليست كون الرسل بشرًا، أو ما شابه ذلك، بل هي الأهواء المضلة، والأدواء المذلة؛ التي أدت بهم إلى تلكم الاعتقادات والباطلة.

المطلب الثالث: شبهة: كون أقوام الرسل يُبتلون من الله تعالى، فإنهم يتشاءم بهم، وأنهم مصدر للرزايا والبلايا.

وفيه مسألتان:

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٤٣)، بتصرف يسير.

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

اعتقد أعداء الرسل - عليهم السلام - أن كل ما يصيبهم من المصائب والابتلاءات إنما هي بشؤم من الرسل وأتباعهم، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في آيات عديدة منها:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[النمل: ٤٧] وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[الأعراف: ١٣١]وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[يس: ١٨] وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

والطيرة: هي التشاؤم بالشيء، «وأصله تطيُّرٌ، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها، ونعيق غرابها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيرًا وطائرًا وطيرة، لتشاؤمهم بها»[(١)].

المسألة الثانية: الرد على الشبهة.

وذلك من ثلاث وجوه:

أحدها: أن ما يصيبهم من الخير والشر هو من عند الله، مكتوب عليهم، ومقدر لهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النساء: ٧٨].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ [النساء: ٧٨] أي: من الحسنة والسيئة، والخير والشر. ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النساء: ٧٨] أي: بقضائه وقدره وخلقه»[(٢)].

---

(١) تاج العروس (١٢/ ٤٥٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٨٨).

الثاني: أن الله تعالى بيَّن أن شؤمهم جاء من قبل كفرهم ومعاصيهم، لا من قبل الرسل عليهم الصلاة والسلام(١).

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾[يس: ١٩].

أي: فقالت لهم رسلهم: إن هذا بسبب ما معكم من الشرك والشر، المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة.

ثم إننا بسبب أنْ ذكرناكم بما فيه صلاح دينكم ودنياكم قلتم لنا ما قلتم؟!، بل أنتم قوم متجاوزون للحد، متمادون في قولكم وفعلكم، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم، فقد جنيتم عليها(٢).

الثالث: أن الله بين لهم أنهم لو اتبعوا المرسلين لوسع عليهم من عظيم فضله وواسع عطائه.

قال تعالى ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[الأعراف: ٩٦].

وقال: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ ﴾[المائدة: ٦٦].

أي: «يسَّرْنا لهم سبل الخيرات الكثيرة، والأَرزاق الوفيرة، ووسعناها عليهم من كل باب، فأنزلنا عليهم من السماء ماء مباركًا، فأنبت الزرع، وأَدرَّ الضرع، وأَخرجنا لهم الكثير من كنوز الأَرض، وذللنا لهم ما على ظهرها من الدواب والأنعام ﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ

---

(١) انظر: أضواء البيان (٨/ ٧٤).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٦٩٣).

﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾[يس: ٧٢]»[١].

والخلاصة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام خلق من خلق الله تعالى، اختصهم واصطفاهم ليكونوا رحمة للناس وذلك بإرشادهم للحقِّ وإحسانهم للخلق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الثُّبُور إلى الحُبُور[٢]، فلا يُرفعون عن المنزلة التي أعطاهم الله إياها، ولا يُنزلون عنها.

وهذا هو المنهج الحق المجانب للإفراط والتفريط؛ فلا يُعبَدون من دون الله كما هو حال النصارى وبعض اليهود، ولا يُساء إليهم ولا يُؤذون بقول أو فعل، كما هو الحال في اليهود وأهل الرفض أخزاهم الله.

(١) التفسير الوسيط (٣/ ١٤٧٧).

(٢) أي من الهلاك إلى السعادة.

المبحث الرابع

الرد على الشبه المتعلقة بالكتب

أنزل الله تبارك وتعالى الكتب هدايةً للأنام، ونورًا يبدد لهم حلكة الظلام، ظلام الجهل الحالك، الذي يورد صاحبه المهالك.

وقد وصف الله تعالى كتبه بأنها هدًى ونور، فقال عن التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ ﴾[المائدة: ٤٤] وقال عن الإنجيل: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ ﴾[المائدة: ٤٦]، وقال عن القرآن الكريم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٢].

فهذه الكتب المنزلة من عند الله تبارك وتعالى، تحمل بين دفاتها الهدى والنور، فلو أن أهل هذه الكتب أقاموها على وجهها، وأخذوا عنها ما يصلح دينهم وطريقتهم، واستقاموا على أمرها ونهيها= لاستقام لهم طريقهم في الحياة، ولملأ الله قلوبهم غنًى ورضى، ولَوجدوا بها من حلاوة الإيمان ما يكونون به أسعد الناس وأهنأهم.

ولكن كثيرًا منهم كفروا بآيات الله، واتبعوا أهواءهم، وجَرَوْا على ما تمليه عليهم أنفسهم من الشر والضر ما لا يعلمه إلا الله، وافتروا الكذب والبهتان، واختلقوا الشبهات على كتب الرحمن، فأنكر الله إجرامهم وتوعدهم عليه، وذبَّ باطلهم عن كتبه، وما يدعون إليه.

وأكثر هذه الشبه التي ردها الله ﷻ هي شبه المشركين حول القرآن الكريم؛ وتوضيح هذا – بحول الله تعالى – في المطالب التالية:

المطلب الأول: **شبهة أن القرآن الكريم من تعليم البشر، وليس من كلام الله**.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

فقد زعم أهل الباطل من المشركين أن النبي ﷺ قد تعلم هذا القرآن الكريم من البشر، ومن كتب أهل الكتاب، وأعانه على جمعه وكتابته قوم آخرون!.

ومن أقوالهم في ذلك ما ذكره القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٥].

«فالشبهة...قولهم: يا محمد؛ إن هذا القرآن الذي جئتنا به كلام تستفيده من مدارسة العلماء، ومباحثة الفضلاء، وتنظمه من عند نفسك، ثم تقرأه علينا، وتزعم أنه وحي نزل عليك من الله تعالى ؟!»[١].

٢- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾[النحل: ١٠٣].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا خبر من الله ينبئ عنهم أنهم كانوا يقولون: إنما يتعلم محمد ما يأتيكم به من غيره»[٢].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ ﴾[الأنعام: ١٠٥]الآية= يعني ليزعموا أن النبي ﷺ إنما تعلم هذا القرآن بالدرس والتعليم من غيره من أهل الكتاب، كما زعم كفار مكة أنه ﷺ تعلم هذا القرآن من جبر ويسار، وكانا غلامين نصرانيين بمكة»[٣].

(١) مفاتيح الغيب (١٣/ ١٠٥).

(٢)جامع البيان (٩/ ٤٧٢).

(٣)أضواء البيان (٧/ ٤٢)، وانظر: جامع البيان (١٤/ ٣٦٧)،

٣- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٤ – ٥].

فقد جمعت هاتان الآيتان بعضًا من افتراءات المشركين بحق كتاب الله ﷻ؛ فلم يكتف هؤلاء الكافرون بقولهم: إن هذا القرآن من الأكاذيب والأباطيل، بل زعموا أن البشر قد أعانوا النبي ﷺ على جمعها وكتابتها له، فهي بعد تحريرها تملى عليه أول النهار وآخره، في وقت يكون الناس في بيوتهم، ولا يرونه وهي تملى عليه!![(١)].

المسألة الثانية: الرد على هذه الشبهة.

ردَّ القرآن الكريم على هذه الشبهة من وجوه:

١- **بيان أنهم جاءوا بظلم عظيم، وكذب محض**، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ [الفرقان: ٤].

ووجه ذلك: أنهم أشد الناس معرفة بحال الرسول ﷺ، وكمال صدقه وبره التام وأمانته، وأيضًا هو لا يمكنه ﷺ لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجل الكلام وأعلاه، ومن هنا كان هذا القول ظلمًا وزورًا [(٢)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الكلام [أي كلام المشركين] لسخافته وكذبه وبهته منهم، كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه وبره،

---

(١)انظر: جامع البيان (١٧/ ٤٠٠)، وتفسير القرآن الكريم (٦/ ٩٤)، والتفسير الوسيط (٦/ ١٤٨٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٧٨).

وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور، وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره - إلى أن بعث - إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره»(١).

٢- بيان أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، فيستحيل عقلًا أن يتقول عليه النبي ﷺ هذا القرآن وهو ينصره ويؤيده.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الفرقان: ٦].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ووجه إقامة الحجة عليهم: أن الذي أنزله، هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويتقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله وما هو من عنده، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه، ويمكنه من رقابهم وبلادهم، فلا يمكن أحدًا أن ينكر هذا القرآن إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم سوى الفلاسفة الدهرية(٢)»(٣).

٣- بيان حماقتهم وسخافة عقولهم.

قال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، «واللسان: الكلام، سمي الكلام باسم آلته»(٤) أي: كلام هذا الذي يزعمون

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٩٤).

(٢) الفلاسفة الدهرية: هم الذين ينكرون الربوبية، ويقولون بقدم العالم، ويعدون الأمر والنهي والرسالة من الله تعالى مستحيلًا في العقول، وينكرون الثواب والعقاب، وينسبون النفع والضرر إلى الدهر. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ٢٤٤ - ٢٤٥)، والبرهان للسكسكي ص(٨٨)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ١٥٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٩٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٦).

أنه يعلم النبي ﷺ أعجمي، وهذا القرآن عربي غاية في البلاغة والفصاحة.

ووجه الرد: كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟!؛ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل»(١).

ثم بيَّن الله تعالى أن قولهم محض افتراء وكذب، وذلك في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[النحل: ١٠٥].

وفي رده هنا نكتة بديعة، وهي: أنه قلب ما زعموه من القول عليهم، فلما قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾[النحل: ١٠١] رد عليهم بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[النحل: ١٠٥] فرد عليهم من جنس افترائهم(٢).

٤- بيان أنه لا قدرة لأحد أن يأتي بمثل هذا القرآن.

فقد تحدى الله العرب- وهم أرباب اليراعة والبلاغة، وأصحاب البراعة في الفصاحة - بعدما قالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾[الأنفال: ٣١] = أن يأتوا بمثله كله فقال: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[الطور: ٣٤]، فعجزوا وما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فبيَّن لهم أن عامة الخلائق لو تعاونوا واجتمعوا لا يقدرون على الإتيان بمثله، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨].

أي: لو اتفقت كلمة الإنس والجن، وتضافرت هممهم، وأقبلوا بخيلهم ورجلهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٦).

وبكل ما يملكون من رجاحة عقلهم، وقوة فهمهم، على تحقيق رغبتهم في الإتيان بمثله في سمو أسلوبه، ودقة تنسيقه، ورقي ألفاظه، وكمال معناه، وعظمة مبناه، وقوة تشريعه، وغير ذلك = لعجزوا عن الإتيان بمثله، إذ «كيف يقدر المخلوق الذي هو من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟

أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من كل الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم»(١).

ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله، فقال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[هود: ١٣].

ثم تحداهم بسورة من هذا القرآن العظيم، فقال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾[البقرة: ٢٣] وقال: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

أي: اطلبوا من يعينكم على الإتيان بسورة مثله بشرًا كان أَو آلهة، وهذا محال، إذ لو كان ممكنا لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله.

وقد عجزوا عن ذلك في جميع ما طلبه منهم، فبان صدق نبيه ﷺ، وافتُضِح أمرهم وتبيَّن عجزهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٥).

بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور: ٣٤]، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا عن ذا وذاك، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا؛ فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله»[١].

المطلب الثاني: شبهة: كون القرآن نزل على النبي ﷺ مفرقًا ولم ينزل دفعة واحدة.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

زعم المشركون أن القرآن لكونه نزل مفرقًا ولم ينزل دفعة واحدة - كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود عليهم السلام جميعًا - فإنه دليلٌ على أنه ليس من عند الله، وقد بين الله تعالى شبهتهم تلك بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢].

المسألة الثانية: الرد على الشبهة.

بيَّن الله تعالى لهؤلاء الناكبين عن الحق[٢]، أنه أنزل القرآن مفرقًا لعظيم حكمته في ذلك تبارك وتعالى، لا أنه ليس كلامه، أو الذي أُنزِل عليه ليس نبيه.

فقال تعالى بعد أن قالوا قولتهم تلك: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٩٧).

(٢) نكب عن الحق: أي عدل عنه، وتنحاه؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٤] «أي: لعادلون جائرون منحرفون». تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٨٦).

[الفرقان: ٣٢] «فهو استئناف لردّ مقالتهم الباطلة، وبيان الحكمة في تنزيله التدريجي»(١)، أي كذلك فعلنا وأنزلناه منجمًا(٢) لنشجع به قلبك، لأنه معجز يدل على صدقك، ولنثبته في فؤادك فلا يتفلت منه(٣).

وفي كونه نزل مفرقًا عِلَلٌ وحكم عظيمة ذكرها أهل العلم؛ فمنها ما يتعلق بالنبي ﷺ، ومنها ما يتعلق بالمسلمين.

فأما ما يتعلق بالنبي ﷺ فمن وجوه:

١- أنه أنزله على النبي ﷺ مفرقًا «لأنه كان أميًّا، ولم ينزل القرآن عليه مكتوبًا، فكان نزوله مفرقًا أثبت في فؤاده، وأعلق بقلبه»(٤).

٢- أن فيه إيناسًا للنبي ﷺ؛ فإنه باتصال الوحي ومداومة نزول القرآن، فلا يصير ﷺ بانقطاع الوحي مستوحشًا(٥).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينة وثباتًا وخصوصًا عند ورود أسباب القلق؛ فإن نزول القرآن عند حدوث السبب يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلًا قبل ذلك، ثم تذكره عند حلول سببه»(٦).

٣- أنه بنزول جبريل عليه السلام على النبي ﷺ ليبلغه كلام ربه حالًا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته، ويكون أقوى على أداء ما حمل، وعلى الصبر على عوارض النبوة، وعلى

(١) التفسير الوسيط (٧/ ١٥١١).

(٢) أي: مفرقًا.

(٣) انظر: جامع البيان (١٧/ ٤٤٥)، والنكت والعيون (٤/ ١٤٣).

(٤) النكت والعيون (٤/ ١٤٤).

(٥) المصدر السابق (٤/ ١٤٤).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥٨٢).

احتماله أذية قومه، وعلى الجهاد في سبيل الله تعالى.

٤- أن إنزاله منجَّمًا من أعلام النبوة، وذلك لأنهم لا يسألونه عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتًا لفؤاده وأفئدتهم [(١)].

وأما ما يتعلق بالمسلمين، فمن وجوه:

١- أنه أنزله مفرقًا ليقرأه النبي ﷺ على الناس على مهل وتؤدة وتثبت، فهو أدعى لحفظه وفهمه، والتمسك بما جاء به[(٢)]. قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[الإسراء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان: ٣٢].

٢- أنه «لو نزل القرآن جملة واحدة، لسبق حدوث الأسباب التي أنزله الله ﷻ بها، ولثقلت جملة الفرائض على المسلمين، وعلى من أراد الدخول في الدين، ولفسد معنى النسخ، فإنما نزل فَرضًا بعد فرض، تدريجيًّا للعباد، وتيسيرًا عليهم إلى أن يكمل دين الله ﷻ... وتثبيتًا لهم على الإسلام... إذ لو نزلت الفرائض مرة واحدة، لكان ذلك داعية إلى النفار، والصعوبة عليهم»[(٣)].

والخلاصة: أن نزول القرآن منجمًا أيسر للعمل به، وأثبت لقلب النبي ﷺ، وأمتن لحفظه وفهمه، كما أن فيه مطابقة لمقتضى حال المؤمنين ومناسبة لمقام التشريع.

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (٤/ ٨٥).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ١٨٨).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٤٦١).

المطلب الثالث: شبهة أن القرآن من أساطير الأولين.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

زعم المشركون أن القرآن الكريم إنما هو أساطير من أساطير الأولين، والأساطير: جمع أسطورة، وهي: الأباطيل والأكاذيب(١).

قال الراغب: «أساطير الأولين: أي شيء كتبوه كذبًا ومينًا فيما زعموا»(٢).

وقد بيَّن الله تعالى مقالتهم هذه في القرآن الكريم في مواطن كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنفال: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[القلم: ١٥].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[النحل: ٢٤]، وغيرها من الآيات.

المسألة الثانية: الرد على الشبهة.

رد الله تعالى عليهم بأن هددهم بالنكال، وتوعدهم بالخبال(٣) جزاء مقالتهم الكافرة، وشبهتهم الفاجرة، وذلك في الدنيا والآخرة.

فأما في الدنيا:

---

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ٣٦٤).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (١/ ٤٧٦).

(٣) الهلاك.

فقد بيَّن لهم أن سبب عدم إيمانهم بكتاب الله هو الذنوب التي أدت إلى الختم على قلوبهم، فقال: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين: ١٤]. «والرين، والران: هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له»(١).

فليس الأَمر كما زعمتم أَن القرآن أباطيل وأَكاذيب الأَولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله محمد ﷺ، وإنما حَجَبَت قلوبكم عن الإِيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبسها وغطاها من كثرة الذنوب والخطايا(٢).

وقد فسر النبي ﷺ حال هؤلاء بقوله: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة، نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين: ١٤])(٣).

وأما في الآخرة:

١- فقد بيَّن أنهم سيحملون وزر هذا القول، وأوزار من قالوه بسببهم.

قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾[النحل: ٢٥].

أي: ستكون عاقبتهم أن يحملوا آثامهم كلها، ومنها الذي اقترفوه في التنفير من الحق، ويحملوا أيضًا بعض آثام من أضلوهم وأبعدوهم عن الإِسلام بما افتروه على

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣٠).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥٠).

(٣) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة المطففين، برقم (٣٣٣٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في التعليق الرغيب (٢/ ٢٦٨).

القرآن الكريم[١].

٢- بيان حالهم الذي سيصارون إليه جزاء ما قالوا،؛ وذلك أن تعلو جباههم الذلة والملامة، والكآبة والندامة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. فلن ينفعهم البكاء كثيرًا ولا قليلًا، ولن يجدوا في النار محيصًا أو بديلًا.

٣- حرمانهم من رؤية ربهم سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. وذلك من قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين: ١٥].

فلو لم يكن احتجابه سبحانه عن العبد أشد أنواع العذاب عليه لما توعد به أعداءه[٢].

ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذي يُعذب به أعداؤه، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التي ينعم بها أولياؤه، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو منه وقربه»[٣].

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه ويفرحون بقربه»[٤].

(١) انظر: التفسير الوسيط (٥/ ٦٠٤).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ١١٦٩).

(٣) طريق الهجرتين (١/ ١٢٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٩١٥).

ولذلك قال النبي ﷺ: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ)[١].

فاللهم حرم وجوهنا عن النار، ولا تحرمنا من رؤية وجهك الكريم، برحمتك يا أرحم الراحمين.

٤- **دخولهم النار وملازمتها، والاحتراق بها، وعدم الخروج منها**[٢].

وذلك بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾[المطففين: ١٦]، فاجتمع عليهم عذابان:

الأول: تقدم؛ وهو عذاب احتجاب الملك الوهاب عنهم.

الثاني: عذاب الجحيم، وما يلاقونه من النكال والعذاب.

٥- **توبيخهم وتقريعهم على هذا الإفك الذي قالوه**. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[المطففين: ١٧]. «أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير»[٣].

فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الحجاب، وعذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ والتقريع.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، برقم (١٨١).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٦٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥١).

المطلب الرابع: شبهة أن القرآن سحر و كهانة.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

زعم المشركون أن القرآن الكريم الذي نزل على النبي ﷺ هو من قبيل السحر والكهانة!!.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الأحقاف: ٧].

أي: ولما جاءهم النبي ﷺ بالقرآن قالوا هذا سحر ظاهر لا شك فيه، وكل ذلك من باب قلب الحقائق، وترويجها على الحمقى والمغفلين، وضعفاء العقول، ومرضى النفوس.

المسألة الثانية: الرد على الشبهة.

أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجوه:

أحدها: الحكم على القائلين بالكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الأحقاف: ٧]. فكان قولهم ذلك سببًا من أسباب تكفيرهم.

ومن لطائف الإشارات هنا: أنهم قد كفروا بالقرآن؛ كما في قولهم: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠] فقلب الله تعالى عليهم قولهم وجعل الكفر نازلًا بهم؛ لما قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[الأحقاف: ٧]. وهذا وجه عظيم من وجوه الرد لمن تأمله، فهو قلب الحكم الصادر عنهم بمثله. فتأمله!!.

الثاني: نفي التهمة التي رمَوْا بها النبيَّ ﷺ بأنه يقول سحرًا وكهانة، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١ – ٤٣].

فقد نزه الله تعالى نبيه ﷺ عما اتهمه به المبطلون، فليس النبي ﷺ شاعرًا ولا كاهنًا ولا ساحرًا، وليس الذي يقوله من هذا القبيل، بل هو نبي كريم عظيم أرسله الله تعالى رحمة بهم، والقرآن الذي يقوله هو كلام ربه، منزل عليه لهدايتهم، بدليل قوله سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣].

فما أتعس القوم الذين قابلوا الإحسان صدًّا ونكرانًا، والجود والمنَّ عصيانًا وكفرانًا!.

الثالث: بيان أنه لا مستند لهم في هذا الهراء والافتراء؛ لا عقلَ صحيحًا، ولا نقلَ صريحًا، فهي دعوى جدعاء بلا دليل.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾[سبأ: ٤٤]. أي: «أي: لم يقرؤوا في كتاب أوتوه بطلان ما جئت به، ولا سمعوه من رسول بعث إليهم، كما قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾[الزخرف: ٢١] فليس لتكذيبهم وجه يتشبث به، ولا شبهة متعلق»(١).

فمن المعلوم أن الآيات البينات لا تُعارَض إلا بالبراهين العقلية، أو بالنصوص النقلية الصحيحة، وهؤلاء لم يأتوا بالأول، وليس عندهم كتاب ولا رسول يأخذوا منه في الثاني، فتبين أن كلامهم دعوى ساقطة ليس لها دليل.

والدَّعاوى ما لم يُقيموا عليها ... بيناتٍ أصحابُها أدعياءُ

الرابع: توعده لهم، وتخويفه إياهم، بأن يفعل بهم كما فعل بالأمم التي قبلهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣١٠).

قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[سبأ: ٤٥].

أي: فقد كذب قبل هؤلاء المشركين أقوام كانوا أشد منهم بطشًا، وأكثر أموالًا وأولادًا، وأوسع عيشًا، فأهلكهم الله تعالى - كمثل ما حل بثمود وعاد -، وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما أعطى الله المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر، ثم أخذهم وما نفعتهم قوتهم شيئًا.

فكيف سيكون حال هؤلاء وهم أضعف من أولئك؟!، فاحذروا أيها المكذبون أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم[(١)].

الخامس: دعوته إياهم للحق الصريح، والمنهج الصحيح، عن طريق التدبر والتفكر.

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾[سبأ: ٤٦].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصدين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: إنما أعظكم بخصلة واحدة أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريقٌ نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: أن تنهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله، مثنى وفرادى، استعملتم فكركم، وأجلْتموه، وتدبرتم أحوال

---

(١) انظر: جامع البيان (١٩/ ٣٠٢)، والجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣١٠)، وتفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٥)، وتيسير الكريم الرحمن (٦٨٢).

رسولكم، هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟.

فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها، لتبيَّن لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ، ليس بمجنون، لأن هيئاته ليست كهيئات المجانين، في خُنقِهم[1]، واختلاجهم[2]، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق، أدبًا، وسكينة، وتواضعًا، ووقارًا، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلًا.

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب، أمنًا وإيمانًا، وتزكي النفوس وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وترهب عن مساوئ الأخلاق ورذائلها؛ إذا تكلم رمقته العيون، هيبة وإجلالًا وتعظيمًا، فهل هذا يشبه هذيان المجانين، وعربدتهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟!»[3].

وبهذا يتبيَّن أن هذه الشبه وغيرها مما احتج به المخالفون لثني الناس عن كتاب الله تعالى إنما هي من الحجج المتهافتة والشبه المتخافتة التي لا تقوى أمام الأدلة الدامغة والحجج القاطعة للقرآن الكريم.

---

(١) الخُنَّاق: داء يصيب الإنسان وغيرَه، قال ابن منظور في اللسان (١٠/ ٩٢): «والخُناقُ والخُناقيَّةُ: داء أَو ريح يأْخذ الناس والدوابّ في الحُلوق».. ولعله أراد: من علامات المرض التي تظهر على المجنون. والله أعلم

(٢) يقال: تَخَلَّجَ المجنونُ في مشيته: أي تجاذب يمينًا وشمالًا. انظر: لسان العرب (٢/ ٢٥٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٨٢)، بتصرف يسير، فرحم الله الإمام السعدي ما أنفس كلامه وأحسن نظامه.

قال الشاعر[(١)]: [البحر الكامل]

لــذوي الجــدالِ إذا غــدَوْا لجــدالهم حجــجٌ تَضِــلَ عــن الهــدى وتجــورُ
وهـــنٌ كآنيـــة الزُّجـــاج تَصـــادمتْ فهَـــوتْ وكـــلٌّ كاسِـــرٌ مكســـورُ

(١) ابن الرومي في ديوانه (٢/ ١٦٦).

المبحث الخامس

الرد على الشبه المتعلقة بالقدر

من أبرز ما ردَّ عليه القرآن الكريم في هذا الباب **شبهة احتجاج المشركين على شركهم وعصيانهم بالقدر**.

وقد ردَّ على هذه الشبهة وأبطلها، وبيَّن زيف ادعاء المشركين، وتفاهة ما هم عليه من الضلال المبين.

وسأوضح ذلك في مطلبين.

المطلب الأول: عرض الشبهة.

زعم المشركون أن شركهم بالله ومعصيتهم له، إنما هو مقدر مكتوب عليهم، وأن الله تعالى قد رضي عن هذا كله، إذ لو كان كارهًا لذلك لما مكنهم منه، ولأبعدهم عنه[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاحتجوا بإقرار الله لهم قدرًا وكونًا على رضاه ومحبته وأمره، وأنه لو كره ذلك منهم لحال بينهم وبينه، ولما أقرهم عليه، فجعلوا قضاءه وقدره عين محبته ورضاه»[٢].

وقد أخبر الله أنهم سيحتجون على شركهم ومعاصيهم بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء - من الخير والشر - حجة لهم في دفع اللوم عنهم، قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾[الأنعام: ١٤٨].

ثم بيَّن أنهم قالوا ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٩).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٦٢).

مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ [النحل: ٣٥].

فأخبر الله تعالى أن دأب الأمم المكذبة في دفع دعوة الرسل عليهم السلام عنهم= هو الاحتجاج بهذه الشبهة، والتي لم تُجدِ فيهم شيئًا ولم تنفعهم، ولم يزل حالهم هكذا حتى أهلكهم الله، وأذاقهم بأسه.

المطلب الثاني: الردُّ على الشبهة.

رد القرآن الكريم على هذه الشبهة وأبطلها من وجوه؛ أهمها:

١- أن الله تعالى قد أعذرهم وأقام الحجة عليهم حينما بعث الرسل إليهم.

فلله الحجة البالغة التي قطعت حبال أعذارهم، وكشفت خبيئة أسرارهم؛ اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، وغدا كل من خالف هذه الأدلة القاطعات، والحجج الدامغات مبطِلًا فيما هو فيه، إذ إن نقيض الحق لا يكون إلا باطلًا[(١)].

فلذلك لما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ...﴾[النحل: ٣٥] الآية، أعقب الله قولهم بقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٥-٣٦].

«أي: ليس الأمر كما زعمتم أنه لم يعيره عليكم ولم ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل قرن من الناس وطائفة رسولًا؛ وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم؛

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢٧٨).

في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].. فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾[النحل: ٣٥]»[(١)].

٢- أنه لا برهان للمشركين فيما يستندون إليه في دعواهم، فلذا هي حجة داحضة منشؤها الجهل والظن.

وهذه قاعدة قرآنية تؤكد أن الظن لا يغني من الحق شيئًا، وكل دعوى قائمة على الخرص والظن فإنها مهدومة، يرفضها الحس والعقل[(٢)].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئًا= فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾[الأنعام: ١٤٨] فلو كان لهم علم - وهم خصوم ألداء- لأخرجوه، فلمَّا لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾[الأنعام: ١٤٨] ومَنْ بنى حججه على الخرص والظن فهو مبطل خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟»[(٣)].

٣- أنه لا حجة لهم في إرادة الله تعالى الشرعية ولا الكونية.

وبيان ذلك: أن الإرادة في كتاب الله على نوعين:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٠).

(٢) وسيأتي مزيد بيان لهذه القاعدة في خاتمة هذا الباب إن شاء الله تعالى.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢٧٨).

١- إرادة قدرية كونية.

٢- وإرادة دينية شرعية.

فأما الإرادة الكونية القدرية: فهي الإرادة الشاملة لجميع الموجودات، والتي يقال فيها: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[البقرة: ٢٥٣]. وغيرها من الآيات.

فهذه الإرادة إرادة شاملة لا يخرج عنها أحد من الكائنات، فكل الحوادث الكونية داخلة في مراد الله ومشيئته هذه، والتي يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، وأهل طاعته الذين يحبهم ويحبونه ويصلي عليهم هو وملائكته، وأهل معصيته الذين يبغضهم ويمقتهم ويلعنهم اللاعنون، فما وجد من الكفر والفسوق والعصيان = تعلقت به مشيئته الكونية، ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني[(١)].

وأما الإرادة الشرعية: فهي المتضمنة لمحبة الله تعالى ورضاه، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦]وغيرها من الآيات.

فهذا النوع من الإرادة لا يستلزم وقوع المراد؛ إلا إذا تعلق به النوع السابق من الإرادة، وهذه الإرادة تدل دلالة واضحة على أنه ﷻ لا يحب الذنوب والمعاصي

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٨).

والضلال والكفر، ولا يأمر بها ولا يرضاها، وإن كان شاءَها خلقًا وإيجادًا.

وأنه يحب ما يتعلق بالأمور الدينية ويرضاها، ويثيب عليها أصحابها، ويدخلهم الجنة، وينصرهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وينصر بها العباد من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وعباده الصالحين؛ وهذه الإرادة تتناول جميع الطاعات حدثت أو لم تحدث[(١)].

وعليه فإنه لا حجة لهم في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾[النحل: ٣٥] وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه الله تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله عليهم السلام، وبين عاقبة من ضل في ذلك وعقوبته بعد إنذار الرسل لهم، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل: ٣٦] فيكون بذلك قد بطل احتجاجهم بالمشيئة الشرعية على شركهم ومعصيتهم[(٢)].

الثاني: أنه تعالى قد خلق النار وأهلها؛ من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك الحجة البالغة، والحكمة القاطعة، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[الزمر: ٧] فبطل بذلك احتجاجهم بمشيئة الله الكونية على شركهم وضلالهم[(٣)].

٤- «أن الله تعالى أعطى لكل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن من تركه،

(١) انظر: شرح الطحاوية: (١١٦)، ومجموع الفتاوى (٨ / ٨٥، ١٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤/ ٥٧٠).

فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر= ظلم محض وعناد صرف»[١].

٥- أنه تعالى لم يكره العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعًا لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا؛ وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلًا في مشيئة الله، ومندرجًا تحت إرادته، فالمحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك، فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر= لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب[٢].

ولذلك قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن أحدهم لو ظلم الآخر في ماله، أو فَجَرَ بامرأته أو قتل ولده، أو كان مصرًّا على الظلم فنهاه الناس عن ذلك، فقال لو شاء الله لم أفعل هذا لم يقبلوا منه هذه الحجة، ولا هو يقبلها من غيره، وإنما يحتج بها المحتج دفعًا للوم بلا وجه»[٣].

والخلاصة: أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر، وأن احتجاج المشركين بالقدر على شركهم وكفرهم حجة داحضة وباطلة؛ يتنافى مع إرادة الله الشرعية الدالة على النهي عن الشرك على ألسنة الرسل عليهم السلام.

فإن الإرادة الكونية تدل على علم الله الأزلي، ولا تدل على أمر الله ورضاه بالمعصية والكفر؛ قال الله تعالى: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ﴾[الزمر: ٧].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٧٨).

(٢) المصدر السابق (٢٧٨) بتصرف يسير جدًّا.

(٣) منهاج السنة (٣/ ٥٦).

المبحث السادس

الرد على الشبه المتعلقة باليوم الآخر

إن من كمال عدل الله تعالى، ومن تمام فضله على خلقه، أنْ جعل لهم يومًا يرجعون فيه إليه سبحانه، فهناك ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[البقرة: ٢٨١] ولا ﴿تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[الأنبياء: ٤٧].

وهو موقف عظيم يميز الله به ﴿الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[الأنفال: ٣٧]فـ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾[الفرقان: ٢٤]، و﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٣٩] ولن يجدوا منها مخرجًا أوسبيلًا.

وعلى عظم هذا اليوم وجلالة قدره إلا أن كثيرًا من أهل الباطل لم يقدروه حق قدره، ولم يعظموه حق تعظيمه، بل تمادى بهم الحال للتنقص به وتكذيب وقوعه، ورمي الشبه حوله طمسًا للحق، وإضلالًا للخلق.

وقد بيَّن القرآن الكريم بعضًا من شبه هؤلاء في هذا الباب ورد عليها وأبطلها، وهذا ما سأوضحه في هذه المطالب.

المطلب الأول: شبهة أن النار لن تمس اليهود إلا أياماً معدودات.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

زعمت اليهود كذبًا وزورًا أن النار لن تلاقي أجسامهم، وقالوا: لن ندخل النار إلا أيامًا محدودة، و﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠].

المسألة الثانية: الرد على الشبهة.

وهو من وجوه:

الأول: أن الله تعالى لم يعهد إليهم بما زعموا، بدليل أنه طالبهم بالبينة على دعواهم الكاذبة بقوله: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾[البقرة: ٨٠] أي: هل أخذتم من الله تعالى ميثاقًا على ما تقولون؟، فإن كان كذلك فإن الله لا ينقض ميثاقه، ولا يبدل وعده وعقده[١].

وقد أتى بالاستفهام التقريري بقوله: ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ﴾[البقرة: ٨٠] للإلجاء إلى الاعتراف بأصدق الأمرين[٢]: **فإما** أن الله أعطاكم عهدًا بأن لا يعذبكم في النار إلا إيامًا قليلة، ثم يكون مصيركم إلى النعيم المقيم كما وعدكم، **وإما** أنه لم يعدكم بشيء، وأنكم كاذبون في دعواكم؛ فإن أثبتم بالحجة والبرهان أن الله قطع عليكم هذا العهد فـ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[النمل: ٦٤] وإلا تكونوا كاذبين في دعواكم؛ وهو أصدق الأمرين[٣].

الثاني: أن الله ﷻ بين أنه كذب وافتراء وتقوُّل عليه بلا علم ولا دليل، ولذا سبحانه: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٨٠] أي: بل تقولون على الله قولًا ليس لكم عليه برهان ولا دليل، وهو من قبيل الكذب والافتراء على رب الأرض والسماء، فيكون زعمكم بهذا باطل.

وجه بطلانه: أنه تعالى لما عاب عليهم قولهم الذي قالوه بدون دليل، علمنا أن القول بغير دليل باطل، إذ لو كان غير ذلك لما عابه عليهم.

و(أم) هنا بمعنى: (بل)؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا أتى بـ (أم) التي بمعنى: بل،

---

(١) انظر: جامع البيان (٢/ ١٧٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٥٨٠).

(٣) وهذا النوع من الإبطال يسمى: (السبر والتقسيم)؛ وسيأتي معنا - إن شاء الله - في الباب الثاني، في مطلب أصول مجادلة المخالفين.

أي: بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه»[(١)].

وبذلك يتبن في كلا الردين: «أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما:

فإما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهدًا، فتكون دعواهم صحيحة، وإما أن يكونوا متقولين عليه فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم.

وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهدًا، لتكذيبهم كثيرًا من الأنبياء – حتى وصل بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم – ولنكولهم[(٢)] عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات»[(٣)].

الثالث: بيان الجزاء الحقيقي لأعمالهم، وليس كما زعموا.

فإنهم لما قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠] قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

أي: أي ليس الأمر كما ذكرتم بادعائكم هذا، بل: إنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣١٣).

(٢) أي: امتناعهم؛ من النَّكَل؛ وهو الامتناع والتنحية. انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٤٥)، ولسان العرب (١١/ ٦٧٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥٧).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١١)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ٣١٥).

و«قوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾ إبطال لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾[البقرة: ٨٠] وكلمات الجواب تدخل على الكلام السابق لا على ما بعدها، فمعنى بلى: بل أنتم تمسكم النار مدة طويلة، وقوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾[البقرة: ٨١] سند لما تضمنته ﴿ بَلَىٰ ﴾ من إبطال قولهم، أي ما أنتم إلا ممن كسب سيئة..»[١].

والمراد بالسيئة هنا السيئة العظيمة وهي الشرك، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ ﴾[النمل: ٩٠].

قال الطبري رحمه الله تعالى: «أي: من جاء بالشرك به - يوم يلقاه - وجحود وحدانيته ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ في نار جهنم»[٢].

وهنا نكتة بديعة: وهي أنه قلب عليهم الحكم مرتين:

الأول: لما قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾[البقرة: ٨٠] فقال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ ﴾[البقرة: ٨١].

والثاني: لما قالوا: ﴿أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾[البقرة: ٨٠] قال سبحانه: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١]. فتأمل هذا.

والمراد بالخطيئة: كبائر الذنوب، فيكون المعنى ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾[البقرة: ٨١] أي: اجتمعت عليه فمات عليها قبل الإنابة والتوبة منها.

فمن أشرك بالله واقترف ذنوبًا فمات عليها قبل الإنابة والتوبة= فأولئك أصحاب النار هم فيها مخلدون أبدًا.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٥٨٠).

(٢) جامع البيان (١٨/ ١٣٩).

وهكذا أبطل الله تعالى تلك الشبهة، وبين لهم أن الخلود في النار والجنة إنما هو بحسب الكفر والإيمان، لا بما قالوه[(١)].

المطلب الثاني: شبهة أن الله لن يدخل الجنة إلا من كان على ملة اليهود والنصارى.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

ادعى اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم، ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾[البقرة: ١١١] أي: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا، ولن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا –بزعمهم– وجمع بينهما في الإخبار عنهما: لكون الخطاب مفهومًا عند المخاطبين به[(٢)].

المسألة الثانية: الرد على الشبهة.

وهو من وجوه:

الأول: بيان أن ما زعموه هو من الأماني الباطلة التي لا حجة لهم فيها ولا برهان.

قال تعالى: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾[البقرة: ١١١]. أي: ما هي إلا «أماني منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا حجة ولا برهان ولا يقين علم بصحة ما يدعون، ولكن بادعاء الأباطيل وأماني النفوس الكاذبة»[(٣)].

---

(١) انظر: جامع البيان (٢/ ١٨٢)، والجامع لأحكام القرآن (٢/ ٧).

(٢) انظر: جامع البيان (٢/ ٤٢٨).

(٣) جامع البيان (٢/ ٤٢٩).

ثم طالبهم بالدليل على صحة ما ادعوه فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة: ١١١].

أي: قل لكلا الفريقين أن يأتوا ببرهان على ما يزعمون، وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدّعى، فهو في عرف التخاطب تكذيب له، لأنه لا برهان لهم عليه[١].

فإن المدعي سواء ادعى أمرًا نفيًا أو إثباتًا، فلا بد له من دليل وبرهان يصدق قوله وينصره، وإلا كان مفتريًا كاذبًا، وما أكثر ما يُطالبُ هؤلاء بالأدلة على دعاواهم العريضة، ومزاعمهم المريضة، فلا تسمع لهم نبسًا ولا همسًا.

الثاني: بيان حقيقة من يدخلون الجنة، وأنها متاحة لكل من يعمل لها[٢].

قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١٢].

أي: ليس كما تزعمون من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتكم، بل من «أخلص لله أعماله، متوجهًا إليه بقلبه، وهو مع إخلاصه محسن في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم»[٣].

وفي ذلك أن العمل لا يقبل إلا بشرطين:

أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده لا شريك له.

---

(١) انظر: تفسير المراغي (١/ ١٩٥).

(٢) انظر: موسوعة بيان الإسلام (١/ ١٤١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٢).

والثاني: أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة، فمتى فقد أحد الشرطين لم يُقبل[(١)].

ومن هنا يتبين أن اليهود والنصارى قد كذبوا فيما ادعوه، وأن الجنة يدخلها من أعد لها عدتها؛ من الإخلاص والعمل الصالح.

المطلب الثالث: شبهة إنكار قدرة الله تعالى على البعث وإحياء الخلق مرة أخرى.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: عرض الشبهة.

أورد القرآن الكريم طائفة كبيرة من أقوال أهل الباطل في إنكارهم قيام الساعة وبعث الخلق من بعد موتهم؛ فقد ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾[التغابن: ٧] وقالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾[سبأ: ٣] ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[الأنعام: ٢٩]، وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[الرعد: ٥] وكذلك قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[النمل: ٦٧ – ٦٨] وقولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[الواقعة: ٤٧] إلى آخر ما هنالك من الأقوال السقيمة، والمزاعم العقيمة.

المسألة الثانية: الرد على الشبهة.

ولما كانت هذه الشبهة من أكثر الشبه قيلًا على ألسنة الكافرين، وتردادًا في أوساط الجاهلين= تنوعت أدلة القرآن الكريم في إبطالها ودحضها، وتعددت أساليبه وطرقه في ردها وإثبات ضدها، بل إن القرآن العظيم لم يؤكد على أمر بعد الإيمان بالله أعظم من

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦١).

الحديث عن البعث وإبطال الشبه حوله.

ولهذا ركز القرآن الكريم في تقريره لمسألة البعث على ثلاثة أصول:

الأول: تقرير كمال علم الله تبارك وتعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩]. إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ٦٠].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها، وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط، وجل من إله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، **فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث**»[(١)].

الثاني: تقرير كمال قدرته، كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس: ٨١ – ٨٣].

الثالث: تقرير كمال حكمته، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[الأنبياء: ١٦] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[ص: ٢٧] وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥] وغيرها من

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٥٩).

الآيات[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره لهذه الأصول: «ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص»[٢].

وتنقسم الأدلة في ذلك إلى قسمين:

الأول: الأدلة النقلية: وهي الأدلة التي اعتمدت على النقل في تأكيد البعث، والرد على المخالفين في ذلك، ومنها:

أولًا: الآيات التي فيها التأكيد على حقيقة البعث وإثبات وقوعه، وذلك بطرق منها:

١- الإخبار عن اقتراب وقوعه كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[المعارج: ٦ – ٧].

٢- الجزم بوقوعه، ونفي الشك عنه في ذلك، بحيث يصبح مسألة مسلَّمة، لا جدال فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾[غافر: ٥٩] وقال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[يونس: ٤].

٣- إقسام الله على وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء: ٨٧] أو طلب القسم من النبي ﷺ على ذلك كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ: ٣].

---

(١) انظر: الفوائد ص(٨).

(٢) المصدر السابق (٩).

٤- الإخبار بأن له وقتًا محددًا لا يُزاد في موعده ولا يُنقص منه، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٣٠].

ثانيًا: الآيات التي فيها ذكر من أماته الله وأحياه أمام خلقه.

والشواهد كثيرة في ذلك؛ منها:

١- إحياء الله تعالى للنفس المقتولة؛ عن طريق ضربها ببعضها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَٰٔتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٧٢ – ٧٣] وفي هذه الآية إشارة إلى أن إحياء هذا القتيل دليل على بعث الناس بعد الموت؛ فمن أحيا نفسًا واحدة بعد موتها قادرٌ على إحياء جميع النفوس، وقد صرح بهذا في قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[لقمان: ٢٨] [(١)].

٢- إماتة الله بعضًا من قوم موسى وأحياؤهم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[البقرة: ٥٥ – ٥٦].

٣- إماتة الله تعالى وإحياء الرجل الذي مرَّ على قرية واستبعد إحياء الله لها، قال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾[البقرة: ٢٥٩].

٤- إحياء الله تعالى لأصحاب الكهف بعد إماتتهم، قال تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴾

---

(١) انظر: أضواء البيان (١/ ٣٨).

[الكهف: ١١ – ١٢](١).

ثالثًا: ذم المكذبين بالبعث، وبيان حالهم يوم القيامة، وما هم فيه من الذل والندامة.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[الإسراء: ٩٧ – ٩٨].

فبيَّن حال هؤلاء المكذبين للبعث وما سيلاقونه من العذاب في نار جهنم والعياذ بالله.

رابعًا: بيان عجز الآلهة والأنداد عن إعادة الخلق، فدل ذلك على أن من مقتضى الكمال لله تعالى القدرة على إعادة الخلق بعد موتهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[يونس: ٣٤].

خامسًا: بيان أن المنكرين للبعث والجزاء لا يستندون في دعاويهم إلى دليل ولا في مزاعمهم إلى برهان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية: ٣٢].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٢٢٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية: ٢٤].

القسم الثاني: الأدلة العقلية: وهي الأدلة التي سلكت في إثبات البعث والرد على المخالفين طريق مخاطبة العقول بالأدلة الدامغة، والبراهين القاطعة. ومنها:

أولًا: الآيات التي استُدل بها على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى.

فمن بدأ الخلق من العدم فهو قادر على الإعادة، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[يونس: ٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[الحج: ٥].

فمن قدر على خلق الإنسان وغيره بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، فهو قادر على إنشائه بعد ما تمزَّق، وجمعه بعد ما تفرَّق.

وكذلك إن البدء أشق من الإعادة؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[العنكبوت: ١٩].

فالذي ركَّب صورة الآدمي بأعضائها وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم، والعروق والأعصاب، والرباطات والمنافذ والآلات، والعلوم والإرادات والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء = أليس من الهيِّن عليه أن يحيي هذا الآدمي بعد ما تمزق، وأن

يجمعه بعد ما تفرق ؟ [١].

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧] قال: «أهون عليه بمعنى أيسر عليه»[٢]، وقال مجاهد: «الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هينة»[٣].

وروى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك؛ فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد)[٤].

ثانيًا: بيان أن من جملة خلقه تعالى ما هو أعظم من خلق الناس؛ فالقادر على خلق الأعظم لا شك أنه قادر على خلق ما هو دونه.

قال الله ﷻ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ: «فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم؛ والقدرة عليه أبلغ، وأن هذا الأيسر أولى

---

(١) انظر: الفوائد (٩)، وتيسير الكريم الرحمن (٤٩٨).

(٢) جامع البيان (١٨/ ٤٨٦).

(٣) المصدر السابق (١٨/ ٤٨٦)، تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣١١).

(٤) تقدم تخريجه، انظر: (٦٣).

بالإمكان والقدرة من ذلك»(١).

ثالثًا: الاستدلال على إمكانية البعث بالنوم واليقظة؛ باعتبارهما نموذجًا متكررًا للموت والحياة(٢).

فالنوم أخو الموت إذ إن كلًّا منهما عبارة عن انسحاب من الحياة أو توقف للأعضاء عن أداء وظائفها على درجات متفاوتة بينهما، واليقظة شبيهة بالبعث؛ إذ كل منهما يعني عودة الأعضاء إلى أداء وظائفها مع اختلاف بينهما في الدرجة.

فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان، وعملية الاستيقاظ لهما، تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقد بيَّن النبي ﷺ ذلك بقوله: (إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)(٣)، وعند اليقظة: (الحمد لله الذي عافاني في جسدي، ورد علي روحي وأذن لي بذكره)(٤).

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩٩).

(٢) مجلة البحوث الإسلامية، البحث: (الإيمان باليوم الآخر أدلته وأثره في حياة) للدكتور أحمد محمد أحمد جلي، العدد: السادس والثلاثون، الإصدار: ربيع الأول سنة (١٤١٣هـ) ص(٣١٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند المنام، برقم (٦٣٢٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب: الدعاء عند النوم، برقم (٢٧١٤).

(٤) رواه الترمذي، كتاب الدعاء، باب: ما جاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه برقم (٣٤٠١). وحسنه =

وفي حديث آخر عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: (باسمك أموت وأحيا، وإذا قام قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)[(١)].

رابعًا: بيان أن حكمة الله تعالى وعدله تقتضي أن يكون البعث والجزاء.

قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[يونس: ٤].

فالله تعالى خلق العباد وأمرهم ونهاهم، ووعدهم على امتثال أوامره وتوعدهم على ترك الأمر، فلو لم يكن هناك بعث وجزاء لكان هذا الأمر والنهي والوعد والوعيد عبثًا، وهذا ينزه عنه البارئ جل وعلا.

قال الراغب: «فلو لم يكن للإنسان عاقبة ينتهي إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصبًا وهمًّا وحزنًا ولا يكون بعدها حال مغبوطة لكان أخس الحيوانات أحسن حالًا من الإنسان»[(٢)].

خامسًا: نفي أن يكون الله تعالى خلق الخلق عبثًا، والقول بإنكار البعث يؤدي إلى ذلك.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥].

فغفلتهم عن آيات الله تعالى الكونية، وعظيم خلقه الذي يستحيل أن يخلقه عبثًا = جعلهم يركنون إلى الحياة الدنيا، وينسون البعث والجزاء، ولهذا قال تعالى مشيرًا إلى

=

الألباني في تخريج الكلم الطيب ص(٧٧).

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، برقم (٦٣١٢).

(٢) تفصيل النشأتين (١١٤).

ذلك بعد أن ذكر إنكارهم للبعث: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٦-٨].

سادسًا: ضرب المثل على إعادة الخلق بإحياء الأرض الميتة بالنبات بعد نزول الماء.

فهو دليل عظيم لمن ألقى السمع والبصر وتدبر، فقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[فصلت: ٣٩][(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره وجعل ذلك آية ودليلًا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته، وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

---

(١) كثر الكلام في هذه المسألة لعظمتها، وتنوع أدلتها في القرآن الكريم، وما تقدم هو ذكر لبعض الإشارات فيما ذكر في كتاب الله تعالى؛ في الرد على منكري البعث والمعاد، ولمزيد توسع في هذه المسألة ينظر: كتاب: **«منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث بعد الموت»** للدكتور: منظور بن محمد محمد رمضان. فإنه قد جمع فيه عددًا كبيرًا من الأدلة والبراهين في هذا الباب، وسلط عليها الضوء من كلام العلماء.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة، وأنه لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض»[١].

سابعًا: بيان بعض أدلة البعث في معرض الرد على أحد منكري البعث[٢].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[يس: ٧٧] الآيات.

فقد بيَّن القرآن الكريم مجادلته في هذه الآيات للعاص بن وائل حينما جاء النبيَّ ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذره في الهواء، ويقول: يا محمد؛ أيبعث الله هذا بعدما أرم؟ قال: «نعم، يبعث الله هذا، يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم» قال: فنزلت الآيات[٣].

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[يس: ٧٨] **فردَّ الله تعالى عليه بما يلي:**

١ - **أن الذي خلق هذه العظام من العدم قادر على إرجاعها بعدما بليت**، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[يس: ٧٩] فإن الذي أجرى الحياة في التراب وهو أصل خلقة الإنسان قادر على أن يجري الحياة في العظام بعدما رثت وبليت، ثم قال:

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٤٤-١٤٥).

(٢) موسوعة بيان الإسلام (١/ ١٠٦).

(٣) رواه الحاكم في مستدركه وصححه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»؛ ووافقه الذهبي. انظر منه: كتاب التفسير، باب تفسير سورة يس، برقم (٣٦٠٦).

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء واستحال[١].

٢- أن الذي أخرج النار الحارة من البارد الرطب قادر على إعادة العظم رطبًا بعدما يبس وعطب.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] فإن الله تعالى بدأ خلق الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا ذا ثمر يانع، ثم أعاده بقدرته إلى أن صار حطبًا يابسًا توقد منه النار، وكذلك هو فعال لما يريد، على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء[٢].

٣- أن الذي خلق المخلوقات العظيمة كالسموات والأرض لا يعجزه أن يخلق ما هو دونها. كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[يس: ٨١] وقد تقدم آنفًا طرفٌ من ذلك.

وهذا غيض من فيض[٣]، وطلٌّ من وابل؛ وإلا لو أراد أحد أن يكتب في ذلك وما حواه من الحكم ودقائق العلوم، ولطائف الأدلة والاستنباطات في الردِّ على الخصوم = لنُثرتْ في ذلك الدواوين، ولكثُرتْ فيه العناوين، وليس كثيرًا في الذبِّ عن الدين، وطاعة ربِّ العالمين.

والخلاصة في تقرير بعض ما تقدم:

- أن الموجد للشيء بعد العدم قادر على إعادة بعثه بعد الرمم.
- أن الذي خلق المخلوقات العظيمة كالأرض والسماء، لا يعجزه أن يخلق ما دونها مما

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٠).

(٢) انظر: موسوعة بيان الإسلام (١/ ١٠٦).

(٣) أي قليل من كثير. انظر: المستقصى في أمثال العرب (٢/ ١٧٨).

خلقه من نطفة من ماء.

- أن من أنكر البعث والمعاد والإحياء فإنه معاند مكابر، ركبَهُ الوهم، وضل عنه الفهم، فالذي ينكر هذه الدلائل والبراهين، فقد عطَّل عقله، وصار أشبه بحال المجانين.

ومن خلال ما تقدم: يتبيَّن كيف ردَّ القرآن الكريم على المخالفين في العقيدة ودحض شبهاتهم، وكشف زيف ادعاءاتهم، وأبطل باطلهم، وأقام الحق ونصره، وهزم الباطل وقهره.

وفي نهاية هذا الباب أختم بجملة مهمة من القواعد مستفادة مما تقدم:

القاعدة الأولى: «رفض الدعاوى الخالية من الدليل، وطرح الاتهامات المفتقدة إلى البرهان[١]».

فالقرآن الكريم طالب المخالفين أن يأتوا بالأدلة والبراهين على صدق ادعاءاتهم واتهاماتهم؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١] فكل دعوى عارية عن الدليل فهي مردودة، وكل اتهام خال من البرهان فهو باطل.

والدَّعاوَى ما لم تقيموا عليها بيناتٍ أبناؤُها أدعياءُ

ولذا صاغ العلماء هذا المبدأ العظيم بقولهم: «إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل»[٢]؛ وهذا عام في كل دعوى، لابد من تصديقها بالدليل.

ومن الأمثلة على ذلك:

---

(١) موسوعة بيان الإسلام (١/ ٥٥).

(٢) انظر: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، لحسن حبنكة الميداني (٣٦٨)، ومنهج الجدل والمناظرة للدكتور عثمان علي حسن (٢/ ٦٨٥).

ردُّ القرآن الكريم على اليهود والنصارى لما زعموا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[البقرة: ١١١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فطالبهم الله تعالى بالبرهان على صحة الدعوى فقال: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[البقرة: ١١١] وهذا هو المسمى: سؤال المطالبة بالدليل؛ فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له: هاتِ برهانَك إن كنت صادقًا فيما ادعيت»[(١)].

وفي قولهم ذلك: نفي عام وإثبات باطل؛ إثباتُ دخولهم الجنة، ونفيُ دخولِ غيرهم لها، فأمر الله نبيه عليه السلام أن يطالبهم بالبرهان على هذا النفي العام وما فيه من الإثبات الباطل[(٢)] بقوله: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[البقرة: ١١١].

ثم بيَّن لهم الصحيح الناقض لزعمهم وادعائهم وهو قوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ١١٢] فأخبر سبحانه أن الذين يدخلون الجنة من أخلصوا الدين لله وهو عبادته وحده لا شريك له وأحسنوا العمل؛ فالأول: وهو إسلام الوجه هو النية، والثاني: الإحسان؛ وهو العمل.

وهذا الذي ذكره الله في هاتين الآيتين هو الإيمان العام والإسلام العام الذي أوجبه الله على جميع عباده من الأولين والآخرين[(٣)].

ومن الأمثلة أيضًا: مطالبة من نسب لله الولد بدليل قاطع وبرهان ساطع على صدق

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٥٧١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٤).

ادعائه؛ قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[يونس: ٦٨].

فطالبهم أن يأتوا بدليل يصدق قولهم وسلطان ينصر ادعاءهم، ودون ذلك هو من القول على الله تعالى بلا علم، وهو من أبطل الباطل وأعظم المحرمات؛ قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تحدَّاهم وعجَّزهم عن إقامة الدليل، عُلِمَ بطلان ما قالوه؛ وأن ذلك قولٌ بلا علم، ولهذا قال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[يونس: ٦٨] فإن هذا من أعظم المحرمات»[١].

ومن الأمثلة أيضًا: الرد على من أشرك مع الله آلهة أخرى، ومطالبتهم بالدليل على صحة فعلهم؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[الأحقاف: ٤] فطالبهم أولًا بالطريق العقلي، وثانيًا بالطريق السمعي[٢]؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: هاتوا كتابًا من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾[الأحقاف: ٤] أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[الأحقاف: ٤] أي: لا دليل لكم نقليًّا ولا عقليًّا على ذلك»[٣].

القاعدة الثانية: «رفض الدعاوى القائمة على الظنِّ والوهم».

أي دعوى تقوم على الظن والخرص فهي مرفوضة لا تقبل ولا تغنِ من الحق شيئًا؛ قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحجة، لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٦٩).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٩٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧٤).

فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئًا= فإنها باطلة»[١].

وهذا المبدأ قرره القرآن الكريم في مواضع عديده منها:

- **الرد على المشركين الذين احتجوا على شركهم بالقدر**؛ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم طالبهم بالعلم على صحة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه ويرضى به، ومجرد إقراره لهم قدرًا لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء، وإلا كان الظلم والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي محبوبًا له مرضيًّا، ثم أخبر سبحانه أن مستندهم في ذلك إنما هو الظن وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب، **ثم أخبر سبحانه أن له الحجة عليهم من جهتين:**

إحداهما: ما ركبه فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح والباطل، والإسماع والإبصار التي هي آلة إدراك الحق، والتي يفرق بها بينه وبين الباطل.

والثانية: إرسال رسله وإنزال كتبه، وتمكينهم من الإيمان والإسلام ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين؛ بل بمجموعها لكمال عدله وقطعًا لعذرهم من جميع الوجوه؛ ولذلك سمى حجته عليهم بالغة؛ أي: قد بلغت غاية البيان وأقصاه بحيث لم يبق معها مقال لقائل ولا عذر لمعتذر ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله»[٢].

- **محاجة الله تعالى للمشركين وبيان نقص آلهتهم من جميع الوجوه**؛ قال تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٧٨).

(٢) شفاء العليل (١٢٦).

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[يونس: ٣٤] إلى قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[يونس: ٣٦].

فأخبر الله تعالى أن هؤلاء لا يتبعون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا، وإنما هو توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئًا.

القاعدة الثالثة: «المناقشة العقلية التي تعتمد على قواعد العقل ومسلَّماته».

كثيرًا ما يطالب القرآنُ الكريم المخالفينَ باستعمال عقولهم وعدم تعطيلها؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٤٤] وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٢٤٢] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: ٢٤].

وكذلك حثهم على النظر والمشاهدة والتفكر؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: ١١]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[القصص: ٧٢] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ٥٠] والآيات في هذا الباب كثيرة جدًّا؛ كلها تدعو المخالفين لإعمال عقولهم وضبط أفكارهم، ومناقشتهم مناقشة عقلية تعتمد على الوضوح والبيان بأخصر الطرق وأنفعها[(١)].

القاعدة الرابعة: «الجمع بين العقل والنقل في الردِّ».

من منهج القرآن الكريم الجمع بين الأدلة العقلية والأدلة النقلية في الرد؛ ومن

(١) وسيأتي مزيد بيان لهذا المنهج الباب الثاني إن شاء الله.

الأمثلة على ذلك: رد القرآن الكريم على من أنكر قدرة الله تعالى على البعث والنشور؛ **ومنه الاستدلال على البعث بالنشأة الأخرى على النشأة الأولى**. قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم: ٦٧] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[الحج: ٥] الآيات.

فالقادر على جعل التراب بشرًا سويًّا، لا يعجزه أن يعيده بشرًا سويًّا مرة أخرى بعد موته، والقادر على خلق المشاهد المعلوم قادر على إعادته وإحيائه بعد الموت.

وتفصيل أطوار خلق الإنسان مما لا تنكره عقولهم؛ وهو مشاهد محسوس لديهم، فتقريره له وإلزامهم به لا يدع لمكابر حجة؛ إما التسليم وإما الجحود والكفر.

القاعدة الخامسة: «الاكتفاء بنفي الادعاء دون التوسع في الرد».

من منهج القرآن الكريم – أحيانًا – أنه يكتفي في إبطال دعوى الخصوم بنفي الاتهام وإنكار الدعوى، وليس هذا الصنيع منه عجزًا عن الرد أو نكوصًا عن إقامة الحجة، لكنه يكتفي بمجرد النفي دون التوسع في الرد نظرًا لضعف الدعوى ووهائها، وظهور الحق ووضوحه الذي لا يحتاج معه إلى تقديم دليل.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومن الأمثلة على ذلك: **رد القرآن الكريم على الذين رموا النبي ﷺ بالجنون والسحر وادعوا أنه شاعر وكاهن**؛ قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[التكوير: ٢٢]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[الطور: ٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا

تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة: ٤١ – ٤٢] فاكتفى بنفي الدعوى دون التوسع في الرد، لأنهم يعلمون جيدًا أن النبي ﷺ ليس بكاهن ولا شاعر ولا ساحر ولا مجنون، وأن أفعاله وأقواله وأخلاقه لا تنطبق على صفات ما رموه به، فكان من الحكمة في الرد أن يكتفي بنفي مثل هذه الادعاءات دون التوسع فيها(١).

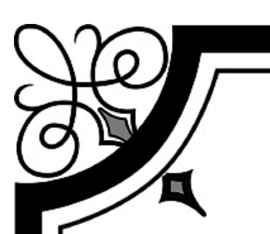
القاعدة السادسة: «التحدي المعجِز عند المكابرة».

قد يلجأ القرآن الكريم أحيانًا إلى التحدي الذي يُظهِر عجز الخصم وضعفه عن المواجهة؛ ومن ذلكم: تحدي القرآن الكريم المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر وأساطير، وأنه يمكنهم الإتيان بمثله، وأن محمدًا ﷺ هو الذي افتراه من عند نفسه، فتحداهم القرآن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا، ترقى في التعجيز إلى المطالبة بالإتيان بعشر سور مثله مفتريات، فلما عجزوا طالبهم بالإتيان بسورة من مثله، ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾[الأعراف: ١١٩] وظهر عجزهم عن التحدي والمعارضة.

فقال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾[الإسراء: ٨٨].

---

(١) انظر: موسوعة الإسلام (١/ ٦٣).




الباب الثاني
منهج القرآن الكريم في بيان معاملة المخالفين

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بالعدل والإنصاف ومجادلتهم.

الفصل الثاني: تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بالشدة التي لا تنافي العدل والإنصاف.

الفصل الثالث: التعامل مع المخالفين باستخدام أسلوب الترغيب والترهيب.



الفصل الأول

تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بالعدل والإنصاف ومجادلتهم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التعامل مع المخالفين بالعدل والإنصاف.

المبحث الثاني: تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بمجادلتهم بالتي هي أحسن.

المبحث الأول

التعامل مع المخالفين بالعدل والإنصاف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: بيان القرآن الكريم بأن الله تعالى لم يظلمهم.

المطلب الثاني: توجيه القرآن الكريم المؤمنين بعدم ظلم المخالفين.

المطلب الثالث: صور من العدل والإنصاف مع المخالفين في القرآن الكريم.

المطلب الأول

بيان القرآن الكريم بأن الله تعالى لم يظلمهم

من كمال عدل الله تعالى وتمام فضله على خلقه= أنه مقَتَ الظلم ونفاه عن نفسه، وحرمه على خلقه؛ ولذلك «اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله تعالى عدل قائم بالقسط لا يظلم شيئًا؛ بل هو منزه عن الظلم»(١) جل وعلا.

فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)(٢)؛ وهذا من كمال عدله وتمام فضله - سبحانه -.

وقد بيَّن الله تعالى أن هذا التحريم شامل لجميع خلقه، فلا يظلم أحدًا منهم، سواء كان برًّا أو فاجرًا، مؤمنًا أو كافرًا؛ بل يعاملهم بالعدل، ولا يظلمهم مثقال الذَّر.

وتوضيح ذلك في المسائل التالية:

المسألة الأولى: بيان حقيقة الظلم الذي تنزه عنه الرب جل جلاله.

الأصل في الظلم هو: وضعُ الشَّيْءِ في غير موضعه(٣)، كما يطلق على الجور، ومجاوزة الحد(٤)، وأخذ حق الغير بغير حق(٥).

قال الراغب في تعريفه: هو «وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إمَّا بنقصان أو

---

(١) جامع الرسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٢١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧).

(٣) انظر: تهذيب اللغة (٥/ ٤٤)، ومقاييس اللغة (٣/ ٤٦٨).

(٤) انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٥٧٧).

(٥) انظر: المحيط في اللغة (٢/ ٣٩٠).

بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه»[١].

وهذا هو قول أهل الحق في الظلم الذي تنزه عنه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والعدل وضع كل شيء في موضعه، وهو سبحانه حكم عدل، يضع الأشياء مواضعها، ولا يضع شيئًا إلا في موضعه الذي يناسبه، وتقتضيه الحكمة والعدل»[٢].

وقال الموصلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال أهل السنة والحديث ومن وافقهم: الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهو سبحانه حكم عدل، لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرق بين متماثلَين، ولا يساوي بين مختلفَين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة، ويضعها موضعها، لما في ذلك من الحكمة؛ ولا يعاقب أهل البر والتقوى؛ وهذا قول أهل اللغة قاطبة»[٣].

المسألة الثانية: الآيات الدالة على نفي الظلم عن الله تعالى.

وهي كثيرة جدًّا؛ وكذلك على أنواع:

الأول: نفي الظلم عن الله تعالى لعموم خلقه، و ذلك بطرق؛ منها:

١- **بيان نفي الظلم عن جميع الخلق، وذلك بألفاظ العموم**؛ ومنها: العالمين والناس والعبيد والعباد ونحوه.

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران: ١٠٨] أي: جميع من خلق الله تعالى

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٥٣٧)، قلت: ومن هنا كان الشرك أظلم الظلم، وأقبح الذنوب؛ لأنه مجاوزة للحدِّ، وجورٌ في القصد، ووضعٌ للعبادة في غير موضعها.

(٢) جامع الرسائل (١/ ١٢٣).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٥٧٨).

من العالمين، لأنهم كلهم عبيده ومخلوقه ومرزوقه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]. وقال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١].

فالظلم منفي عنه، بل هو - سبحانه - الحكم العدل الذي لا يجور؛ فهو القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدًا من خلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[آل عمران: ١٠٩]. أي: الجميع ملك له وعبيد له، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [آل عمران: ١٠٩] أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة[(١)].

وهنا إشكال قد ورد في بعض كتب التفسير ذكره بعض الأئمة:

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[الحج: ١٠] ففي هذه الآية الكريمة والآيات المماثلة لها من القرآن إشكال عربي معروف يدور فيه سؤال مشهور على ألسنة العلماء وطلبة العلم، وهو أن يُقال: الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة نفى المبالغة؛ لأنه قال: ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ و(ظلاّم) (فَعَّال) و(الفعَّال) صيغة مبالغة، والمقرر في اللغة العربية التي بها نزل القرآن أن نفي المبالغة لا يقتضي نفي أَصلِ الفعلِ من حيث هو، فلو قلت: زيد ليس بقَتَّال للرجال، نفيت عنه المبالغة في القتل، ولا ينافي أنه ربما قتل رجلًا أو رجلين، ولو قلت: زيد -مثلًا- ليس بضرّاب لنسائه؛ يدل على انتفاء كثرة الضرب عنه، ولا ينافي أنه ربما وقع منه ضرب قليل كما هو معروف؛ فنفي المبالغة هنا لا يقتضي نفي أصل الفعل من حيث هو، والمقام مقام تنزِيه، ونفي الأدنى أبلغ من نفيِ الأعلى، فلِمَ عُبِّر هنا بصيغة المبالغة ولم يقل: ليس بظالم، أو ليس بذي ظلم

(١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٢٣٨)، وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٩٣).

للعبيد؟!»[١].

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

أحدها: أنه جرت السنة في القرآن أن يكون في بعض الآيات شبه إجمال، ويأتي بيانه في آيات أُخرى، وقد أوضحت آيات أخر أن الله لا يظلم شيئًا، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤] فالآيات الواضحات بينت هذا وأوضحته غاية الإيضاح[٢].

الثاني: أن الصيغة هنا للنسب لا للمبالغة، من قبيل (**بزّاز**) و(**عطّار**)، والمعنى لا ينسب إلى الظلم[٣].

الثالث: «أنه نفي لأصل الظلم وكثرته، باعتبار آحاد من ظلم، كأنه قيل: ظالم لفلان ولفلان وهلم جرًّا. فلما جمع هؤلاء عدل إلى (ظلّام)لذلك، أي لكثرة الكمية فيه»[٤].

الرابع: «أن المبالغة هنا لا يقصد بها أصل المبالغة؛ لأن التكثير نظرًا إلى كثرة العبيد؛ لأن الظّلم لمّا تَعَلَّقَ بالعبيد وكان العبيد في كثرة هائلة كان الظلم كثيرًا جدًّا؛ لكثرة من هو منفي عنهم؛ ولذا كان نفيه نفيه من أصله؛ لأن الكثرة فيه والمبالغة بحسب العبيد الذين يقع عليهم الظلم»[٥].

الخامس: «أنه إذا نفي الظلم الكثير انتفى الظلم القليل ضرورة؛ لأن الذي يظلم إنما

---

(١) العذب النمير (٥/ ١١٧).

(٢) انظر: العذب النمير (٥/ ١١٧).

(٣) انظر: محاسن التأويل (٢/ ٤٧٠).

(٤) المصدر السابق (٥/ ٣٩٠)،

(٥) العذب النمير (٥/ ١١٧).

يظلم لانتفاعه بالظلم، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضر، كان للظلم القليل المنفعة أترك»(١).

السادس: «أن هذا العذاب الذي يعذبهم الله به هو عذاب فظيع هائل لا يُقَادر قدره ولا يُماثل مثله، فلو وقع منه ظلمًا لكان مبالغًا في غاية الظلم مبالغة عظيمة، فنفى المبالغة بهذا الاعتبار، ومعناها نفي الفعل من أصله، وهذا الوجه حسن جدًّا، إلا أن فيه دقة»(٢).

٢- بيان نفي الظلم عن الله تجاه جميع الخلق حيث وقعت النكرة في سياق النفي - في القرآن الكريم - فيدل على العموم.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. أي: أي أحد، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤].أي: «شيئًا من الظلم، قليلًا ولا كثيرًا»(٣).

٣- بيان نفي الظلم لأهل الباطل بوجه الخصوص.

ويأتي ذلك في سياق تقرير العذاب عليهم.

ومن ذلك: قوله تعالى في عدم ظلمه للأمم والقرى المجرمة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ [هود: ١٠٠-١٠١].

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

(١) محاسن التأويل (٢/ ٤٧٠).

(٢) العذب النمير (٥/ ١١٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٩٥).

وكذلك بيان أن الله تعالى لم يظلم اليهود فيما حل بهم، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ ﴾ [النحل: ١١٨].

٤- بيان نفي التسوية بين الطائعين والعاصين.

كمثل قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]، وقوله: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

النوع الثاني: نفي إرادة الله تعالى للظلم[١].

كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٨]. وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نفى إرادته ظلمهم؛ فضلًا عن كونه يفعل ذلك، فلا ينقص أحدًا شيئًا من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط»[٢].

النوع الثالث: الإخبار عن اتصاف الله بضد الظلم؛ وهو العدل.

كقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤].

فـ «كل عامل جزاء عمله على قدر استحقاقه= غير مظلوم فيه؛ لأنه لا يعاقب فيه إلا على ما اجترم، ولا يؤاخذ إلا بما عمل، يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يخاف أحدٌ من خلقه يومئذ ظلمًا ولا هضمًا»[٣].

---

(١) انظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٧٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٤٢).

(٣) جامع البيان (٥/ ٢٩٨).

النوع الرابع: نفي خوف العباد أن يقع الظلم عليهم من الله ﷻ[١].

كقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه: ١١٢].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا يخاف من الله أن يظلمه فيحملَ عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليها... ولا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها»[٢].

المسألة الثالثة: بيان أن أهل الباطل هم الذين ظلموا أنفسهم، وليس الله تعالى ظلمهم.

فحينما ينزل العذاب على أهل الباطل لا يكون تجنيًا عليهم، أو ظلمًا لهم، بل لفعلهم الأسباب التي أدت إلى ذلك، فكل من خالف أمر الله تعالى، وأوجب غضبه ومقته= فهو ظالم لنفسه.

فحينما يشرك الإنسان بالله تعالى وقد أُنزلت عليه الكتب، وأرسلت إليه الرسل، وأقيمت عليه الحجة، وبانت له المحجة، فيصر على كفره، ويستكبر عن عبادة ربه= يكون عندها هو الظالم لنفسه؛ بأن جرَّ عليها الويلات في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦]: «أي: لا يعاقب أحدًا إلا بذنب، ولا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه»[٣].

ومن الآيات في بيان أن أهل الباطل هم من يظلمون أنفسهم قوله الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ

(١) انظر: جامع البيان (٥/ ٢٩٨).

(٢) المصدر السابق (١٦/ ١٧٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٨٥).



أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[هود: ١٠٠ – ١٠١].

فبيَّن أن عقاب المجرمين عدْلٌ لذنوبهم، لا لأن الله ظلمهم فعاقبهم بغير ذنب، ولذلك ما كان إهلاكهم بغير جرم استحقوا به الهلاك، ولكن لما ظلموا أنفسهم بشركهم وإفسادهم في الأرض، وأصروا على ذلك، ولم يبق فيهم استعداد لقبول الحق، ولو بقوا زمانًا ما ازدادوا إلا ظلمًا وفجورًا وفسادًا في الأرض أهلكهم الله تعالى جزاءً وفاقًا[(١)].

ومثله قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[يونس: ٤٤].

أي: لا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم، ولا يعاقبهم إلا بمعصيتهم إياه، ولا يعذبهم إلا بكفرهم به؛ ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم باجترامهم ما يورثُها غضبَ الله وسخطَه، فيعاقبهم بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم [(٢)].

وقال الله تعالى عن الأمم التي أهلكها بأنواع من العذاب: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠].

أي: لم يكن الله ليهلكهم بذنوب غيرهم، فيظلمهم بإهلاكه إياهم بغير استحقاق، بل إنما أهلكهم بذنوبهم، وكفرهم بربهم، وجحودهم نعمه عليهم، مع تتابع إحسانه عليهم، وكثرة أياديه عندهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتصرفهم في نعم ربهم، وتقلبهم في آلائه، وعبادتهم غيره، ومعصيتهم من أنعم عليهم[(٣)].

---

(١) انظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٨٠٩)، وتفسير المراغي (١٢/ ٨٢).

(٢) انظر: جامع البيان (١٢/ ١٨٧)، وتيسير الكريم الرحمن (٣٦٥).

(٣) انظر: جامع البيان (١٨/ ٤٠٣).

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦] قال الطبري: «يقول: وفعلنا ذلك لأن الله ليس بظلام للعبيد فيعاقب بعض عبيده على جرم وهو يغفر مثله من آخر غيره، أو يحمل ذنب مذنب على غير مذنب فيعاقبه به ويعفو عن صاحب الذنب، ولكنه لا يعاقب أحدًا إلا على جرمه، ولا يعذب أحدًا على ذنب يغفر مثله لآخر إلا بسبب استحق به منه مغفرته»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك قوله فيمن عاقبهم: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾[هود: ١٠١]. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الزخرف: ٧٦] بين أن عقاب المجرمين عدل لذنوبهم، لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب.

والحديث الذي في السنن: (لو عذب الله أهل سماواته وأرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم)(٢).

يبيِّن أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك؛ لا لكونه بغير ذنب؛ وهذا يبيِّن أن من الظلم المنفي عن الله تعالى عقوبته لمن لم يذنب.

ولذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[غافر: ٣٠-٣١] يبيِّن أن هذا

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٤٧١).

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث ثابت بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ برقم (٢١٥٨٩)، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه في سننه، باب في القدر، برقم (٧٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (٢/ ٩٣٠).

العقاب لم يكن ظلمًا؛ لاستحقاقهم ذلك، وأن الله لا يريد الظلم...»[١].

ومن الدلائل أن الله تعالى لم يظلمهم، بل هم الذين ظلموا أنفسهم= بيانُ عدم ظلمهم في الدنيا، وعدم ظلمهم في الآخرة.

أما في الدنيا:

- **فإنه يمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة على كل ذنب،** قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[النحل: ٦١].

بيَّن الله تعالى للعباد بأنه يحلم على العصاة من البشر، مع ظلمهم، وأنه لا يعجل بمؤاخذتهم بأفعالهم، وبما كسبوا، ولو أنه فعل ذلك لأهلك ما على الأرض من مخلوقات، ولم يترك على ظهرها مخلوقًا يدب عليها. ولكنه تعالى يحلم على العصاة، ويستر عليهم عيوبهم وأعمالهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، وإنما يؤخرهم إلى اليوم المحدد لهم، فإذا جاء الأجل لا يمهلون لحظة واحدة.

- **أنه بيَّن لهم الحق وضده؛ فقد أنزل الكتب وأرسل الرسل، وأقام الحجة على العباد ولم يذرهم هملًا؛ لا علم ولا فهم، بل بيَّن لهم كل ما يستقيم به أمر دينهم ودنياهم.**

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[القصص: ٥٩].

فالله ﷻ لا يعذب أمة ما لم يرسل إليها رسولًا فإذا كذبته فتكون ظالمة بهذا التكذيب؛ وعندئذ تستحق عقاب الله تعالى لها بإهلاكها.

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٨٠).

- **أنه سبحانه رغَّب ورهَّب:**

رغَّب عندما **بيَّن عظيم فضله للطائعين، وجزيل نواله للمخلصين**، وفتح باب التوبة للعاصين، ورغب فيها. ورتب على ذلك أجرًا عظيمًا، وخيرًا عميمًا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[النساء: ١٣ – ١٤].

ورهَّب: بأن **حذر من مخالفة أمره وأليم عقابه**، وبيَّن في كتبه وعلى ألسنة رسله ما وقع للأمم السالفة من النكال والعذاب؛ لكفرهم ومعصيتهم في الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[النساء: ١٣ – ١٤]. وغيرها من الآيات [(١)].

وأما في الآخرة: فهو سبحانه يحاسبهم بقدر ذنوبهم، فيعفو بفضله، ويعذب بعدله.

---

(١) وسيأتي – إن شاء الله – مزيد بيان في الفصل الثالث: التعامل مع المخالفين باستخدام أسلوب الترغيب والترهيب.

المطلب الثاني

توجيه القرآن الكريم المؤمنين إلى عدم ظلم المخالفين

العداوة بين أهل الحق وأهل الباطل ليست عداوة على الدنيا وزخرفها، بل هي عداوة في الدين؛ فلذلك لا ينبغي لأهل الحق أن يوالوا أهل الباطل بحال؛ بل يُعادوهم ويُتبرؤوا منهم بقدر مخالفتهم لدين الله الحق الذي ارتضاه لعباده وأمرهم به.

وكما أنه لا يجوز موالاة أهل الباطل والتقربُ إليهم، كذلك لا يجوز ظلمهم والتعدي عليهم، ولو كان البعض منهم رأسًا في باطله، وكبيرًا في ضلاله؛ بل يعاملون كما أمر الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ.

وقد وجَّه القرآن الكريم أهل الحقِّ إلى عدم ظلم المخالف ولو أساء وظلم؛ وتوضيح ذلك في المسائل التالية:

المسألة الأولى: الأمر بمعاملتهم بالعدل.

فقد أمر الله تعالى عباده بالعدل مع كل الناس؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان العدل أمرًا واجبًا في كل شيء - وعلى كل أحد - والظلم محرمًا في كل شيء، ولكل أحد، فلا يحل ظلم أحد أصلًا، سواء كان مسلمًا أو كافرًا أو كان ظالمًا»[1].

ومن الأدلة على الأمر بالعدل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[النحل: ٩٠].

فقد جاء الأمر بالعدل والإحسان هنا مطلقًا، ليحتوي العدل كله، ويشمل الإحسان جميعه، فهو عدل عام شامل؛ فيعدل الإنسان مع نفسه فلا يجور عليها بإلقائها في التهلكة، وسوقها إلى مواقع الإثم والضلال، ويعدل مع الناس فلا يعتدي عليهم ويسلبهم

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٦٦).

حقوقهم، ويعدل مع خالقه فلا يجحد فضله، ولا يكفر بنعمه، ولا ينكر وجوده وقيُّوميته عليه وعلى كل موجود.

ومن الأدلة على الأمر بالعدل مع الأعداء قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله، شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددتُ لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمري، ولا يحملنكم عداوة قوم على أن لا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة»(١).

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافرًا أو مبتدعًا، فإنه يجب العدل فيه وقبول ما يأتي به من الحق لأنه حق لا لأنه قاله ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق»(٢).

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ﴾[المائدة: ٨].

فهو من أعظم أنواع العدل، وأسمى مكارم الأخلاق والفضل، وهو أن تعدل في عدوك ولا تظلمه؛ لأن النفس تنزع للإيقاع بمن يعاديها؛ فضبطها بحدود ثابتة وأسس

---

(١) جامع البيان (٨/ ٢٢٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢٢٤).

راسخة متينة يجعلها تقف مكانًا تجتنب فيه الجور وعدم الإنصاف، بمن وقع معه العداوة والخلاف= وهذا من أعظم العدل وأسمى درجات الفضل.

المسألة الثانية: الأمر بعدم الاعتداء عليهم.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾[المائدة: ٢].

«أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم طلبًا للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جُنِي عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه»(١).

ومن أدلة النهي عن الاعتداء عليهم أيضًا قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٩٠].

فقد شرع الله تعالى قتال الكافرين، وحرم الاعتداء عليهم؛ فمنع قتل من لا يقاتِل؛ من النساء، والمجانين والأطفال، والرهبان ونحوهم، أو التمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، أو مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها، أو قطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين(٢).

كما أمر الله تعالى أن لا يؤخذ الإنسان بجريرة غيره، فلا يجوز أن يعاقب بريء بسبب ارتكاب آخر جريمة من الجرائم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢١٨).

(٢) انظر: المصدر السابق (٨٩).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

أي: لا يجوز أن تحمل نفسٌ آثمة إِثمَ نفسٍ أُخرى؛ بل كل نفس بما كسبت رهينة. فالنفوس إنما تجازى بأَعمالها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر[١].

ولما نهى عن الاعتداء عليهم بالفعل، كذلك حرم الاعتداء عليهم بالقول؛ فكل كلام فيه ظلم وتعدٍّ بغير وجه حق؛ كالشتم واللعن والكذب والبهتان والنبز بالألقاب ونحو ذلك= فهو محرم لا يجوز، وهو من الجهر بالسوء من القول، قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك، ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم، والقذف، والسب، ونحو ذلك؛ فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله، ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول؛ كالذكر والكلام الطيب اللين»[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، أي: قولوا للناس قولًا لينًا فيه الأدب الحسن الجميل، والخلق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه[٣].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أُمِرَ بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى

(١) انظر: جامع البيان (١٠/ ٤٨)، والتفسير الوسيط (٣/ ١٣٦٩). وسيأتي معنا في المطلب التالي مزيد بيان لهذه الصورة إن شاء الله.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢١٢).

(٣) انظر: جامع البيان (٢/ ١٩٦).

هِىَ أَحْسَنُ ﴾[العنكبوت: ٤٦].

ومن الأدب الذي أدب الله به عباده، **أن يكون العبد نزيهًا في أقواله وأفعاله**، غير فاحش **ولا بذيء ولا شاتم ولا مخاصم**؛ بل يكون حسن الخلق واسع الحلم، مجاملًا لكل أحد، صبورًا على ما يناله من أذى الخلق، امتثالًا لأمر الله، ورجاءً لثوابه»[(١)].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[الإسراء: ٥٣]. أي: يتخيروا من الكلام أحسنه وأطيبه، فهو أدعى للقبول، وأرجى للفوز بالمأمول.

مع التنبيه على أن كل ما تقدم من عدم ظلم المخالف، والتعدي عليه، والعدل معه، وطيب الخلق، وحسن القول بحقه= يجب أن يقيد بقيد مهم، وهو: أن لا يظن ذلك المخالف أو غيره أن من وراء ذلك مداهنة له، أو أنه مرضي المذهب.

ولذا قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هذه المسألة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[البقرة: ٨٣] «وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينًا، ووجهه منبسطًا طلقًا، مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يُرضي مذهبه»[(٢)].

وهنا يحسن التنبيه إلى مسألة مهمّة: وهي الفرق بين المدَاراة والمداهنة.

فالمداراة هي من أخلاق المؤمنين، وذلك بخفض الجناح للناس، ولين الكلام معهم، وترك الإغلاظ عليهم في القول، وهذا من أقوى أسباب الألفة.

ومن ظن أن المداراة هي بمعنى المداهنة فقد غلط؛ لأن المداراة مندوب إليها؛ وهي صفة حسن ومدح، والمداهنة محرمة وهي صفة ذم وقبح.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٦).

وقد ذكر العلماء أقوالًا في الفرق بين المداراة والمداهنة، منها:

قول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفرق أن المداهنة من الدِّهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك»(١).

وقال القرطبي في الفرق بينهما: «أنَّ المدَاراة: بذل الدنيا لصلاح الدنيا، أو الدين، أو هما معًا، وهي مباحة، وربما استحبت.

والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا»(٢).

وقال صاحب الإحياء: «الفرق بين المدَاراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيتَ لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيتَ لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتِك، وسلامة جاهك فأنت مداهن»(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المداري: يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن: يتلطف به ليقره على باطله و يتركه على هواه. فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق»(٤).

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٥٤).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/ ١٨٢).

(٤) كتاب الروح (٢/ ٦٥٢).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن[(١)]: «وأما الفرق بين المداراة والمداهنة؛ **فالمداهنة**: ترك ما يجب لله؛ من الغيرة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتغافل عن ذلك، لغرض دنيوي، وهوى نفساني...فالاستئناس والمعاشرة مع القدرة على الإنكار= هي المداهنة...

وأما المداراة فهي: درء الشر المفسد بالقول اللين، وترك الغلظة، أو الإعراض عنه إذا خيف شره، أو حصل منه أكبر مما هو ملابس»[(٢)].

ومن أمثلة المداراة ما ورد عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أن رجلًا استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال: (بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة) فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه؟ فقال رسول الله ﷺ: (يا عائشة، متى عهدتني فحاشًا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره)»[(٣)].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وصْفُ النبي ﷺ له بأنه بئس أخو العشيرة من أعلام

---

(١) هو العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب ولد في بلدة الدرعية، ثم انتقل إلى مصر وبقي فيها مدة (٣١) سنة يتلقى العلم على العلماء الأفاضل فيها، ثم رجع إلى نجد واستقر في الإحساء لمدة سنتين ينشر دعوة التوحيد فيها، وبعد ذلك انتقل إلى الرياض، وله جمع من طلاب العلم، وله مصنفات في التوحيد ومختلف العلوم، توفي سنة (١٢٩٣هـ). انظر مشاهير علماء نجد (٧٠ - ٩٤).

(٢) الدرر السنية (١٠/ ٧٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب: لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا. برقم (٦٠٥٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب مداراة من يتقى فحشه، برقم (٢٥٩١).

النبوة، لأنه ظهر كما وصف، وإنما ألان له القول تألفًا له ولأمثاله على الإسلام.

وفي هذا الحديث مداراةُ من يُتقى فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه»[(١)].

والخلاصة: أن العدل واجب مع كل أحد، والظلم محرم على كل أحد، وأن مقابلة الاعتداء والإساءة ينبغي أن تكون بقدرها التي حدَّها الشارع، ولا يزاد عليه حتى لا تنقلب ظلمًا واعتداءً.

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٤٤).

المطلب الثالث

صور للعدل والإنصاف مع المخالفين في القرآن الكريم

تقدم فيما مضى بيان أن الله تعالى أمر بالعدل، وحرم الظلم على نفسه، وحرمه على عباده، وبيَّن سبحانه أنه لم يظلم أحدًا، وأن من ظلموا أنفسهم هم الذين عصوا أمره، وخالفوا هديه.

وفي هذا المطلب أبيِّن ذلك بذكر بعض صور العدل والإنصاف في القرآن الكريم وذلك في مسألتين:

المسألة الأولى: صور من العدل والإنصاف في أفعال الله تبارك وتعالى.

ينبغي أن يُعلم أن الله سبحانه - كما قال غير واحد من السلف- لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا منه؛ بل أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما نهاك عن المعاصي حماية لك وصيانة لك لا بخلًا منه عليك، وإنما أمرك بالطاعة رحمة وإحسانًا لا حاجة منه إليك»(٢).

وأقوال الله تبارك وتعالى صدق، وأفعاله دائرة بين العدل والفضل وبمقتضى الحكمة؛ فهي كلها أفعال رشيدة، وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه أحكام عادلة لا ظلم فيها بوجهٍ من الوجوه، وكذلك أحكام الجزاء والثواب والعقاب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبر [الله] عن عموم قدرته تعالى، وأن الخلق كلهم تحت تسخيره وقدرته، وأنه آخذ بنواصيهم فلا محيص لهم عن نفوذ مشيئته وقدرته فيهم.

---

(١) جامع الرسائل (٢/ ٣٦٥) بتصرف.

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٢١٣).

ثم عقَّب ذلك بالأخبار عن تصرفه فيهم وأنه بالعدل لا بالظلم، وبالإحسان لا بالإساءة، وبالصلاح لا بالفساد؛ فهو يأمرهم وينهاهم إحسانًا إليهم، وحماية وصيانة لهم، ولا حاجة إليهم ولا بخلًا عليهم؛ بل جودًا وكرمًا ولطفًا وبرًّا ويثيبهم إحسانًا وتفضُّلًا ورحمة لا لمعاوضةٍ واستحقاقٍ منهم، ودين واجب لهم يستحقونه عليه ويعاقبهم عدلًا وحكمة لا تشفِّيًا ولا مخافة ولا ظلمًا»[١].

وصور عدله في القرآن الكريم كثيرة جدًّا، أذكر منها ثلاث صور:

الأولى: أن الله تعالى لا يُعذب العباد حتى يقيم الحجة عليهم.

فإنه سبحانه لم يخلق العباد عبثًا، ولم يتركهم هملًا، بل خلقهم للعبادة وأمرهم بالطاعة، وخلقهم على الفطرة البيضاء النَّقية القائمة على إفراده بالعبادة، والإخلاص له بالطاعة. وعندما انتكست هذه الفطرة، وانحرفت عن مسارها - وذلك بالشرك والفجور والعصيان - أرسل الله تعالى الرسل وأنزل عليهم الكتب، ليردَّ من انتكست فطرته، وانحرفت مسالكه إلى الطريق القويم والصراط المستقيم، الذي أوجبه الله على العباد أجمعين.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء: ١٦٥]. أي: «أن الله تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر»[٢]، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[طه: ١٣٤]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٥٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٥).

﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[القصص: ٤٧].

وقد ثبت عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا أحدَ أغيرُ من الله؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله؛ من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين). وفي لفظ: (من أجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه)(١).

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء: ١٥]. أي: وما كنا لنهلك قومًا إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم(٢).

ومن هذه الصورة يتضح أن من كمال عدل الله تعالى أنه أقام الحجة، وأبان المحجة، وقطع كل عذر يتعلل به المخالفون كي يقيهم من حسابه ويجنبهم أليم عذابه.

الصورة الثانية: أن الله تعالى لا يعاقب إلا بذنب.

فهو عدل لا يضع الأشياء في غير موضعها، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يجزي أحدًا إلا بذنبه.

وقد كثرت الأدلة على ذلك؛ منها:

قوله الله ﷻ: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾[الأنفال: ٥٢]. أي: أهلكهم بسبب جرائمهم، والأخذ هنا الإهلاك، وقد فسرت

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١] برقم (٤٦٣٤)، ومسلم، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، برقم (٢٧٦٠).

(٢) جامع البيان (١٤/ ٥٢٦٦).

بقوله الله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[الأنعام: ٦]، «أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها»[١].

ولا يوجد في كتاب الله تعالى أن الله أهلك قومًا أو عذبهم ولم يقترفوا ذنبًا؛ بل إن من كمال حكمته وعدله أنه يمهلهم سبحانه ولا يباشرهم العذاب إلا حينما لا تنفعهم تذكرة المنذرين، ونذارة المذكِّرين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩]. فنزه نفسه سبحانه عن الظلم؛ وذلك بأن يعذب قومًا ولم تسبقهم النذارة، ويستبين لهم الخير من الشر، والحق من الباطل.

وعليه فكل ما يصيب الإنسان من الشرِّ والضُرُّ هو بسبب ما اقترفت يداه من الشرور والآثام.

وقد بيَّن الله تعالى أن سبب عذاب الكفار، وضربهم على وجوههم وأدبارهم، وزجهم في النار= هو بسبب ما عملت أيديهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[الأنفال: ٥٠-٥١].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي ذوقوا عذاب الحريق بما أسلفت أيديكم، واكتسبتها أيام حياتكم في الدنيا، وبأن الله عدل لا يجور؛ فيعاقب عبدًا له بغير استحقاق منه العقوبة، ولكنه يجازي كل نفس بما كسبت، ويوفي كل عامل جزاء ما عمل»[٢].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يُجزى بالسيئات إلا من فعل السيئات، ولا يُوقع

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤١).

(٢) جامع البيان (٦/ ٢٨٣).

النقم ويسلب النعم إلا من أتى بالسيئات المقتضية لذلك، كما فعل بمن خالف رسله من جميع الأمم»[(١)].

ويلحق بهذه الصورة: أن من كمال عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه لا يهضم لأحد شيئًا من حسناته، ولا يظلمه فيزيد عليه في سيئاته من سيئات غيره، أو بدون فعل ذنب؛ بل من ﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، وأنه لا ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩][(٢)].

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] أي: لا يُحْمَل عليه ذنب غيره، ولا يخاف أن ينقص من حقه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا يخاف من الله أن يظلمه فيحمل عليه سيئات غيره فيعاقبه عليها، ولا يخاف أن يهضمه حسناته فينقصه ثوابها»[(٣)].

وهذا فيما إذا توفر شرط الإيمان، أما لو كان كافرًا فليس له حسنات يؤجر عليها لأن الكفر يحبطها.

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٥ – ١٠٦].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحبطت بسبب ذلك ﴿أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح،

---

(١) جامع الرسائل (١/ ١٣٤).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٦٥).

(٣) جامع البيان (١٦/ ١٧٥).

وهـؤلاء لا حسـنات لهـم لعـدم شـرطها، وهـو الإيمـان، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾[طه: ١١٢]. لكـن تعـد أعمـالهم وتحصـى، ويُقرَّرون بها، ويخـزون بهـا علـى رؤوس الأشـهاد، ثـم يعـذبون عليهـا، ولهـذا قـال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ﴾[الكهف: ١٠٦]، أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهـم يـوم القيامـة وزنًـا، لحقـارتهم وخستهم، بكفرهـم بآيـات الله، واتخـاذهم آياتـه ورسـله، هـزوا يسـتهزئون بهـا، ويسـخرون منها»[١].

ومن الأمثلة على كمال عدل الله تبارك وتعالى: عدله فيمن لم تبلغه دعوة الإسلام.

كمثل من مـات مـن أطفـال المشـركين، أو مـن مـات ولـم تبلغـه دعـوة الرسـل علـيهم السلام وهم الذين يُسمَّون (أهل الفترة)[٢].

ففـي الـراجح مـن كـلام العلمـاء[٣]: أن أطفـال المشـركين وأهـل الفـترة يمتحنـون في عرصـات القيامـة، ويرسـل الله إلـيهم رسـولًا وإلـى كـل مـن لـم تبلغـه الـدعوة، فمـن أطـاع الرسـول دخـل الجنـة، ومـن عصـاه أدخلـه النـار؛ وعلـى هـذا فيكـون بعضـهم في الجنـة

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٨٧).

(٢) ذكر السيوطي أن أهل الفترة: «هم الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول، ولا أدركوا الثاني كالأعراب الذين لم يرسل إليهم عيسى عليه السلام ولا لحقوا النبي ﷺ. والفـترة بهذا التفسير تشمل ما بين كل رسولين، ولكن الفقهاء إذا تكلموا في الفترة فإنما يعنون التي بين عيسى والنبي ﷺ». الحاوي في الفتاوي (٢/ ١٩٨).

(٣) لأنه كثر حولها الخلاف وطال فيها الكلام، وقد بسط القول فيها غير واحد من العلماء؛ ومن أبرزهم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب: «أحكام أهل الذمة»، وكذلك في «طريق الهجرتين». يرجع إليهما للاستزادة فيها.

وبعضهم في النار[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وقد اختلف الأئمة - رحمهم الله - تعالى قديمًا وحديثًا في الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته؛ وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه»[٢].

ثم ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ عشرة أحاديث في هذه المسألة، ورجَّح أنهم يمتحنون يوم القيامة حيث قال: «... وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضه لبعض...»[٣].

ومن الأدلة على ذلك:

الاستدلال بعموم الآيات الدالة على نفي التعذيب قبل بلوغ الحجة كما مر آنفًا، كقوله تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ [الملك: ٨ - ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] وغيرها من الآيات.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية: «والله تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه؛ استدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (٢/ ٨٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٣) بتصرف يسير.

(٣) المصدر السابق (٥/ ٥٨).

المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولًا؛ لأنه منزه عن الظلم»[(١)].

وكذلك الاستدلال ببعض ما جاء عن النبي ﷺ في شأن أهل الفترة ومن لم تبلغه الدعوة ومن أشهرها قوله ﷺ: (يكون يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئًا، ورجل أحمق، ورجل هرم ورجل مات في فترة فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئًا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا)[(٢)].

الصورة الثالثة: أن الله تعالى لا يسوي بين الأخيار والفجار، وبين الصالحين والطالحين.

وهذه صورة عظيمة من صور العدل والإنصاف؛ إذ كيف يسوي الله تعالى – وهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين – بين من اختلفت أعمالهم، وتباينت أفعالهم؛ بالخير والشر، والحق والباطل.

ومن ظن أن الله تعالى يفعل ذلك، فقد أعظم عليه الفرية، ونسبه إلى الجور والظلم في الحكم، فنعوذ بالله من فساد القلب، وضلال الفهم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فدل على أن التسوية بين هذين المختلفَين من الحكم السيء الذي ينزه عنه، وأن ذلك منكر لا يجوز نسبته إلى الله تعالى، وأن من جوز ذلك

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٥٥).

(٢) رواه أحمد برقم (١٦٣٠١)، والبيهقي في الاعتقاد والهداية صـ(١١١)، وابن أبي عاصم في السنة عن أبي هريرة (١/ ١٧٦)، وصححه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (١/ ١٧٦)، والسلسلة الصحيحة (٣/ ٤١٨) برقم (١٤٣٤).

فقد جوز منكرًا لا يصلح أن يضاف إلى الله تعالى»[١].

قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦].

أي: أيجعل الله أهل كرامته ونعمته في الآخرة الذين خضعوا له بالطاعة، وذلوا له بالعبودية، وخشعوا لأمره ونهيه= كالمجرمين الذي اكتسبوا المآثم، وركبوا المعاصي، وخالفوا أمره ونهيه؟؛ حاشا وكلا أن يفعل الله ذلك، وهو - سبحانه - أحكم الحاكمين وأعدل العادلين[٢].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه فاسد»[٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: أن هذا حكم سيء، والحكم السيء هو الظلم الذي لا يجوز؛ فعُلم أن الله تعالى منزه عن هذا.

ومن قال: إنه يسوي بين المختلفَين، فقد نسب إليه الحكم السيء، وكذلك تفضيل أحد المتماثلَين؛ بل التسوية بين المتماثلَين، والتفضيل بين المختلفَين= هو من العدل

(١) منهاج السنة (٥/ ١٠٧).

(٢) انظر: جامع البيان (٢٣/ ١٨٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٨٨٠).

والحكم الحسن الذي يوصف به الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»(١).

وأيضًا من الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، فتبارك الله أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين.

المسألة الثانية: العدل والإنصاف فيما أمر الله تعالى عباده في معاملة أهل العداوة والخلاف.

أمر الله تعالى عباده بالعدل والإنصاف فيما بينهم، وحرم الظلم عليهم، ولا يقتصر ذلك فيما بين أهل الحق أنفسهم؛ بل هو كذلك حين معاملة أهل الباطل وغيرهم.

وهذه بعض الصور للعدل والإنصاف التي أمر الله تعالى بها في القرآن الكريم:

الصورة الأولى: العدل والإنصاف في القول حين الحكم.

هي صورة عظيمة من صور العدل والإنصاف في القرآن الكريم، فالله ﷻ أمر أهل الحق أن يقولوا كلمة الحق ولو على أنفسهم، أو على من يحبون؛ فلا ينبغي أن تحمل المؤمنَ صلةُ القرابة أو الصداقة على قول الباطل أو الكذب على المخالف، ولا الشهادة ضده إذا كان مظلومًا، أو نسبةَ قول له وليس بقائله ونحو ذلك؛ فهذا كله من الظلم الذي لا يرضاه الله تعالى ويعاقب عليه.

ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[الأنعام: ١٥٢].

أي: «إذا حكمتم بين الناس فتكلمتم، فقولوا الحق بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا ولو كان الذي يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة لكم، ولا يحملنكم قرابة قريب

---

(١) منهاج السنة (٥/ ١٠٧).

أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه»[١].

ولذلك وجب الإنصاف حين الحكم، والصدق حين الشهادة، وأن لا يُمال لطرف دون آخر حين الوساطة بين الخصوم.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[الأنعام: ١٥٢] يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: إذا حكمتم فأنصفوا.

الثاني: إذا شهدتم فاصدقوا.

الثالث: إذا توسطتم فلا تميلوا»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعدل في المقال هو الصدق والبيان الذي هو ضد الكذب والكتمان»[٣].

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[النساء: ١٣٥]. وذلك أن تكون الشهادة لله بالحق، ولا يُلتفت فيها إلى صلات القربى، وروابط الصحبة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ...﴾ الآية.

أي: قائمون بالعدل لله عند شهادتكم، ولو كانت هذه الشهادة على أنفسكم، أو على والديكم أو أقربيكم، فينبغي أن تكون بالقسط والعدل، وأن يُقال فيها الحق، ولا يُمال

---

(١) جامع البيان (٩/ ٦٦٦).

(٢) النكت والعيون (٢/ ١٨٨).

(٣) المستدرك على مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠٣).

فيها لقريب على عدو بسبب قرابته، ولا لفقير على غني بسبب فقره وحاجته، ولا لغني على فقير لماله وثروته؛ فإن الله تعالى قد سوى بين العدو والصديق، والقريب والبعيد، والغني والفقير= في الحكم، وأمر بالتسوية بينهم في الشهادة لهم وعليهم، وأمر أن لا تُتَّبع أهواءُ النفس في الميل فيها.

فيقال الحق ويشهد بالصدق دون النظر إلى العلاقة التي تربط بين الظالم أو المظلوم؛ من قرابة أو صداقة أو عداوة(١).

وقد تجتمع صفتان أو أكثر في الشخص الذي سيقال فيه أو يشهد عليه؛ فقد يكون قريبًا وغنيًّا معًا فتقوى حميَّة القرابة، ويُطمع في غناه، أو قد يكون فقيرًا يُرَق لحاله، فتكون النفس مائلة لنصرته ولو كان ظالمًا.

وقد تجتمع العداوة والفقر أو الغنى في شخص، فتميل النفس للشهادة ضده لفقره وعداوته، أو يُحسد لغناه وثروته ويكون أدعى لظلمه وهضم حقه وقضمه.

فنهى الله تعالى عن كل ذلك، وأمر بالعدل والإنصاف، وحرم الظلم والإجحاف؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل: ٩٠] ولا شك ولا ريب أن الظلم سواء كان للمخالف أو الموافق هو من المنكر والبغي الذي حرمه الله تعالى.

الصورة الثانية: عدم التعميم في إطلاق الأحكام.

فمن العدل والإنصاف التفريق بين المخالفين إذا تباينوا في الشر، وعدم وضعهم في خانة واحدة؛ بل هذا من الظلم الذي لا ينبغي أن يقع فيه أهل الحق.

ولا يمنع أهلَ الحق خلافُهم مع أهل الباطل إنصافَهم؛ وذلك بالتفريق بين خيِّرهم

---

(١) انظر: جامع البيان (٧/ ٥٨٥).

وشريرهم، وبين مقاتلِهم – سواء باللسان أو السنان – ومسالمِهم.

ولـذلك فـرق الله تعـالى بـين الأخيـار والأشـرار مـن أهـل الكتـاب، وبـيَّن أن مـنهم أصحاب أمانة، وأن منهم أهل فجور وخيانة.

قـال تعـالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[آل عمران: ٧٥].

بيَّن الله أن أهل الكتاب لم يكونوا في المعاملة المالية مع العرب على خلق واحد؛ فمنهم أُمناء يـؤَدون الحـق إلـى مـن اسـتأمنهم عليـه ولـو كـان مـالًا كثيـرًا، ومـنهم خَوَنَـةٌ يجحدون أمانات العرب التي استأمنوهم عليها ولـو كانـت مـالًا قليلًا – ولا يؤَدونها إلا بتكرار المواجهة والمطالبة[1].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الخبر من الله ﷻ أن مـن أهـل الكتـاب – وهـم اليهـود مـن بني إسرائيل – أهـل أمانـة يؤدونهـا ولا يخونونهـا، ومـنهم الخـائن أمانتـه، الفـاجر في يمينـه المستحل»[2].

وهذا لا يعني أن نسلم لهم أمورنا، ونأمَنهم على ما بين أيدينا وصدورنا؛ بل يجب أن يكون المسلم منهم على نباهة وحذر، فغالب هؤلاء لا تـؤمن غـوائلهم، لمـا يحملـون مـن صفات الغدر والخيانة، وبغضهم للإسلام والمسلمين.

ومن الأدلة أيضًا على هذه الصورة: تفريق الله تعالى بين مؤمني أهل الكتاب وكافريهم، في قوله: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

---

(١) انظر: التفسير الوسيط (١/ ٥٩٩).

(٢) جامع البيان (٥/ ٥٠٨).

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١١٣ – ١١٥].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بين حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه»(١).

وهذا من العدل والإنصاف أنْ فرَّق بينهم ولم يجعلهم في صف واحد، وبحكم واحد.

ومن أمثلة هذه الصورة أيضًا: التفريق بين المحاربين والمسالمين وعدم جعلهم في مرتبة واحدة.

ومنه قوله الله ﷻ: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الممتحنة: ٨ – ٩].

فقد بيَّن الله تعالى أن هناك صنفين من الأعداء وقسمين من المعاملة:

الصنف الأول: أعداء لم يقاتلوا المسلمين في دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم، فهؤلاء لم ينهَ الله المسلمين عن برهم والإقساط إليهم.

والصنف الثاني: قاتلوا المسلمين، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم، وهؤلاء نهى الله المسلمين عن موالاتهم. وكلاهما عدو؛ لكنه فرَّق بين الصنفين، و فرق بين الإذن بالبر والقسط، وبين النهي عن الموالاة والمودة(٢) (١).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٩٧٢).

(٢) أضواء البيان (٨/ ٩٠).

الصورة الثالثة: المعاقبة على قدر الإساءة وعدم التعدي في الحكم.

وهي صورة عظيمة من صور العدل والإنصاف، وذلك بأن يعاقب المجرمون على قدر إساءتهم وجرمهم، وأن لا يُزاد في العقاب على القدر الذي أجرموا فيه.

وأبيِّن ذلك في مثالين:

الأول: النهي عن التعدي في القتال:

فأباح الله تعالى قتال الأعداء، وحرم الاعتداء عليهم؛ فقال: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[البقرة: ١٩٠].

أي: لا تعتدوا عليهم بوجوه الاعتداء التي حرمها الله عليكم، كالغدر بهم، والتمثيل بقتلاهم، وقتل أطفالهم ونسائهم وشيوخهم غير المحاربين، وانتهاك أعراضهم، وغير ذلك مما حرمه الله تعالى.

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال: (اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر

=

(١) ومن هنا يظهر ضلال الحمقى الخوارج الذين استحلوا دم كل كافر، ولم يفرقوا بين المحاربين والمسالمين منهم، ليُترجموا عن ضلالهم السافر، وإجرامهم الغادر بما نراه اليوم من التنكيل والتفجير، بالآمنين غير المحاربين من الكافرين، ثم زاد بهم الحال أن سلم من شرهم وضرهم العدو المحارِب، ولم يسلم منهم المسلم المحارَب، فأعملوا مفخخاتهم الغادرة، لتصنع من أجساد المسلمين أشلاءً، وتريق من دمائهم إيراقًا، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد خرجت جماعات غالية جدًّا حملوا فكر الخوارج وامتهنوا القتل واحترفوا فيه، ومنهم من يُسمون بـ (داعش) وأشباههم الذين زادوا على أهل العراق والشام بلاءهم ومحنتهم، فذبحوا شبابهم وقتلوا أطفالهم، وأعانوا العدو الأصلي عليهم، وكانوا الدابة التي ركب عليها الرافضة لقتل المسلمين واستئصال شأفتهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

بالله؛ اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا)[(١)].

وأيضًا حديث الأسود بن سريع[(٢)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت رسول الله ﷺ، وغزوت معه فأصبت ظهرًا، فقتَلَ الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان - وقال مرة: الذرية - فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: (ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟). فقال رجل: يا رسول الله، إنما هم أولاد المشركين، فقال: (ألا إن خياركم أبناء المشركين)، ثم قال: (ألا لا تقتلوا ذرية، ألا لا تقتلوا ذرية). ثم قال: (كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يعرب عنها لسانها، فأبواها يهوِّدانها وينصِّرانها)[(٣)].

الثاني: النهي عن التعدي عند إقامة الحكم القضائي.

وقد كثرت الآيات في ذلك؛ منها:

١- قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤].

٢- وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠].

٣- وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: ٢٧].

٤- وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو، برقم (١٧٣١).

(٢) هو الأسود بن سريع التميمي، كان شاعرًا وكان في أول الإسلام قصاصًا، توفي في عهد معاوية، وقيل مات سنة (٤٢ هـ). انظر الإصابة لابن حجر (١/ ٢٤).

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم (١٥٥٨٩)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٧٥٩) برقم (٤٠٢).

٥- وقوله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

فذكر الله مراتب العقوبات، وأنها ثلاث: عدل وفضل وظلم.

فأما مرتبة العدل: فهي جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقصان، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يُضمن بمثله.

وأما مرتبة الفضل: فهي العفو والإصلاح عن المسيء، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فإن الله يجزيه أجرًا عظيمًا، وثوابًا كثيرًا.

وشرَطَ اللهُ في العفو الإصلاحَ فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته= فإنه لا يكون مأمورًا به في هذه الحال.

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم: فقد ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم(١).

فإنه يحق لمن اعتُديَ عليه أن يعتدي بالمثل، مالم يكن محرَّما؛ فلا يجوز لمن انتهك عرضه أن ينتهك عرض المنتهك، ولا يجوز لمن أوذي واعتدي عليه بالحرق أن يقتص بمثله.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٧٦٠).

قال شيخ الإسلام: «فإن كان العدوان عليه في العرض محرَّمًا لحقه؛ لما يلحقه من الأذى= جاز الاقتصاص منه بمثله؛ كالدعاء عليه بمثل ما دعاه؛ وأما إذا كان محرَّمًا لحق الله تعالى؛ كالكذب لم يَجُزْ بحال، وهكذا قال كثير من الفقهاء: إذا قتله بتحريق أو تغريق أو خنق أو نحو ذلك فإنه يفعل به كما فعل ما لم يكن الفعل محرَّمًا في نفسه كتجريع الخمر واللواط به. ومنهم من قال: لا قود عليه إلا بالسيف. والأول أشبه بالكتاب والسنة والعدل»(١).

وهنا قد يأتي إشكال وهو: كيف تُردُّ السيئة بالسيئة والاعتداء بالاعتداء كما تقدم في الآيات ؟

فالجواب: أن الأولى من صاحبها سيئة، إذْ كانت معصية منه لله تبارك وتعالى، وأن الأخرى عدل لأنها من الله؛ فهي جزاء للعاصي على المعصية؛ فهما وإن اتفقا لفظًا لكنهما اختلفا معنًى.

ثم إنه من العدل والإنصاف أن يكون جزاء السيئة بما يماثلها؛ **إذ النقصان حيف، والزيادة ظلم**.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] **فإن العدوان الأول ظلم، والثاني جزاء لا ظلم**، بل هو عدل؛ لأنه عقوبة للظالم على ظلمه وإن وافق لفظه لفظ الأول(٢).

الصورة الرابعة: أن لا يؤخذ البريء بذنب المسيء.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٨١).

(٢) جامع البيان بتصرف (١/ ٣١٤)، وانظر: النكت والعيون (٥/ ٢٠٧)، وتفسير القرآن العظيم (١/ ١٨٤)، ومحاسن التأويل (٨/ ٣٧٢).

فإنه من الظلم أن يعاقب البريء بجريرة غيره، وقد نهى الله عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ومن الأمثلة على هذه الصورة قول يوسف عليه السلام حينما طلب إخوته منه أن يأخذ أحدهم - غير الذي وجد الصواع في رحله - فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٧٩]. فجعل أخذ البريء بذنب المسيء ظلمًا ينافي العدل.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده»[١].

ويروى أنه جاء رجل إلى الحجاج[٢] فقال: إن أخي خرج مع ابن الأشعث[٣]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٠٣).

(٢) هو: الحجاج بن يوسف الثقفي، كان ظالمًا، سفاكًا للدماء، ذا شجاعة ومكر ودهاء وفصاحة وبلاغة، رمى الكعبة بالمنجنيق، مات بواسط سنة (٩٥هـ).

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمته: «فَنَسُبُّه ولا نحبه، بل نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء». انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣)، وتهذيب التهذيب (٢/ ٢١٠)، والأعلام (٢/ ١٦٨)، وغيرهم.

(٣) هو: عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، أمير سجستان، خرج على الدولة الأموية، فقاتله الحجاج، وجرى بينهما عدة وقعات، انتصر بها ابن الأشعث، وقد دامت الحرب بينهما أشهرًا، وقتل خلق من الفريقين، وفي آخر الأمر انهزم جمع ابن الأشعث، وقتل سنة (٨٤هـ). قيل قتله الحجاج، وقيل قتله الملك رتبيل بعد أن فر إليه، وهدده الحجاج إما يقبض عليه أو يقتله، فقتله رتبيل وبعث برأسه للحجاج. انظر ترجمته: في تاريخ الإسلام (٣/ ٢٧٣)، =

فضُرِبَ على اسمي في الديوان، ومُنعْتُ العطاء، وقد هُدِّمت داري، فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر: [البحر الكامل المرفَّل]

جانيكَ من يجني عليك وقد تُعدي الصِّحاحَ مبارك الجُرْبِ
ولرُبَّ مأخوذ بذنب قريبه ونجا المقارفُ صاحب الذَّنْبِ

فقال الرجل: أيها الأمير! إني سمعت الله يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هذا، قال: وما قال؟.

قال: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٨ - ٧٩] قال: يا غلام؛ أعد اسمه في الديوان وابنِ داره، وأعطه عطاءه، ومُرْ مناديًا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾[يوسف: ٧٩] = نكتة بديعة في مسألة جواز استخدام المعاريض خشية الوقوع في الكذب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتأمل قول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾[يوسف: ٧٩] ولم يقل: إلا من سرق؛ وهو أخصر لفظًا تحرِّيًا للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقًا بوجه، وكان المتاع عنده حقًّا، فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها»[(٢)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحب أن يطلع عليه= أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف

=

والسير (٥/ ١٠٢)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٠٢)، وشذرات الذهب (١/ ٩٤).

(١) ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ١٤٤)، وابن كثير في البداية والنهاية (٩/ ١٤٤).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ٢١٥).

حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها منه، موهمًا أنه سارق وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل: (من سرق متاعنا)، وكذلك لم يقل: (إنا وجدنا متاعنا عنده)؛ بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال»(١).

الصورة الخامسة: التثبت قبل إطلاق الحكم.

وفيه مثالان:

الأول: التثبت قبل القتل لمن ألقى السلاح مسلِّمًا، وذلك في المعركة.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾[النساء: ٩٤].

أي: إذا سِرتُم مسيرًا لله في جهاد أعدائكم فتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا من التبس عليكم أمره، ولا تتقدموا على قتل أحد إلا على قتل من علمتموه - يقينًا - حربًا لكم ولله ولرسوله.

ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم، مظهرًا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم: لست مؤمنًا؛ فتقتلوه ابتغاء طلب متاع الحياة الدنيا، فإن عند الله مغانم كثيرة من رزقه وفواضل نعمه، فهي خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٠٧). وما فعله النبي يوسف عليه السلام هو من الكيد الذي قابل به إخوته لما كادوا له في صغره؛ وسيأتي ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب في المحث السادس.

(٢) جامع البيان (٧/ ٣٥١) بتصرف يسير.

قـال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فـأمرهم بـالتبين والتثبـت في الجهـاد، وأن لا يقولـوا للمجهول حاله: لست مؤمنًا، يبتغون عرض الحياة الدنيا، فيكون إخبارهم عن كونه ليس مؤمنا خبرًا بلا دليل؛ بل لهوى أنفسهم ليأخذوا ماله، وإن كان ذلك في دار الحرب إذا ألقى السلم.

وفي القراءة الأخرى: (السلام) فقد يكون مؤمنًا يكتم إيمانه كما كنتم أنتم من قبل مؤمنين تكتمون إيمانكم، فإذا ألقى المسلِّم السلام فذكر أنه مسالم لكم لا محارب= فتثبتوا وتبينوا؛ لا تقتلوه ولا تأخذوا ماله حتى تكشفوا أمره هل هو صادق أو كاذب»[١].

ولذلك عاتب النبي ﷺ أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عتابًا شديدًا حينما قتل رجلًا من الكفار نطق بالشهادة.

فعن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقة[٢]، فصبحْنا القوم فهزمناهم، ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ، فقال: (يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله) قلت: كان متعوذًا، فما زال يكررها، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»[٣].

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: (أقال لا إله إلا الله وقتلته؟) قال: «قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: (أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم

---

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٤٥٦).

(٢) الحرقة: بضم الحاء المهملة وفتح الراء: بطنٌ من جُهينة؛ القبيلة المعروفة.

(٣) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، برقم (٤٢٦٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله: لا إله إلا الله؛ برقم (٩٦).

لا؟) فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[١].

المثال الثاني: التثبت في الحكم بعد سماع خبر الواشي ونحوه.

ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦]، أي: فتثبتوا؛ كما في قراءة أخرى[٢].

فقد أمر الله تعالى «بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون - في نفس الأمر-كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه؛ وقد نهى الله عن اتباع سبيل المفسدين»[٣].

وقول الله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦].

أي: لئلا تصيبوا قومًا بجناية أو مكروه، فتحملوا في أعناقكم الإثم، وفي قلوبكم الحسرة والندامة.

وهكذا يتبيَّن عدل أهل الحقِّ في معاملتهم لمن خالفهم، والذي يجمع بين إحقاق الحق ورحمة الخلق.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد قوله: لا إله إلا الله؛ برقم (٩٦).

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف؛ انظر: الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي (٣/ ١٧٣)، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢/ ٢٥١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٠).

المبحث الثاني

تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بمجادلتهم بالتي هي أحسن

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: توجيه القرآن الكريم المؤمنين لمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن.

المطلب الثاني: أصول مجادلة المخالفين كما أوضحه القرآن الكريم.

المطلب الثالث: مقاصد مجادلة المخالفين في القرآن الكريم.

المطلب الأول

توجيه القرآن الكريم المؤمنين لمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن

من المعلوم أن أهل الباطل لا يجدون بُدًّا، ولا يدخرون جهدًا في الوقوف في وجه أهل الحقِّ، وفي طريق سيرهم في دعوتهم إلى الله تبارك وتعالى.

فالمعركة بين الحقِّ والباطل قائمة لا تنتهي، ماضية لا تنقضي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد تنوَّعت أساليب أهل الباطل في خصومتهم لأهل الحقِّ، ما بين استخدام السِّنان واللسان؛ وأعني باللِّسان كل ما يصدر عنهم من التشويه للحقِّ، والتنفير منه، سواء كان بالكذب والبُهتان، أو بأي وسيلة من وسائل التضليل والبطلان.

فأمر الله تعالى أهل الحقِّ بالتصدي لهؤلاء بالحجج الدَّامغة والبراهين الساطعة، وذلك بمجادلتهم بما يناسب حالهم، ويبطل مقالهم.

وهذا ما يوضحه هذا المطلب واللذيْن بعده.

وفي هذا المطلب مسألتان:

المسألة الأولى: بيان توجيه الله تعالى لمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن.

وقد أمر الله تعالى أهل الحقِّ أنهم إذا أرادوا مجادلة من خالفهم أن يكون ذلك بالتي هي أحسن؛ وبالطريقة المثلى، والأخلاق العليا؛ من غير تحقير ولا تنفير، فذلك أدعى للقبول، وأقرب للفوز بالمأمول.

ومن الآيات في ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النحل: ١٢٥] «أي: من

احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن؛ برفق ولين، وحسن خطاب»[(١)].

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأمر الله رسوله في هذه الآية بالجدال، وعلمه منها جميع آدابه؛ من الرفق، والبيان، والتزام الحق، والرجوع إلى ما أوجبته الحجة»[(٢)].

ومن الآيات في ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾[العنكبوت: ٤٦].

أي: لا تجادلوا هؤلاء إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحقِّ وتحسينه، وردٍّ عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق[(٣)].

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾[العنكبوت: ٤٦] فهذا من بلغ في التعنُّت والمكابرة غايتهما، وكان قصده الإفساد، دون معرفة الصلاح من الفساد= فهذا من الظالمين، فدمِّر عليه ولا كرامة، وسلِ اللهَ الهداية والسلامة؛ فيعاقبُ باللسان واليد على حسب ما يقتضيه الحال.

ولذلك قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان الواجب على المسلمين إذا جادلهم اليهودي والنصراني أن يجادلوه بالتي هي أحسن إلا من ظلم من الطائفتين فإنه يعاقب باللسان تارة وباليد أخرى كما أمر الله ورسوله بجهاد الظالمين من هؤلاء»[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٣).

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٣٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٣٢) بتصرف يسير.

(٤) الجواب الصحيح (٣/ ٩٠).

المسألة الثانية: صور من مجادلة المخالفين بالتي هي أحسن.

وقد قيد الجدال المحمود بالتي هي أحسن ليتميز عن الجدال المذموم من جهة، ولبيان أنه لا تقبيح فيه ولا ترذيل، حتى يطمئن المدعو إلى الداعي ويشعر أن هدفه هو الوصول إلى الحق، لا الغلبة وهزيمة المخالف.

ولو تأملنا مجادلة كل نبي لقومه، أومن عتى عن أمر ربه؛ لوجدنا صورًا كثيرة من صور المجادلة التي يغلب عليها اللين والتلطف مع المخالفين، بُغية إقامة الحق وهداية الخلق، وقد تستخدم الشدة ضمن الضوابط الشرعية، والمصالح المرعيَّة.

وأذكر في ذلك صورتين:

- **الأولى: مجادلة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون:**

فقد أمر الله أنبياءه موسى وهارون بمجادلة فرعون بادئ أمره - بعد أن غالى في فجوره وكفره - باللِّين والطيب من الكلام، لعل ذلك يرجعه إلى رشده، ويرفع ما يلاقيه الناس من فجوره وشدة بطشه. قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٣ - ٤٤].

أي: قولا له قولًا لطيفًا رقيقًا، وقيل: نادياه بكنيته، وقيل: أن يُبدئ بالترغيب قبل الترهيب، لِيلين به فيتوطأ لما بعده من الترهيب والوعيد[(١)]، ولا يمنع أن تكون هذه الأقوال مجتمعة؛ إذ الهدف من ذلك إنفاذ الداعي دعوته، بما يقتضيه الحال وما يمكنه من الوسائل المشروعة.

---

(١) انظر: النكت والعيون (٣/ ٤٠٥).

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: ٤٤] أي: سهلًا لطيفًا، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه.

وقد فُسر القول اللين في قوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ – ١٩]

فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته، وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل فإنه أتى بـ (هل) الدالة على العرض والمشاورة التي لا يشمئز منها أحد ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس التي أصلها التطهر من الشرك الذي يقبله كل عقل سليم ولم يقل:

(أزكيك)، بل قال: (تزكى) أنت بنفسك ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها فقال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[النازعات: ١٩]»[(١)].

- **الصورة الثانية: مجادلة شعيب عليه السلام لقومه.**

وقد ذكر الله تعالى تلك المجادلة التي دارت بين شعيب عليه السلام وقومه؛ وما فيها من الصور العظيمة، والفوائد العميمة، من حسن الخلق، والتلطف في المقال، والحرقة في بيان ما ينفعهم فيأتوه، وما يضرهم فيتركوه، مع تجنب ما يؤذيهم من شدة في الكلام، وقسوة حين الملام، فهو كالطبيب الذي يداري مريضه كي ينفذ فيه العلاج رغم شدة الألم، ومرارة الداء والسقم.

---

(١) تسير الكريم الرحمن (٥٠٦).

وقد ذكر الله تعالى ما دار بينه وبين قومه، بما يغني عن بيانه، فإنه لا مزيد على كلام الله تبارك وتعالى، فإن المعاني تفيض من الآيات كما يفيض الماء الزلال من المعين العذب الحلال.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا
تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾
وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ
يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ
لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ
أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ
تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ
قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ
وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ
أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ
رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ
عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٣].

فتأمل كيف دارت هذه المجادلة بين النبي شعيب عليه السلام وما كان منه من رحمة وشفقة وعطْف، وبين قومه وما كان منهم من تعنُّت وجفوة وصَلَف[1].

---

(١) التكبُّر وَالعجرَفَة؛ قال ابن منظور في اللسان (٩/ ١٩٦): «الصَّلَفُ: مُجاوَزَةُ القَدْر فِي الظَّرْف وَالْبَرَاعَةِ والادِّعاءُ فَوْقَ ذَلِكَ تَكَبُّرًا».

المطلب الثاني

أصول مجادلة المخالفين كما أوضحه القرآن الكريم

وقبل بيان هذه الأصول أقدُّم بتعريف موجز لكلٍّ من الجدل والأصول.

١- **فالأصول لغة**: جمع أصل؛ وهو الشَّيء الثابت المحكم الذي يُفتَقَر إليه، ولا يَفتَقِر إلى غيره(١).

أما اصطلاحًا: فهو الأساس الذي يُبنى عليه غيره، ولا يُبنى هو على غيره(٢).

٢- **والجدل**: هو دفعُ المرءِ خصمَه عن فساد قوله، بحجة أو شبهة، على سبيل المنازعة والمغالبة(٣).

فيكون المراد بأصول المجادلة: **الأمور الثابتة الراسخة المحكمة التي تقوم عليها مجادلة المخالفين، ولا يُستغنى عنها.**

وهذا ما أوضحه في المسألة التالية:

طرق الاستدلال القرآني:

للاستدلال في القرآن الكريم طريقان :

الأول: ما يسوقه الله من الأدلة ابتداءً: وهو كثير، مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[البقرة: ١٦٤]الآية،

---

(١) انظر: تاج العروس (٢٧/ ٤٥٢)، الصحاح (٤/ ١٦٢٣)، التعريفات (٤٥).

(٢) انظر: التعريفات (٤٥).

(٣) انظر: الكليات (١٤٥)، والتعريفات (٤١)، والمفردات للراغب (٨٧)، وقد تقدم تعريفه في المطلب الذي قبله.

ونحوها من الآيات .

الثاني: ما يرد به على الخصوم والمعاندين: وهذا ما يسمى بالجدل ، وله في القرآن طرق كثيرة منها :

١- استخدام السبر والتقسيم.

وهذا ما عرف عند الأصوليين، والمعروف عند الجدليين بالتقسيم والترديد، وعند المنطقيين بالشرطي المنفصل.

وهو باب عظيم في جدال المخالفين، يتخذه المجادل وسيلة لإبطال دعوى من يجادله؛ ويكون ذلك بحصر الأوصاف للموضوع الذي يجادل فيه، ثم يبيِّن له أنه ليس في هذه الأوصاف خاصيَّة تسوغ قبول الدعوى فيه[١].

وضابط هذا الدليل أنه متركِّب من أصلين:

أحدهما: حصر أوصاف المحل بطريق من طرق الحصر، وهو المعبر عنه بالتقسيم.

والثاني: اختيار تلك الأوصاف المحصورة، وإبطال ما هو باطل منها، وإبقاء ما هو صحيح منها، وهو المعبر عنه بالسبر[٢].

ومن الأدلة على هذا النوع قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾[مريم: ٧٧ – ٧٨] .

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والتقسيم الصحيح** في هذه الآية الكريمة يحصر أوصاف المحل في ثلاثة، **والسبر الصحيح** يبطل اثنين منها ويصحح الثالث...

---

(١) انظر: مناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور زاهر الألمعي (٧٤).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ٤٩٢).

أما وجه حصر أوصاف المحل في ثلاثة فهو أنا نقول: قولك إنك تؤتى مالًا وولدًا يوم القيامة لا يخلو مستندك فيه من واحد من ثلاثة أشياء:

الأول: أن تكون اطلعت على الغيب، وعلمت أن إيتاءك المال والولد يوم القيامة مما كتبه الله في اللوح المحفوظ.

والثاني: أن يكون الله أعطاك عهدًا بذلك، فإنه إن أعطاك عهدًا لن يخلفه.

الثالث: أن تكون قلت ذلك افتراء على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب.

وقد ذكر تعالى القسمين الأولين في قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[مريم: ٧٨]، مبطلًا لهما بأداة الإنكار، ولا شك أن كلا هذين القسمين باطل؛ لأن العاص المذكور لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهدًا، فتعين القسم الثالث، وهو: أنه قال ذلك افتراءً على الله، وقد أشار تعالى إلى هذا القسم الذي هو الواقع بحرف الزجر والردع، وهو قوله: ﴿كَلَّا﴾[مريم: ٧٩]، أي: لأنه يلزمه ليس الأمر كذلك، لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهدًا، بل قال ذلك افتراء على الله؛ لأنه لو كان أحدهما حاصلًا لم يستوجب الردع عن مقالته كما ترى»(١).

وبهذا الدليل أيضًا أبطل دعوى اليهود أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٨٠].

فقد حصر لهم أوصاف المحل في اثنين، واحد منها صحيح والآخر باطل:

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٩٢).

الأول: إما أن الله أعطاهم عهدا بأن لا يعذبهم في النار إلا إيامًا قليلة، ثم يكون مصيرهم النعيم المقيم كما وعدهم !.

الثاني: أنهم كاذبون في دعواهم.

فإما أن تثبتوا بالحجة والبرهان هذا العهد الذي قطعه الله عليكم، وإلا تكونوا كاذبين في دعواكم.

٢- استخدام أساليب الاستفهام(١)**: ومنها:**

الاستفهام التقريري: وهو «الاستفهام عن المقدمات البينة البرهانية التي لا يمكن لأحد أن يجحدها، وهي تدل على المطلوب لتقرير المخاطب بالحق، ولاعترافه بإنكار الباطل»(٢).

وهو من الأساليب التي استخدمها القرآن في تبيان عظمة الله وقدرته، وتقرير عظمة خلقه وآياته ونعمائه؛ ففي هذا الأسلوب يقع المجادَل أمام سؤال ليس له إلا جواب واحد، فإن استجاب للحق أقر به، وإلا أُفحِم، وبالحق رُجِم.

ومن أمثلة هذا النوع :

- مجادلة الله تعالى للكافرين بإلزامهم توحيد الألوهية عن طريق تقرير الخصائص المتعلقة بالربوبية، فبها يقرون ومنها لا يفرون، وليس لهم منها محيص أو مهرب، وفيها يظهر من صدَّق ومن كذَّب.

---

(١) ومن أساليب الاستفهام أيضًا: النفي، والتعجب، والتمني، والتحقير، والاستبطاء، والاستبعاد، والتهكم والاستهزاء، الوعيد والتهديد، والتحضيض. يرجع فيها لكتب اللغة والبلاغة.

(٢) مناهج الجدل في القرآن الكريم (٧٦).

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠ – ٦١] إلى قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[النمل: ٦٤] فعدد لهم بعض خصائص ربوبيته التي لا حق فيها لغيره، ثم طالبهم بالدليل والحجة على إثبات صدقهم، وإلا فقد ألجمهم بالأدلة اليقينية، ووجمهم بالبراهين القطعية التي تدل على أنه هو المتفرد بجميع التصرفات، والمستحق بأن تصرف له جميع أنواع العبادات.

- مجادلة الله تعالى لمنكري البعث بإلزامهم بالبعث، وذلك بما تقرر عندهم من أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[يس: ٨١] أي: أليس الذي خلق السموات السبع والأرضين السبع بقادر على أن يخلق مثلكم، فإن خلْقَ مثلكم من العظام الرميم ليس بأعظم من خلق السموات والأرض، فمن لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم من خلقكم، فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعدما قد رمت وبليت؟(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا جاء فيها باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب»(٢).

---

(١) انظر: جامع البيان (١٩/ ٤٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٠).

الاستفهام الإنكاري: هو الاستفهام الذي «يُرادُ منه النفي، مع الإنكار على المثْبِتِ كَيْفَ أَثْبَتَ مَا هو ظاهر النفي، وكانَ الواجبُ عليه أن يَنْفِي، أو مع الإنكار على المخاطب قضيَّته، وهي باطلةٌ في تصوُّرِ مُوجِّه الاستفهام»(١).

وهذا الأسلوب قد يرد في القرآن متروكًا بغير جواب، فإنه يترك للمجادَل أن يستنتج الجواب بنفسه، حتى يكون أوقع في قلبه، وأقرب إلى لبِّه، وبه ينكشف عناد المعاند، وادعائه الباطل الفاسد، وذلك عندما يلجئه إلى كشف خبيئة نفسه، وتيقنه بالجواب الصحيح(٢).

وغالبًا ما يأتي هذا النوع من الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[الأنعام: ١٤].

وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٦٤] ففي الآيتين إنكارُ الشرك بالله والدعوةِ إليه.

والمعنى: أني لا أتخذ وليًّا ومعتمدًا أعتمد عليه، وأستعين به، غير الله، ذي الحول والطول، وذي القدرة التي لا يعجزها شيء، الذي خلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال سابق.

وهنا أتى بالاستفهام الإنكاري، وهو أقوى في إظهار الولاء الخالص لله، والثبات عليه من الخبر التقريري بالولاء، إذ فيه إنكار لموالاة غير الله أولًا، ثم إقبال على موالاته

---

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن الميداني (٢١٠).

(٢) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد ملكاوي (٣٥٠).

سبحانه، ثانيًا[١].

ومن الأمثلة أيضًا على هذا النوع من الاستفهام قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[النمل: ٦٠].

فقد ورد بعد الاستفهام التقريري الذي مر آنفًا، وقد جُمع فيه النفي، والتقريع والتوبيخ، والترك بدون جواب.

فنفى الله تعالى أن يكون هناك إله آخر يساميه في الألوهية، ويوازيه بالربوبية، مع التقريع والتوبيخ لمن عبد مع الله بشرًا أو حجرًا أو آلهة أخرى، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا.

ثم ترك الاستفهام بدون جواب، لأنه أبلغ في قرع القلوب، وأعظم في نيل المطلوب. فتأمل رحمك ربك، وغفر ذنبك.

٣- **استخدام الأقيسة العقلية**: وهي الأمثال المضروبة في القرآن الكريم[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[الزمر: ٢٧]. «أي: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه»[٣].

ومن هذه الأقيسة:

- **الأقيسة الإضمارية**: وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات، مع وجود ما ينبئ عن المحذوف.

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٤٠).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٧).

ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩] ففي هذا المثال حذف لإحدى المقدمات، وواضح المقايسة بين خلق آدم عليه السلام، وخلق عيسى عليه السلام، وأنه إذا كان الخلق من غير أب مبررًا لاتخاذ عيسى إلهًا، فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مبررًا لاتخاذ آدم إلهًا، ولا أحد يقول بذلك.

ونلاحظ أنه قد حذفت مقدمة وبقيت واحدة، وكأن سياق الدليل لو كان في غير كلام الله تعالى يكون: إن آدم خلق من غير أب ولا أم، وعيسى خلق من غير أب، فلو كان عيسى إلهًا بسبب ذلك لكان آدم أولى، لكن آدم ليس ابنًا ولا إلهًا باعترافكم، فعيسى أيضًا ليس ابنًا ولا إلهًا[1].

- **قياس التمثيل**: وهو «أن يقيس المستدلُّ الأمر الذي يدَّعيه على أمر معروف عند من يخاطبه، أو على أمر بدهي لا تنكره العقول، وتقرّ به الأفهام، ويبين الجهة الجامعة بينهما»[2].

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[ق: ٩ - ١١].

فقد ضرب الله مثلًا على إثبات البعث، بإنبات الزرع من ماء السماء؛ وتقريره: أنه «كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة، فأحييناها به، فأخرجنا نباتها وزرعها، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم من بعد بلائكم فيها بما ينزل عليها من الماء»[3].

(١) انظر: المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة (٣٩٨)، وكذلك منهج الجدل في القرآن الكريم (٧٧).
(٢) المعجزة الكبرى القرآن (٣٩٨).
(٣) جامع البيان (٢١/ ٤١٤).

٤- **استخدام أسلوب التنزل والتسليم الجدلي**: وهو أن يسلِّم المجادل وقوع ما ادعوه جدلًا، ثم يبطله على تقدير وقوعه .

ومثاله قوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[المؤمنون: ٩١].

فنفى أن يكون معه إله، ثم سلّم جدلًا أنه لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق، وعلا بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم، ولا تنتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك، ففرْضُ إلهين فصاعدًا محال لما يلزم منه من المحال.

٥- **استخدام أسلوب الانتقال في الاستدلال**: وهو أن ينتقل المستدل من دليل لم يفهمه الخصم أو غالط فيه، إلى دليل آخر يؤدي إلى انقطاع الخصم .

ومثاله قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾[البقرة: ٢٥٨]الآية. فلما غالط في الدليل الأول و﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾[البقرة: ٢٥٨] انتقل به إبراهيم عليه السلام إلى دليل آخر لا يستطيع أن يغالط فيه، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي﴾﴿الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾[البقرة: ٢٥٨] فانقطعت حجته وبهت، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾[البقرة: ٢٥٨].

حججٌ تهافتُ كالزجاج تخالُها حقًّا، وكلُّ كاسر مكسورُ

والأساليب كثيرة جدًّا، وكلها تندرج تحت الإلزام والإفحام والإبطال لدعوى الخصم وباطله، وقد سُطرتْ في هذا الباب كثير من المؤلفات، يرجع إليها لمن أراد الزيادة، ورغب في الإفادة، ففيها خير كثير، وعلم غزير(١).

---

(١) ومن هذه المؤلفات: «عَلَم الجذل في عِلْم الجدل» لنجم الدين الطوفي، و«استخراج الجدال من القرآن الكريم» لابن الحنبلي، و«مناهج الجدل في القرآن الكريم» للدكتور زاهر الألمعي، و«أصول =

المطلب الثالث

مقاصد مجادلة المخالفين في القرآن الكريم

فإن الله تبارك وتعالى من رحمته بعباده أنه «قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبيين، ومن جملة ذلك أنه يقيض للحق، المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تتبين الأشياء، فلولا الليل، ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح، ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحًا ظاهرًا»[١].

ومن هنا كانت لمجادلة المخالفين فوائد عظيمة، ومقاصد جليلة عميمة، توضحها المسائل التالية:

المسألة الأولى: مقصد الدعوة إلى الله تعالى.

فالدعوة إلى الله تعالى من أعظم المقاصد في مجادلة المخالفين، ودعوتِهم إلى الحق، وإقناعِهم ببطلان ما هم عليه من الانحراف والباطل.

=

الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة» للدكتور حمد العثمان، و«منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد» للدكتور عثمان حسن، و«أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم» لمحمد علي نوح، و«الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية» للدكتور يوسف عيد، و«منهج أهل السنة في نقض شبه أهل الأهواء والبدعة» للدكتور احمد سردار، و«أسلوب الحوار في القرآن الكريم» لإدريس أوهنا، وغيرها.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٣).

وهذا هو طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام ومن تبعهم، فهم يجادلون من عانـدهم من أقوامهم بغية إيصال الحق إليهم، وبيان ما هم عليه من الباطل، ولذلك عندما دعا نـوح عليه السلام قومه لإفراد الله تعالى بالعبادة، وبين لهم إشفاقه عليهم، وخوفه من العذاب يصيبهم إذا استمروا على كفرهم، وأبوْا إلا المكابرة والمعاندة = جادلهم بالحق، وأقام عليهم الحجة، فكان آخر كلامهم من تلك المجادلة: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[هود: ٣٢].

أي خاصمتنا فأكثرت خصومتنا، فأتنا بالعذاب إن كنت صادقًا في دعوتك وعداتك.

ومن العجيب أنهم عدُّوا دعوته إياهم للحق خصامًا، وعبادتَهم لله مَعَرَّة[١] وملامًا!! فنعوذ بالله من النفس العنيدة، الضالة في العقيدة.

المسألة الثانية: مقصد إظهارِ الحق ونصرِه، ودفعِ الباطل ومحقِه.

وذلك بالذب عنه، ودفع الشبه والأوهام والشكوك التي ترمى في طريقه، ورد كيد المفترين ودفع اعتداء المعتدين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلمناظرة المبطل فائدتان:

أحدهما: أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكف شره وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن، ومناظرته للطوائف، فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله، وتدبره، ورزق فهما فيه، وحججه»[٢].

وهذا نبي الله موسى عليه السلام قد هيأ الله له تلك المناظرة الكبرى، والمجادلة

(١) جناية. انظر: لسان العرب (٤/ ٥٥٥).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٦).

العظمى، مع فرعون وملئه، أمام تلك الجموع الغفيرة، والأعداد الكثيرة. فكانت كالسيل الجرار، والسيف البتار، أظهر الله فيها الحق أيما إظهار، وأعز الله المؤمنين ونصرهم، وكبت وأذل الكافرين وقهرهم.

وقد اتفق كلا الفريقين على يوم مشهود، وطريق واضح مقصود، وهو يوم العيد، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه: ٥٧ – ٥٩].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴾[الأعراف: ١١١]. فهنا سينكشف زغل المبطلين، ودجل المضلين.

فتقابل الخصمان، وأدلى كل واحد بدلوه، و﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ﴾[الأعراف: ١١٥ – ١١٦]، فجاء الانتصار الساحق، والفوز الماحق لموسى عليه السلام على فرعون وجنده، فظهر الحق وثبت، و خمدت نار الباطل وخبت؛ قال تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَـٰغِرِينَ ﴾[الأعراف: ١١٨ – ١١٩] وكان من أتى بهم فرعون ليهزموا موسى عليه السلام أول من أسلموا، وهذا الذي لم يخطر لفرعون على بال، ولم يَدُرْ له في خيال، قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾[الأعراف: ١٢٠ – ١٢٢].

فسبحان من قهر الجبابرة، وأذل الملوك والقياصرة، وأعز أهل الحقِّ بفضله ومنته، وأذلَّ أهل الباطل بقوته وعزِّته.

المسألة الثالثة: مقصدُ تحقيقِ شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الأعمال وأهم أمور الدين، ولا قوام لدين الإسلام إلا بهما.

ومجادلة أهل الباطل بالحق هو «نيل شرف الرتبة، بالقيام بهذه الحسبة، للذب عن الشريعة وحملتها، وصيانتها من الدخولات(١) وحراستها»(٢).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والأمر بالمعروف وهو الحق الذي بعث الله به رسوله. والنهي عن المنكر وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور بل هو من أعظم الواجبات وأفضل الطاعات؛ بل هو طريق أئمة الدين، ومشايخ الدين نقتدي بهم فيه»(٣).

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط؛ بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وأعظمه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»(٤).

وقد أمر الله تعالى عباده بإقامة هذه الشعيرة العظيمة فقال: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٤].

وجعل الله تعالى هذه الأمة من خير الأمم وأفضلها لقيامها بها، قال تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

والنهي عن المنكر لا يقتصر على النهي عن الرذائل فحسب؛ بل هو شامل لكل منكر، سواء أكان من منكرات الأفكار والشبهات، أو منكرات المعاصي والشهوات.

---

(١) أي: الإدخال فيها بما ليس منها.

(٢) الرد على المخالف من أصول الإسلام للشيخ بكر أبو زيد (٨٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٦٤).

ومن هنا كان جدال المخالفين بالتي هي أحسن، ومناظرتهم - لإحقاق الحق، ودحر باطلهم وشبهاتهم بالحجج والبراهين العقلية والنقلية - من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذا تأملت سياق الآيات في قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾[الأعراف: ١٩١ - ١٩٣]، إلى قوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩].

فإنك ستجد أنه قد جادلهم، فأثبت لهم عجز ما يعبدون من دون الله بالحجج المفحمة، والدلائل الملزمة، ثم ختم ذلك بالأمر لنبيهﷺ بأن يتلطف مع هؤلاء، ويأمرهم بالمعروف، ويعرض عنهم حال أذيتهم وجهلهم.

المسألة الرابعة: مقصد تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الحق، وحمايتهم من الوقوع في الباطل، وتحصينهم من الشبهات.

وذلك عندما يرى أهل الحق وهن ما عليه أهل الباطل من حجج واهية، وأقاويل خاوية، وضعفها أمام الأسنة القاطعة، والبوارق الساطعة لحجج أهل الحق، فإن ذلك يزيدهم قوة في دينهم، وثباتًا على منهجهم.

فللحجة سلطانًا، يأسر القلب، ويمتلك اللبَّ، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «والله سبحانه سمى علم الحجة سلطانًا لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين؛ بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد؛ ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فان الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن؛ فالحجة تأسر القلب وتقوده، وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور

تحت سلطانها»[(١)].

المسألة الخامسة: مقصد إظهار التمييز بين أهل الحق وبين أهل الباطل.

فإن أهل الحق كانوا ولا زالوا أهل إيمان وبصيرة وعلم، وأصحاب حجة وبيان وفهم، وأما أهل الباطل؛ فقد ضرب فيهم الشر حتى قرَّ واستقرَّ، ولم يجد منهم الباطل مهربًا أو مفر، فقصرت حجتهم لما ضل علمهم، وزل فهمهم، فلم يجدوا بدًا أو يروا مخرجًا في جدالهم لأهل الحق من الافتيات والافتراء عليهم.

ومن هنا كان في جدال المخالفين، والرد عليهم، تمييز للحق من الباطل، والخبيث من الطيب.

قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٧].

المسألة السادسة: مقصد فضح المعاندين والمستكبرين منهم، وتعرية باطلهم.

فمن مقاصد مجادلة المعاندين من المخالفين، فضحهم، وتعرية باطلهم، حتى لا يكونوا حفرًا، يسقط فيها من خفت أبصارهم، وبعدت عنهم هداتهم، ولذلك كانت للمجادلة بالحق أهمية عظيمة، وفائدة كبيرة.

قال العلامة بكر أبو زيد رحمه الله: «ألا إن النفير خفافًا وثقالًا، لنثل السهام من كنانة الحقِّ للردِّ على هؤلاء ونقض شبههم، وكشف فتونهم وتعريتهم= هو من حقِّ الله على عباده، وحقِّ المسلمين على علمائهم، في ردِّ كل مخالف ومخالفته، ومضلٍّ وضلالته، ومخطئ وخطئه، وزلة عالم وشذوذه، حتى لا تتداعى الأهواء على المسلمين تعثوا

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٩).

فسادًا في فطرهم، وتصم وحدتهم، وتؤول بدينهم إلى دين مبدل، وشرَّع محرف، وركام من النحل والأهواء»[(١)].

المسألة السابعة: مقصد جمع للناس على كلمة سواء.

لأن أهل الحق مأمورون بالاعتصام بحبل الله تعالى، ولا يمكن اجتماعهم على غيره أصلًا، ففي مجادلة أهل الباطل، ونفي زغلهم، ورد شرهم وكيدهم، هو تقدم نحو تحقيق هذا المقصد الشرعي العظيم.

(١) الرد على المخالف من أصول الإسلام (١١).

الفصل الثاني

تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بالشدة التي لا تنافي العدل والإنصاف

وفيه: ستة مباحث:

المبحث الأول: الإعراض عنهم.

المبحث الثاني: التحذير من موالاتهم.

المبحث الثالث: المنع من اتخاذهم بطانة.

المبحث الرابع: منع الاستغفار لبعض الفئات منهم.

المبحث الخامس: عدم إعطائهم العهود والمواثيق إن ظهرت منهم الخيانة.

المبحث السادس: مقابلة استهزائهم ومكرهم ومخادعتهم بمثلها.

المبحث الأول

الإعراض عنهم

الإعراض عن أهل الباطل وجهالتهم خلق عظيم وأدب كريم، أمر الله به عباده الصالحين وحثهم عليه ورغبهم فيه؛ تعظيمًا لشأنهم، وتكريمًا لقدرهم ومكانتهم، لما فيه من تنحيتهم عن جهالة السفهاء، وسفاهة الأشقياء، معَ ما فيه من المصالح العظيمة، والفوائد العميمة؛ كزجر أهل الباطل، وتجنُّبِ قبيح أفعالهم، ودرءِ شرورهم ومفاسدهم.

وتوضيح ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول: بيان معنى الإعراض لغة واصطلاحاً.

أما الإعراض لغة: فهو مصدر أعرض يعرض «من أعرض عن الشيء: إذا ولاه ظهره»[(١)] بمفارقته إياه والامتناع عنه، لذلك يقال: أعرضتُ عن فلان، وأعرضتُ عن هذا الأمر، وأعرضَ بوجهه، لأنه إذا كان كذا ولاه عُرْضَه[(٢)].

وأما اصطلاحًا:

فهو الانصراف عن الشيء بالقلب والإضراب عنه، بأن تأخذ عُرضًا؛ أي: جانبًا غير الجانب الذي هو فيه[(٣)].

المطلب الثاني: ذكر الآيات الدالة على الإعراض عن أهل الباطل.

ورد الأمر بذلك في القرآن الكريم في آيات عديدة؛ وهي على ضربين:

أحدهما: الأمر بالإعراض عن أهل الباطل بوجه عام.

---

(١) لسان العرب (٧/ ١٦٥).

(٢) مقاييس اللغة (٤/ ٢٧٢).

(٣) انظر: الكليات للكفوي (٢٨)، والتوقيف للمناوي (٥٦).

وقد ورد ذلك بعدة ألفاظ؛ منها:

١- **الإعراض عن الجاهلين**: كما في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات؛ فقوله: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾[الأعراف: ١٩٩] دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وفي قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الحض على التعلُّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة»(١).

والجاهلون: جمع جاهل؛ من الجهل؛ و«الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما خِلاف العِلْم، والآخر الخِفّة وخِلاف الطُّمَأْنِينة»(٢)، ولذلك قيل: كل ما استَخفَّك فقد استَجهَلَك(٣).

قال الشاعر: [البحر الطويل]

دعاكَ الهوى واستجهلتْكَ وكيفَ تَصابي المرءِ والشيبُ شاملُ(٤)

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٤٤).

(٢) مقاييس اللغة (١/ ٤٨٩).

(٣) انظر: لسان العرب (١١/ ١٢٩).

(٤) ديوان النابغة (٦٤).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩] هو أسلوب من أساليب درء السيئة بالحسنة؛ أي: عاملهم بالعفو واللين والإعراض عن سيئاتهم، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩] يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه...بل يُعرِض عنه مع إقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه؛ وهكذا كان خلقه ﷺ»(٢).

ولذلك لما حلف أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يقطعَ الصدقة عن مسطح بن أثاثة(٣) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعد خوضه في الإفك= أنزل الله تعالى آيات تحثه على العفو وإعادة الصلة.

فقد ورد عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «...فقال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره -: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[النور: ٢٢] إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾[النور: ٢٢]... فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدًا»(٤).

وقد وصف الله تعالى أهلَ الحق أنهم إذا سمعوا من الجاهلين ما يسوؤهم من القول

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣١٣)، والعذب النمير (٢/ ١٥٠).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٥).

(٣) هو: الصحابي مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، توفي سنة (٣٤هـ). انظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٥٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، برقم (٢٦٦١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبوله وتوبة القاذف، برقم (٢٧٧٠).

ويؤذيهم= أعرضوا عنهم، وقالوا: سلامًا، أي قالوا قولًا سديدًا حليمًا لا جهالة فيه ولا ندامة(١).

وقد ورد في وصفهم عدة آيات منها قوله تعالى حينما وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[الفرقان: ٦٣].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: خاطبوهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله.

وهذا مدح لهم بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال»(٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥].

أي: «لا يجارون أهل الجهل والباطل في باطلهم، أتاهم من أمر الله ما وقذهم عن ذلك»(٣).

وأيضًا قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾[مريم: ٤٧].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٢٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥٨٦). مع التنبيه أن الحِلم يكون ممدوحًا إذا كان الحالم يملك القدرة على الردِّ والمعاقبة على الإساءة؛ وإلا فإنَّ حِلم الضعيف أو الجبان ليس مما يُحمد عليه صاحبه أو يُمدح ..قال المتنبي: إِذا قيل رِفْقًا قال للحِلْم مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الفتى في غيرِ مَوْضِعه جَهْلُ

أخذه عن شهل بن شيبان في قوله: وبعضُ الحلم عِند الجَهْـل للذِّلَّةِ إذعانُ.

وقال سالم بن وابضة: إن من الحلمِ ذلًّا أنت عارفُهُ والحلمُ عن قدرةٍ فضلٌ من الكرمِ.

(٣) جامع البيان (١٨/ ٢٨٠).

وليس المراد بالإعراض عن الجاهلين الإعراض عمن لا علم عنده فلا يُعلم ولا يُرشد إلى الخير والهدى وإنما المراد الإعراض عن جهل الجاهلين عليه فلا يقابلون بمثله(١).

ومن كلام أهل البلاغة: «واعلم أنك ستبلى من أقوام بسفه، وأن سفه السفيه سيُطلعُ له منك حقدًا، فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك قد رضيتَ ما أتى به، فأحببتَ أن تحتذي على مثالِهِ، فإن كانَ ذلك عندكَ مذمومًا فحقق ذمك إياهُ بترك معارضته، فأما أن تذمه وتمتثله فليس في ذلك لك سداد»(٢).

ولذلك قال الشاعر: [البحر الوافر]

إذا نطق السفيه فلا تُجِبْهُ ... فخير من إجابتهِ السُّكوتُ
سكتُ عن السفيه وظنَّ أنّي ... عييتُ عن الجواب وما عَييتُ
سفيهُ القوم يشتمني فيحظى ... ولو دمَهُ سفكت لما حظيتُ(٣)

وقال آخر: [مخلع البسيط]

أعرِضْ عَنِ الجَاهِلِ السَّفِيه ... فكلُّ ما قالَ فهو فيهِ
ما ضرَّ نهرَ الفراتِ يومًا ... إن خاضَ بَعْضُ الكِلاب فيه(٤)

٢- الإعراض عن المشركين.

كما في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]. وقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] وهذا الخطاب أخص

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٤).

(٢) الأدب الكبير والأدب الصغير؛ لابن المقفع (٢٥).

(٣) الزهرة لابن داود الأصبهاني (١/ ١٩٩).

(٤) ينسب للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ انظر: ديوان الشافعي ص (١٢١).

من الخطاب الأول؛ وهو الإعراض عن الجاهلين، وإن كان عامًا من حيث الإعراض عن كل مشرك.

وقد أمر الله تعالى نبيه بالإعراض عن المشركين؛ وعدم قتالهم؛ ثم نسخ ذلك بعد نزول الأمر بقتال المشركين.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الحجر: ٩٤]: «يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: بلغ قومك ما أرسلت به، واكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم وذلك قبل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[التوبة: ٥]»(١).

الثاني: الأمر بالإعراض عنهم في حالات مخصوصة؛ ومنها:

١- الإعراض عنهم إن صدر منهم الباطل.

كالكلام في آيات الله تعالى بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾[الأنعام: ٦٨].

وفُسر الإعراض عنهم في الآية بعدم مجالستهم والقعود معهم، قال تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾[النساء: ١٤٠].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق؛ من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله، فأمر الله رسوله أصلًا وأمته تبعًا، إذا رأوا من يخوض بآيات الله

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٤٣).

بشيء مما ذُكِرَ= بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيرِه= زال النهي المذكور»(١).

٢- **الإعراض عنهم إن بدت منهم الخيانة:**

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء: ٨١].

وهذا هو حال المنافقين في زمن النبي ﷺ «كانوا يظهرون في وقت النفير للجهاد أنهم ماضون مع المجاهدين، وأنهم يهيئون أنفسهم للجهاد ويعدّون العدة له، ثم ينكشف الأمر عن أنهم كانوا يدافعون الأيام بالتسويف والمماطلة، حتى تنتهي المعركة، ويعود المجاهدون! فإذا كان ذلك شأنهم في العمل، فكذلك كان أمرهم في القول؛ إذا سمعوا دعوة إلى الجهاد قالوا: طاعة، وأظهروا للرسول الاستجابة والامتثال لما يدعو إليه.

فإذا زايلوا مجلس الرسول، وخلَوا إلى أنفسهم، بيّت طائفة منهم غير الذي تقول وأنكروا على أنفسهم هذا القول الذي قالوه من قبل، وأقاموا أمرهم على خلافه، فلا استجابة ولا طاعة، ولكن عصيانٌ ومخالفة»(٢).

فأمر الله نبيه ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المنافقين، وأن يتركهم وما هم عليه من الضلالة، وأن يرضى بالله منتقمًا منهم، ومدافعًا عنه، ومنتصرًا له منهم(٣).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾[النساء: ٦٣]:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٦٠).

(٢) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب (٣/ ٨٤٣).

(٣) انظر: جامع البيان (٧/ ٢٥٠).

«فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم ، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله»[١].

٣- **الإعراض عنهم حين الكذب والخديعة.**

وقد بيَّن الله تعالى حال طائفة من المنافقين الذين يحلفون الأيمان الكاذبة أنه ما حبسهم على الخروج مع النبي ﷺ إلا العذر؛ قال الله تعالى: ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ** ﴾[التوبة: ٩٥] فأمر الله المؤمنين أن يعرضوا عنهم فلا يؤنبوهم احتقارًا لهم لخبثهم، ونجاسة بواطنهم واعتقاداتهم[٢].

ومثله قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا** ﴾ [النساء: ٦٢ – ٦٣].

٤- **الإعراض عنهم حين البهت والافتراء:** ومثاله افتراء المشركين على الملائكة وتسميتهم تسمية الإناث، وأنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ** ﴾[النجم: ٢٧].

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعرض عن هؤلاء المفترين الكاذبين وأن يهجرَهم تأنيبًا لهم على إفكهم وتحقيرًا لهم على باطلهم، فقال: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا** ﴾[النجم: ٢٩] والمراد من الإعراض هنا هجرهم هجرًا جميلًا، وترك إيذائهم؛

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٩٧).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٠١).

قولًا وفعلًا [١].

وهذا كله من الاستخفاف بهم، وأنهم ليسوا أهلًا للكرامة وحسن الجزاء والمثوبة، فإنهم أعرضوا عن ذكر الله، وردّوا اليد المبسوطة لهم بالهدى، وأبوا أن يؤمنوا بالآخرة، وأن يعملوا لها، وجعلوا الحياة الدنيا هي كل حياتهم، فأغرقوا أنفسهم فيها، واستهلكوا وجودهم في السعي لها.

ولذا كان الإعراض عن كثير من هؤلاء مطلب شرعي، فيه السلامة في الدين، وطمأنينة في النفس، وسلامة للقلب.

المطلب الثالث: الفوائد والثمرات في الإعراض عن أهل الباطل.

ويتجلى ذلك في ما يلي:

١- **أنه طاعة لله تعالى، وامتثال لأمره، وتحقيق لمبدأ العبودية** والتي جزاء العبد فيها أن يفوز بجنة الله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[النساء: ١٣]، ويحشره فيها مع خاصة عباده ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فطاعة الله ورسولِهِ قطبُ السعادة التي عليه تدور، ومستقر النجاة الذي عنه لا تحور؛ فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وإنما تعبدهم بطاعته وطاعة رسوله، فلا عبادة إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله؛ وما سوى ذلك فضلال عن سبيله» [٢].

---

(١) انظر: محاسن التأويل (٩/ ٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٤).

٢- أن فيه كمال الأدب وتمام التأديب.

أما **كمال الأدب**: فهو من الأدب الربّاني، الذي أدّب الله سبحانه به أهل الحق، وجعلهم من أهل الرفعة والمكانة العالية، وغرس فيهم مكارم الأخلاق وطيب بها نفوسهم.

فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هِيْ يا ابن الخطاب! فو الله، ما تعطينا الجزْل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به. فقال له الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ»[(١)].

وأما **تمام التأديب**: فإن في الإعراض عن السفهاء والجاهلين، تأديبًا حكيمًا لهم، وقطعًا لحبال الملاحاة واللّجاج معهم، وفلًّا لأسلحتهم التي لا تحسن العمل إلا في ميدان السفاهة والجهل، إذ إنه ليس أرضى لنفوس السفهاء، ولا أهنأ لقلوبهم من أن يجدوا من يمد لهم في حبال السفاهة والجهل، حين يلقى سفاهتهم بسفاهة، وجهلهم بجهل إنها حينئذ فرصتهم التي تظهر فيها ملكاتهم، وتشحذ بها أسلحتهم في هذا الميدان، الذي يصولون فيه ويجولون[(٢)].

٣- أن في الإعراض عن السفهاء والجاهلين حمايةً لأهل الحق، وحراسةً لمقامهم

(١) رواه البخاري في: كتاب التفسير، باب: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، برقم (٢٠٠٤).

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٤٨).

الكريم من أن يصيبه رذاذ من سفاهة الجاهلين، وأذى من حماقة السافلين[(١)].

قال الشاعر[(٢)]: [البحر الوافر]

يخاطبُني السفيهُ بكل قبحِ ... فأكره أن أكونَ له مجيبًا
يزيدُ سفاهة فأزيدُ حلمًا ... كعود زاده الإحراقُ طيبًا

وقال آخر: [البحر الطويل]

وأغفرُ عوراءَ الكريمِ ادِّخارَهُ ... وأُعرِضُ عن قولِ اللئيمِ تكرُّمَا[(٣)]

٤- **أن فيه إظهارًا لمكارم الأخلاق**؛ من الحلم والصفح والترفع عن الجاهلين ما يكون أدعى لرفعة أهل الحق واحترامهم وتوقيرهم، وما فيه من تأليف القلوب وهدايتها إلى الخير والهدى، أو دفع باطلها، ورد كيدها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض العلماء: الناس رجلان؛ فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه.

وإما مسيء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك، واستمر في جهله= فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾[المؤمنون: ٩٦-٩٨]»[(٤)].

وبهذا يتبيَّن كيف أرشد القرآن الكريم إلى كيفية التعامل مع الجاهلين، وأنه ينبغي

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٥٤٨).

(٢) تنسب هذه الأبيات لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وكذلك للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: ديوان الشافعي ص (١١)، وديوان علي بن أبي طالب ص(٣٢).

(٣) ديوان حاتم الطائي (٢٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٣).

على أهل الحقِّ الإعراض عن أهل الباطل وجهالتهم، وأن ذلك من الخلق العظيم والأدب الكريم الذي أمر الله به عباده الصالحين، وحثهم عليه ورغبهم فيه، تعظيمًا لشأنهم، وتكريمًا لقدرهم ومكانتهم.

المبحث الثاني

التحذير من موالاتهم

التحذيرُ في القرآن الكريم من موالاة أهل الباطل والأمر بمعاداتهم باب عظيم من أبواب الولاء والبراء؛ وذلك بالابتعادِ عنهم وعن معاشرتِهم، وعدمِ مودتِهم أو التقربِ إليهم.

وبيان ذلك في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التحذير من موالاة أهل الباطل في القرآن الكريم.

حذر الله تعالى من تولي أهل الباطل وموالاتهم؛ فحذر من موالاة عموم الكافرين كما في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٢٨].

فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء أو أصدقاء أو أصحابًا من دون المؤمنين، وأخبر أن من فعل ذلك فليس من الله في شيء، أي: لا يكون من أولياء الله الموعودين بالنجاة في الآخرة(١).

وحذر من موالاة اليهود والنصارى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[المائدة: ٥١].

«فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وأخبر أن من تولاهم من المؤمنين فهو منهم؛ وهكذا حكم من تولى الكفار من المجوس وعباد الأوثان، فهو منهم»(٢).

---

(١) انظر: الدرر السنية (٨/ ١٢٣).

(٢) المصدر السابق (٨/ ١٢٨).

ونهى عن موالاة أولي القرابة إن كانوا على الباطل؛ كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [التوبة: ٢٣].

أي: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الذين هم أقرب الناس إليكم - وغيرهم من باب أولى وأحرى - أولياء إن اختاروا - على وجه الرضا والمحبة - الكفرَ على الإيمان، ومن يفعل ذلك فهو ظالم لأنه تجرأ على معاصي الله، واتخذ أعداء الله أولياءَ له(١).

ومثله قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾[المجادلة: ٢٢].

وفي الآية دليل على أن أُخوَّة الدين أقوى من أُخوَّة النسب والقرابة، وأن الولاء والبراء يكون على دين الإسلام وليس على القرابات والأنساب.

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾[المجادلة: ٢٢]، تحققت أن الروابط النسبية تتلاشى مع الروابط الإسلامية، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾[التوبة: ٧١]، ولا يخفى أن أسلافنا - معاشر المسلمين - إنما فتحوا البلاد ومصَّروا الأمصار بالرابطة الإسلامية، لا بروابط عصبية، ولا بأواصر نسبية»(٢).

ونهى الله عن موالاة من عادى الله تعالى والمؤمنين، كما في قوله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣٢٣).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٢٠٠).



تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾[الممتحنة: ١].

أي: إياكم أن تتخذوا من عادى الله ورسوله والمؤمنين أولياء وأصدقاء، وهم لي ولكم أعداء؛ وإن أظهروا خلاف ذلك؛ و«أضاف العدو لنفسه تعالى تغليظًا في جرمهم»[١].

ثم من السفاهة والسذاجة أن يوالي الإنسان عدوه الذي يتربص به الدوائر، ويتمنى زواله وهلاكه!.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا المتخذ للكافر وليًّا، عادم المروءة أيضًا، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟!»[٢].

وكذلك نهى الله تعالى عن موالاة من غضب الله عليهم؛ كما في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾[الممتحنة: ١٣].

وبيَّن أن موالاة أهل الباطل منافيةٌ للإيمان بالله ورسوله ﷺ، وما أنزل عليه، وأن ذلك صفة من صفات أهل الفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨١].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ «فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به= أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل

(١) الدر المصون في علم الكتاب المكنون (١٠/ ٢٩٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٥٤).

على انتفاء المشروط. ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١] أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي ومن فسقهم موالاة أعداء الله»[١].

وجميع هذه النصوص تنهى أهل الحق عن موالاة أهل الباطل وتحذر من ذلك ومن سائر أنواع الموالاة وصورها، سواء كان ذلك بالمحبة، أو بالنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين.

ولذلك رتَّب الله على موالاة أعداء الله أشد العقوبات؛ منها:

١- **أن الله بريء ممن يتولى أهل الباطل**؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨]. «أي: من يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله»[٢].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من اتخذ الكفار أعوانًا وأنصارًا وظهورًا يواليهم على دينهم، ويظاهرون على المسلمين= فليس من الله في شيء، أي قد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر»[٣].

٢- **أنه يكون من جملتهم وداخلًا في صفهم**؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]. «أي: من جملتهم، وحكمه حكمهم، وإن زعم أنه مخالف لهم في الدين، فهو بدلالة الحال منهم لدلالتها على كمال الموافقة»[٤].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه منهم. أي من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدًا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٠).

(٣) جامع البيان (٥/ ٣١٥).

(٤) محاسن التأويل للقاسمي (٤/ ١٦٢).

رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر الله في هذه الآية: أن متوليهم هو منهم وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: ٨١] فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. فالقرآن يصدق بعضه بعضًا»[٢].

وعلة النهي عن موالاة أهل الباطل في القليل والكثير: أن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى يكون العبد منهم [٣].

٣- **أنه موصوف بالظلم والفسق؛ فأما الظلم**: فكما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[التوبة: ٢٣].

أي: ظالم لنفسه بارتكاب ما حرم الله تعالى عليه، وظالم لإخوانه بموالاة أعدائهم عليهم.

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأي ظلم بعد موالاة الفرد لأعداء أمته وأعداء الله ورسوله ؟!»[٤].

وأما الفسق: ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨١]. فهم فاسقون بخروجهم عن

---

(١) جامع البيان (٨/ ٥٠٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢٣٥).

(٤) أضواء البيان (٨/ ٩١).

الطريق القويم، طريق الحق والنور، إلى طريق العماية والضلالة.

المطلب الثاني: نماذج من سير الأنبياء والصالحين في ترك موالاة أهل الباطل.

من المعلوم أن معركة الحق والباطل ماضية لا تنقطع، ودائمة لا تنقضي، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك هما قطبان لا يجتمعان؛ كالظلمة والنور، فكلما كان النور قويًّا ساطعًا بدَّدَ من حلكة الظلام بقدر قوته وسطوعه؛ وكذلك هم أهل الحق، فكلما كانوا متوافرين قائمين على أمر الله بدَّدُوا من شرور أهل الباطل بقدر وفرتهم وقوتهم بالحق.

وقد كثرت في القرآن الكريم الأمثلةُ التي تبيِّنُ الموالاة لله والمعاداةَ فيه بين أهل الحق وخصومهم؛ ومنها مسألة البراءة من أهل الضلال وأعمالهم.

فانظر على سبيل المثال لا الحصر براءة إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه بسبب شركهم وكفرهم؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا﴾[الممتحنة: ٤].

وكذلك براءة نبي الله هود عليه السلام من قومه بسبب شركهم وكفرهم أيضًا؛ حينما قال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[هود: ٥٤].

وكذلك براءة يوسف عليه السلام من قومه بسبب ضلالهم وكفرهم؛ لما قال لصاحبي السجن: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٣٧].

وكذلك براءة أصحاب الكهف من شرك قومهم ومفارقتهم إياهم بسبب شركهم وكفرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم

﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[الكهف: ١٦].

وأيضًا براءة خاتم الأنبياء والمرسلين من قومه بسبب شركهم وكفرهم؛ بقوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٩]، وكذلك براءته منهم في سورة (الكافرون)ومما كانوا يعبدون.

وهنا قد يقول قائل: هل يستلزم التبرؤ من أهل الباطل أن يُفارقوا مفارقة أبدان وأمصار؟!

الجواب: أنه لا يستلزم التبرؤ مما عليه أهل الباطل من الكفر أو الفسق أو المعاصي أن تُتركَ الأوطانُ بسببهم، بل ينبغي أن يُجتهد في دعوتهم إلى الحق، وإلى ما فيه صلاح أمرهم في الدنيا والآخرة، ولا يمنع ذلك من هجرهم ردعًا لهم عن باطلهم وتأنيبًا لهم عما اقترفته أيديهم من الشرور والآثام.

وأما مفارقة الرسل لأقوامهم والهجرة عن أوطانهم فما هو إلا لعلمهم بتعنت أقوامهم عن الإيمان ومنعهم عبادة الرحمن وإيذائهم وإجبارهم على الكفر والباطل، فاستلزم ذلك مفارقتهم والهجرة من ديارهم.

المطلب الثالث: بيان أن معاداة أهل الباطل لا تُنافي حسن معاملتهم.

فإن مسألة البراءة منهم ومعاداتهم إنما هي بسبب ما هم عليه من الضلال في دينهم واعتقادهم، أما معاملتهم كصلة الرحم والبر وحقوق الجيرة ونحوها، فهذا لا يستلزم حبهم ومودتهم.

وقد بيَّن الله تعالى ذلك بقوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾[الممتحنة: ٨].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾[الممتحنة: ٨]من جميع

أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله ﷻ عم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾[الممتحنة: ٨] جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب= غير محرم ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح»(١).

ويزيد هذا الأمر بيانًا قصة أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا مع أمها؛ فقد روى البخاري ومسلم عن أسماء رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: (نعم صلي أمك)(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: «البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل»(٣).

ومن هنا يتبين أن الموالاة المتمثلة في الحب والنصرة شيء، وأن النفقة والصلة والإحسان للأقارب الكفار شيء آخر(٤).

---

(١) جامع البيان (٢٢/ ٥٧٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين برقم (٢٦٢٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد، والوالدين ولو كانوا مشركين، برقم (١٠٠٣).

(٣) فتح الباري (٥/ ٢٣٣).

(٤) انظر: الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف؛ لمحمد القحطاني ص (٣٥٣).

المطلب الرابع: ثمرات موالاةِ الله تعالى ومعاداةِ أهل الباطل.

قد وردت في موالاة الله تعالى، ومعاداة أهل الباطل ثمرات عظيمة وفوائد عميمة، أذكر منها:

١- **إخراج الله المؤمنين من الظلمات إلى النور**[١]؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[البقرة: ٢٥٧] وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغون عنه بدلًا ولا يشركون به أحدًا، قد اتخذوه حبيبًا ووليًّا، ووالَوا أولياءَه وعادَوا أعداءَه، فتولاهم بلطفه ومنَّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور»[٢].

٢- **إذهاب الخوف والحزن عنهم، وأن ولايتهم له تعالى بإيمانهم وتقواهم**[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢ - ٦٣].

فـ «لا خوف عليهم فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال، ولا هم يحزنون على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله

---

(١) انظر: أضواء البيان (١/ ٢٦٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١١١).

(٣) أضواء البيان (١/ ٢٦٧).

تعالى»[١].

٣- **نصرهم على عدوهم، والتمكين لهم في الأرض**، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾[آل عمران: ١٥٠]. أي: وليكم وناصركم على أعدائكم[٢].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أن من أسباب انتصار صلاحِ الدِّين الأيوبي[٣] هو عدم موالاته للنصارى.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمسلمون قد كثروا بالديار المصرية، وعمرت في هذه الأوقات حتى صار أهلها بقدر ما كانوا في زمن صلاح الدين مرات متعددة؛ وصلاح الدين وأهل بيته ما كانوا يوالون النصارى، ولم يكونوا يستعملون منهم أحدًا في شيء من أمور المسلمين أصلًا؛ ولهذا كانوا مؤيدين منصورين على الأعداء مع قلة المال والعدد»[٤].

٤- **ترسيخ الأخوة الإيمانية بين أهل الحق، والتأليف بين قلوبهم وتوحيد صفوفهم ضد أهل الباطل**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قلوبهم

---

(١) أضواء البيان (٣٦٨).

(٢) انظر: جامع البيان (٦/ ١٢٦).

(٣) هو: يوسف بن أيوب بن شاذي أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام، وهو من أصل كردي، ولد بتكريت سنة ٥٣٢هـ، وسيرته مشهورة طبقت الآفاق لما له من الأيادي البيض في نصرة الإسلام وأهله، منها تخليص بيت المقدس وبلاد فلسطين والساحل الشامي من براثن الصليبيين فقد كان موفقًا في حروبه لهم فقد هزمهم شر هزيمة في حطين وغيرها من الوقائع، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (٥٨٩هـ). انظر ترجمته في وفيات الأعيان (٧/ ١٣٩-٢١٨)، والكامل لابن الأثير (١١/ ٤١٥)، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٧٨-٢٩١).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٤٤).

واحدة موالية لله ولرسوله ولعباده المؤمنين، معادية لأعداء الله ورسوله وأعداء عباده المؤمنين، وقلوبهم الصادقة وأدعيتهم الصالحة هي العسكر الذي لا يغلب والجند الذي لا يخذل؛ فإنهم هم الطائفة المنصورة إلى يوم القيامة»[(١)].

ومن خلال ما تقدم: فإنه يحرم على أهل الحق موالاة أهل الباطل مطلقًا قولًا وفعلًا واعتقادًا، وأن ذلك مدعاة لغضب الله تعالى ومقته، وأن الواجب عليهم البراءة من أهل الباطل ما داموا على باطلهم، حتى يلقى الله كل فريق منهم.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٤٤).

المبحث الثالث

المنع من اتخاذهم بطانة

من المعلوم أن المرء إذا أراد أن يتخذ له صاحبًا يفرح بلُقياه ويأنسُ لمرآه= لم يتخير من أقرانه أو معارفه إلا من طابت نفسُهُ، وصفت سريرته، ووجد - فيه - من صفات الكمال، ومروءة الرجال، ما تطيب به خلته، وتستطيب له معاشرته، ويفضي له من أسراره ما ينتفع بمشورته وأفكاره، حتى يكون مرآته الصافية؛ فيصدقُهُ ولا يَكذِبُهُ، وينصحه ولا يغشُّه.

والمرءُ إنما توزن أخلاقه وتُعرف شمائله بإخوانه وأصفيائه، وقد قال النبي ﷺ: (**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**)[1]. أي على عادة صاحبه وطريقته وسيرته وسلوكه[2].

فمن كان ذا عقل رشيد، ورأي سديد= لا يتخذ له صاحبًا يرى فيه من الشر، ويأتي بسببه من الضر ما يكون سببًا في إفساد دينه ودنياه.

وهذا في حق العقلاء من الناس وعامتهم فكيف إذا كان من خاصتهم ؟! كأن يكون صاحب ولاية، وله اليد الطُّولى والكلمة المسموعة والأمر المطاع، وتتوقف عليه صنوف وألوان من مصالح العباد وأمور البلاد، فحري به أن يتخذَ له خاصة من أصحابه وخلانه - وهو ما يسمى بالبطانة - ممن حسنت سيرتهم، وصلحت أحوالهم، وعرفوا برجاحة العقل= ما تستقيم به مشورتهم، ويأتي بالنفع لمن ساسهم وتولى أمرهم.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب: مَن يُؤمَر أن يُجالِسَ، برقم (٤٨٣٣)، والترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب الرجل على دين خليله، برقم (٢٣٧٨)، وقال: «حديث حسن غريب». وحسنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ في الصحيحة (٢/ ٥٩٧) برقم (٩٢٧).

(٢) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي (٢/ ٧٨).

فهم يوضحون له مواطن الخلل والزلل، من غير كلل أو ملل، أو خوف فوات منفعة ذاتية لهم، ويقفون معه، ويأخذون بيده نحو مسارب النجاح ومسالك الفلاح.

ولذا كانت البطانة بطانتان: بطانة صالحة خيِّرة تحث على الخير وتدل عليه، وبطانة فاسدة سيئة تزين الشر وتدعوا إليه.

وهذا هو تقسيم النبي ﷺ؛ فعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **(ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله)**[(١)].

وقد نهى القرآن الكريم عن اتخاذ بطانة السوء، ورغب ببطانة الصلاح التي تدل على الخير وتعين عليه.

وهذا ما توضحه المطالب التالية:

المطلب الأول: معنى البطانة لغةً واصطلاحاً.

البِطانة لغة: هم خاصةُ الرجل وخلصاؤُه.

ولذلك يقال: بَطَن فلان بفلان يَبْطُن به بُطونًا: إذا كان خاصًّا به، داخلًا في أمره. ويقال: إن فلانًا لذو بطانة بفلان: أي ذو علم بداخلة أمره.

ويقال: أنت أبطنت فلانًا دوني، أي: جعلته أخصَّ بك مني، وهو مُبطَن: إذا أدخله في أمره وخُصّ به دون غيره، وصار من أهل دخلته[(٢)]، وأبطنتَ الرجل إذا جعلتَه من خواصك[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في صحيه، كتاب القدر، باب: المعصوم من عصم الله، برقم (٦٦١١).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ٤١٤).

(٣) لسان العرب (١٣/ ٥٢).

وأما اصطلاحًا: فقد عرفها العلماء بتعريفات عديدة: فقيل: البطانة: «الصَّاحِبُ للسِّرِّ الذي يُشاوَرُ في الأحوال» (١).

وقيل: «هو الذي يُختَصُّ بالولوجِ والاطّلاع على باطِنِ الأمرِ»(٢)، وقيل: «هم الدُّخلاءُ الذين يُنبسط إليهم ويستبطنون» (٣).

وهذا الأخير هو اختيار الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد بوب في صحيحه باب: (بطانة الإمام وأهل مشورته، البطانة الدُّخلاء)(٤).

وقد بيَّن ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن معنى الدخلاء: «هو الذي يدخل على الرئيس في مكان خلوته، ويفضي إليه بسره، ويصدقه فيما يخبره به مما يخفى عليه من أمر رعيته، ويعمل بمقتضاه»(٥).

ولعل التعريف الجامع لما سبق هو أن **البطانة: «هم الذين يُدنيهِمُ الإنسانُ منه، ويتخذُهم موضعَ سرِّه، فيطلعُهم على ما يخفيه ويُبطنُه عن غيرهم»**(٦).

المطلب الثاني: تحذير القرآن الكريم من اتخاذ البطانة السيئة.

ورَدَ النهي عن اتخاذ البطانة الفاسدة في عدة آيات:

الأولى: قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ ﴾[آل عمران: ١١٨].

---

(١) تاج العروس (٣٤/ ٢٦٣).

(٢) المصدر السابق (٣٤/ ٢٦٣).

(٣) تهذيب اللغة (٤/ ٤١٤).

(٤) صحيح البخاري (١٢٤٠).

(٥) فتح الباري (١٣/ ١٩٠).

(٦) التفسير القرآني للقرآن (٢/ ٥٦٥).

فقد نهى الله تعالى أهل الحق أن يتخذوا بطانة من أهل الباطل، يظهرونهم على سرائرهم، أو يولونهم أعمالهم، والذي يعود بالضرر والمفسدة عليهم في الدين والدنيا[(١)].

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾[آل عمران: ١١٨]، أي من غير المؤمنين، وغير أهل دينكم وملتكم[(٢)].

وفي هذا تحذير من الله لأهل الحق عن ولاية الكفار، واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء، يسرون إليهم، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين[(٣)].

الآية الثانية: قول الله ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[التوبة: ١٦] والشاهد من الآية قوله سبحانه : (وليجة).

والوليجة: هي البطانة (بلغة كنانة)[(٤)]؛ قال ابن الأثير: «ولِيجَةُ الرَّجُل: بِطانَتُه ودُخَلاؤُه وخاصَّتُه»[(٥)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[التوبة: ١٦].أي: لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين بطانة ودخيلة.

فقد نهى الله تعالى المؤمنين أن يتخذوا من أهل الباطل بطانة يفشون إليهم أسرارهم، ويسندون إليهم أمورهم، ويفاوضونهم في الآراء، أو يشاورونهم في مصالح المسلمين

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (١٤٤).

(٢) انظر: جامع البيان (٥/ ٧٠٧).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٩٧٣).

(٤) انظر: كتاب الكليات؛ لأبي البقاء الكفوي (١٥٢٣).

(٥) النهاية في غريب الحديث (٥/ ٥٠٢).

وقضاياهم[١].

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾[التوبة: ٢٣]. وقد فسر كثير من العلماء النهي عن اتخاذهم أولياء في هذه الآية أي: بطانة وأصدقاء[٢].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام»[٣].

المطلب الثالث: أسباب النهي عن اتخاذ البطانة الفاسدة.

والأسباب في النهي عن اتخاذ البطانة الفاسدة كثيرة، وجماعها ثلاثة أسباب ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾[آل عمران: ١١٨].

فالسبب الأول: هو حرصُ أهل الباطل على حصول الفساد والضرر بأهل الحق، وعدمُ تقصيرهم في أي أمر فيه نكاية بالمسلمين وإضعافٌ لشأنهم.

وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾[آل عمران: ١١٨].

وقوله: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ﴾ أي: لا يقصرون[٤]، و﴿خَبَالٗا﴾ من الخبل أي: الفساد[١].

---

(١) جامع البيان (١١/ ٣٧٢).

(٢) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن؛ للبغوي (٢/ ٣٢٧)، وكذلك الكشف والبيان؛ للثعلبي (٥/ ٢١) وغيرهم.

(٣) انظر: جامع البيان (١١/ ٣٨٣)، والجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٧٨).

(٤) انظر: النكت والعيون (١/ ٤١٩)، والكشف والبيان للثعلبي (٣/ ١٣٤)، وأيضًا لسان العرب =

والمعنى: أنهم لا يقصرون ولا يدخرون جهدًا في حصول الضرر والمفسدة بكم.

ومن هذا الضرر الذي لا يدخرون جهدًا في حصوله:

١- سعيهم لنشر الفتن والفساد بين المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما كثرت الفتن بين المسلمين وتفرقوا على ملوكهم من حين دخل النصارى مع ولاة الأمور بالديار المصرية؛ في دولة المعز، ووزارة الفائز... وغير ذلك»[٢].

٢- قتل المسلمين، وسفك دمائهم، وانتهاك أعراضهم، وتخريب بيوتهم.

كما حصل من خيانة وزير الخليفة العباسي ابن العلقمي[٣] الرافضي الذي تسبب بدخول التتار إلى بلاد المسلمين و حصلت مقتلة عظيمة فيهم آنذاك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذين يوجدون في بلاد الإسلام؛ من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم من أتباعهم، وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين وكان وزير هولاكو النصير الطوسي من أئمتهم، وهؤلاء أعظم الناس عداوة للمسلمين وملوكهم، ثم الرافضة بعدهم»[٤].

=

(١٤/ ٤٠).

(١) انظر: لسان العرب (١١/ ١٩٦)، مقاييس اللغة (٢/ ٢٤٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٤٠).

(٣) هو أبو طالب محمد بن أحمد بن علي الأسدي البغدادي الرافضي المعروف بابن العلقمي، قال عنه الزركلي: «وزير المستعصم العباسي، وصاحب الجريمة النكراء في ممالأة هولاكو على غزو بغداد، اشتغل في صباه بالأدب، ووثق به المستعصم فألقى إليه زمام أموره، وكان حازمًا خبيرًا بسياسة الملك، كاتبًا فصيح الإنشاء» هلك سنة (٦٥٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٧٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣٦).

وقال أيضًا في بطانة الخليفة العباسي: «وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة، وقتل أهل بغداد؛ ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر[١] على المسلمين وكاتب التتار حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهى الناس عن قتالهم»[٢].

٣- سعيهم للنكاية بالمسلمين بإفشاء أسرارهم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد عرف أهل الخبرة أن أهل الذمة من اليهود والنصارى والمنافقين يكاتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين، وبما يطلعون على ذلك من أسرارهم؛ حتى أُخذ جماعة من المسلمين في بلاد التتر وسبيَ، وغير ذلك؛ بمطالعة أهل الذمة لأهل دينهم»[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وقد ذكر حال بعض ملوك المسلمين: «وهذا الملك الصالح كان في دولته نصراني يسمى محاضر الدولة أبا الفضائل بن دخان ولم يكن في المباشرين أمكن منه.

وكان المذكور قذاة[٤] في عين الإسلام، وبثرة[٥] في وجه الدين، ومثالبه في الصحف مسطورة، ومخازيه مخلدة مذكورة، حتى بلغ من أمره أنه وقَّع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكاتب الفرنج بأخبار

(١) تآمر.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٣٧).

(٣) المصدر السابق (٢٨/ ٦٤٦).

(٤) قال ابن منظور في اللسان (١٥/ ١٧٢): «والقذى: ما يقع في العين وما ترمى به».

(٥) هي النقط التي تخرج في الوجه، وتشبه الجدري. انظر: تهذيب اللغة (١٥/ ٦٠)، ولسان العرب (٤/ ٣٩).

المسلمين وأعمالهم وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها.

وكان مجلسه معمورًا برسل الفرنج والنصارى؛ وهم مُكرَمُون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الأدرار والضيافات، وأكابر المسلمين محجوبون على الباب لا يؤذن لهم وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام»(١).

فإدناءُ هؤلاء وتقريبُهم سببٌ عظيم من أسباب المحن والابتلاء للمسلمين في كل زمان ومكان.

وأما السبب الثاني: فهو تمني أهل الباطل ومحبتهم حصول المشقة والأذى بأهل الحق، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾[آل عمران: ١١٨]. والعنت شدة الضرر والمشقة(٢).

أي يفرحهم وقوعكم في العنت والمشقة ويحزنهم ضد ذلك؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[التوبة: ٥٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا حال الباطنية والرافضة في ذلك: «وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور»(٣).

وفي هذا دليل على ما في قلوبهم من شدة الكراهية لأهل الحق، لدرجة أنهم يتمنون أي شيء يعنتهم ويثقل كاهلهم بالهموم والآلام.

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٤٩٦-٥٠٠).

(٢) انظر: جامع البيان (/ ٧٠٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٤٠). قلت: وهذا ما عايشناه في وقتنا الحاضر وما خبرناه من هؤلاء المجرمين؛ وذلك بعد أن ازدادت قوتهم واشتد بطشهم بأهل السنة في العراق والشام وغيرها.

وأما السبب الثالث: فهو كراهيةُ أهل الباطل وبغضُهم لأهل الحق، ما يجعلهم يفعلون أي شيء فيه الإضرار بهم أو إهلاكهم، وهذا الذي يظهر منهم هو شيء قليل مما يخفونه في نفوسهم السوداء المظلمة التي لا تعرف سوى لغة الكره لها منطقًا والشر لها دليلًا.

قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[آل عمران: ١١٨].

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: «قد بدت بغضاء هؤلاء - الذين نهيتكم أيها المؤمنون أن تتخذوهم بطانة من دونكم - لكم بأفواههم، يعني بألسنتهم، والذي بدا لهم منهم بألسنتهم إقامتهم على كفرهم، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمون من الضلالة»(١).

فإذا كان هذا حال أهل الباطل، فهل يُعقل أن يتخذوا بطانة ونصحاء يُؤمنون فيها على مواضع الأسرار، ويُقدمون على الصالحين والأخيار ؟!

فهذه الأسباب الثلاثة هي كالأصول لكل سبب ينهى عن اتخاذ أهل الباطل بطانة، من مثل الكذب والغش والمكر والخديعة والخيانة ونحوها.

ومن صور البطانة الفاسدة وما سببته من مفاسد: خيانة الوزير ابن العلقمي للخليفة العباسي.

فقد تولى ابن العلقمي الوزارة سنة (٦٤٢هـ) في خلافة المستعصم بالله(٢)، وكان

---

(١) جامع البيان (٥/ ٧١٢).

(٢) هو الخليفة عبد الله بن منصور الهاشمي، العباسي، آخر الخلفاء العباسيين، كان فاضلًا، تاليًا لكتاب الله، كريمًا، حليمًا، ديِّنًا، استوزر ابن العلقمي الرافضي، فحسن له جمع الأموال، وأن يقتصر على بعض العساكر، فقطع أكثرهم، وكان يعلب بالحمام، وفيه حرص وتوان؛ قتل على =

المستعصم ضعيفًا سهل الانقياد سيئ التدبير، قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان فيه شح، وقلة معرفة، وعدم تدبير، وحب للمال، وإهمال للأمور، وكان يتكل على غيره، ويَقْدُم على ما لا يليق وعلى ما يُستقبح، وكان يلعب بالحمام، ويهمل أمر الإسلام»[١].

وقد استطاع الخبيث الرافضي ابن العلقمي أن يفعل وحده من الشر ما قد تعجز عن فعله الجيوش المحاربة، فقد كان داهية استطاع أن يستغل صفات الضعف في الخليفة لينفث سموم حقده، وينفذ مخططاته الفاجرة في هدم دولة المسلمين وتمزيقها.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ثم ركن – أي الخليفة – إلى وزيره ابن العلقمي، فأهلك الحرث والنسل، وحسَّن له جمع الأموال، والاقتصار على بعض العساكر، وقطع الأكثر، فوافقه على ذلك... وابن العلقمي يلعب به كيف أراد، ولا يُطلِعه على الأخبار، وإذا جاءته نصيحة في السر أطلع عليها ابن العلقمي، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا»[٢].

ومن أفعاله الإجرامية التي استطاع من خلالها أن يسقط دعائم الخلافة العباسية أمور؛ أهمها:

١- قيامه بإضعاف الجيش الإسلامي، وذلك بالاقتطاع من أرزاق الجند، والتقليل من النفقات المصروفة للجهاد.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان الوزير ابن العلقمي يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل، فلم

=

يد التتار رفسًا حتى مات سنة (٦٥٦ هـ). انظر ترجمته في: السير (١٦/ ٣٧٩)، تاريخ الإسلام (١٤/ ٨١٨)، النجوم الزاهرة (٧/ ٦٣).

(١) تاريخ الإسلام (٤٨/ ٢٦٠).

(٢) المصدر السابق (٤٨/ ٢٦٠).



يزل يجتهد في تقليلهم، إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف»[١].

٢- قيامه بمكاتبة التتار، وعرض المشورة والمعونة عليهم من أجل اقتحام بغداد وإسقاطها، وإطلاعهم بما يحتاجونه من الأسرار والمعلومات.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم كاتب التتار، وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهَّل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال»[٢].

٣- نهيه عن قتال التتار، وتثبيطه للخليفة عن ذلك، وبثه للفرقة والتخذيل بين جماعة المسلمين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأوهم الخليفة وحاشيته أن ملك التتار يريد مصالحتهم، وأشار على الخليفة بالخروج إليه، والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة، فخرج الخليفة إليه في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والأمراء والأعيان»[٣].

وعندما ذهب الخليفة لملاقاة التتار قاموا بقتله ومن معه من قواد الأمة وطلائعها بدون أي جهد من التتار، وذلك بناء على حيلة ابن العلقمي أخزاه الله[٤].

وبعدها «مالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥).

(٢) المصدر السابق (١٣/ ٢٣٥).

(٣) المصدر السابق (١٣/ ٢٣٤).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٣٤).

ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب[١] من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك في المساجد والجوامع والرَّبُط[٢]، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي... وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها، كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة»[٣].

وأما عن أعداد قتلى المسلمين فهي كبيرة جدًّا، ولم تحصل في تاريخ الإسلام مثلها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقالُ إنهُ بضعةَ عشر ألفِ ألفِ إنسانٍ أو أكثر أو أقل، ولم يُر في الإسلامِ ملحمةٌ مثلَ ملحمةِ التركِ الكفارِ المسمين بالتترِ، وقتلوا الهاشميين، وسبوا نساءهم من العباسيين وغير العباسيين»[٤].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة. فقيل: ثمانمائة ألف، وقيل: ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل: بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[٥].

---

(١) جمع ميزاب؛ وهو القناة أو الأنبوبة التي يسيل منها الماء من المكان العالي. انظر: اللسان (١/ ٤٤٧)، وتاج العروس (٢/ ٢٤)، والمعجم الوسيط (١/ ١٥).

(٢) هو مكان ربط الخيول والدواب، وهو ما يسمى في زماننا على الإصطبل والحظيرة. انظر: لسان العرب (٧/ ٣٠٢).

(٣) البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥).

(٤) منهاج السنة (٥/ ١٥٥).

(٥) البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥).

كما قام التتار بقتل الخطباء والأئمة، وحملة القرآنِ، فتعطلت المساجدُ والجماعاتُ والجمعاتُ مدة شهورٍ ببغداد[١].

ثم انتشرت الأوبئة والأمراض، بسبب جثث المسلمين المتفسخة، حتى انتقلت الأمراض إلى الشام ومات كثير من الناس فيها بسبب ذلك.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يومًا، بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[٢].

كما قام التتار بتدمير مكتبة بغداد العظيمة، وهي أعظم مكتبة على وجه الأرض في ذلك الزمن، وهي الدار التي كانت تحوي عصارة فكر المسلمين في أكثر من ستمائة عام، وجمعت فيها العلوم والآداب والفنون[٣].

حتى قيل: إن نهر دجلة تحول لون مياهه إلى اللون الأسود من أثر مداد الكتب، و قيل: إن الفارس التتري كان يعبر فوق المجلدات الضخمة من ضفة إلى ضفة أخرى[٤].

وهذا غيض من فيض؛ وقد حصل من الضُّر والمفاسد بسبب بطانة السوء ما تشيب منه الأجنة في البطون، وتحترق له القلوب، وتبكي عليه العيون.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٣/ ٢٣٦).

(٢) المصدر السابق (١٣/ ٢٣٦).

(٣) انظر: محنة الإسلام الكبرى د. مصطفى طه: ص (١٧٧- ١٧٨).

(٤) المصدر السابق (١٧٨).

فليتأمل المتأملون، وليتدبر العاقلون هذه الفاجعة الكبرى، والمقتلة العظمى والتي أهريقت منها الدماء، وتناثرت الأجساد أشلاء، وانتهكت بسببها الحرمات، وما حل بالمسلمين حينها من المحن والبلايا، والمآسي والرزايا مما تعجز الأقلام عن كتبه، والألسن عن وصفه، وكل ذلك بسبب البطانة الفاسدة.

ولو علم ذلك الخليفة - رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له - وقدَّر ما سيكون من النتائج الأليمة، والعواقب الوخيمة، من استبطانه لذلك المجرم الفاجر وأمثاله لما فكر، أو جرى على خاطره أن يستبطنهم، ويجعل منهم الوزراء والقادة؛ لما في ذلك من أسباب الشقاوة والإبادة(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب، ومكاتبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان لثناهم ذلك عن تقريبهم وتقليدهم الأعمال»(٢).

فهل من العقل والحكمة أن يضع المرء عقربًا في جيبه، أو يُدني اللصَ من ماله وسيبه؟؛ بل هو ضرب من الحماقة ولون من ألوان الصفاقة.

وهل من الديانة والأمانة أن يُقلَّد المفسدون أعلى المنازل، ويبقى الصالحون في

---

(١) ولعل ما يحصل في الشام اليوم هو من هذا القبيل، فأول ما بدأ حكم النصيرية كان باستلامهم وزارة، ثم ما لبثوا إلا قليلًا حتى وصلوا للسلطة العليا، واستحوذوا على كل شيء، فساسوا الناس وساموهم سوء العذاب، وأنفذوا فيهم الخنا والرذيلة، ورسموا منهجًا لإضعاف عسكر الشام وذلك بإعطاء المناصب العليا لمن هو على ملتهم؛ كما أن الأولوية للدخول في الجندية هي لهم؛ فلذلك ما يحصل اليوم من الإبادة بحق المسلمين في الشام لم يكن إلا بسبب وصول هؤلاء للحكم واستلامهم زمام الأمور. فإلى الله المشتكى.

(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ٤٩٦).

درك وسافل؟.

فهذا أمرٌ لا يختلف فيه اثنان، لا ينتطَح فيه كبشان؛ لكن هيهات هيهات من يعي ويتدبر، وبغيره يتعظ ويتفكر. وقليل ما هُم!!.

المبحث الرابع

منع الاستغفار لبعض الفئات منهم

تقدم فيما مضى نهيُ القرآن الكريم عن موالاة أهل الباطل، والأمرُ بالإعراض عنهم حين السفه والعناد والتمادي في الغي والضلال، وكذلك النهيُ عن إدنائهم وتوقيرهم واتخاذهم بطانة، وهذا كله من تعامل القرآن الكريم مع المخالفين بالشدة التي لا تنافي العدل والإنصاف.

ومن ذلك أيضًا: منعُ الاستغفار لبعض الفئات منهم؛ ممن مات على كفره وشركه، وهذا ما توضحه المطالب التالية:

المطلب الأول: معنى الاستغفار لغةً وشرعاً.

أما الاستغفار لغةً: فهو من الغَفْر: وهو الستر والتغطية؛ فيقال: غفر الله ذنوبه، أي: سترها[١]، ويأتي أيضًا بمعنى العفو والتجاوز؛ فيقال: غفر الله ذنبه؛ أي تجاوز عن ذنبه وعفا عنه[٢].

ومن هذا الباب: اسما الله ﷻ (الغفار والغفور) فـ «هما من أبنِية المُبالَغة، ومعْناهما: السَّاترِ لذُنوبِ عِبَاده وعُيوبِهم، المُتَجاوِز عَن خَطَاياهُم وذنوبِهم»[٣].

وأما شرعًا؛ فالاستغفار هو طلب المغفرة للذنوب، والتوبة منها.

المطلب الثاني: نهي القرآن الكريم عن الاستغفار لبعض الفئات منهم.

نهى القرآن الكريم بالدعاء لهم بالرحمة والمغفرة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٣/ ٧٣)، ولسان العرب (٥/ ٢٥).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٧٠٣)، ولسان العرب (٥/ ٢٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث (٣/ ٧٠٣).

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[التوبة: ١١٣].

وسبب نزول هذه الآية هو: قول النبي ﷺ لعمه أبي طالب: (**أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك**)(١). وذلك حين موته حيث قال له النبي ﷺ: قل لا إله إلا الله؛ ولم يقلها.

وكذلك استغفار بعضِ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لآبائهم مستدلين باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ فعن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (سمعت رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال: أو ليس استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٣])(٢).

ثم بيَّن الله أن سبب استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه لم يكن إلا عن وعد قطعه له قبل أن يُنهى عن ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ [التوبة: ١١٤].

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والموعدة التي وعدها إياه: هي المذكورة في سورة (مريم): ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾[مريم: ٤٦ - ٤٧]، ثم إن الله في سورة

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله؛ برقم (١٣٦٠).

(٢) رواه الترمذي، في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة التوبة، برقم (٣١٠١) وقال: «هذا حديث حسن».

الممتحنة استثنى الاستغفار للمشركين من أسوة إبراهيم، حيث قال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] ثم استثنى من هذه الأسوة: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] فلا أسوة لكم بإبراهيم فيه»[١].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟..﴾[التوبة: ١١٣] أي: ما كان ينبغي للنبي ﷺ والذين آمنوا به أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم ذوي قرابة لهم، من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان[٢].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي ما ينبغي لهم ذلك؛ وهو خبر بمعنى النهي»[٣].

وأيضًا من الأدلة على ذلك قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة: ٨٠].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويروى عن رسول الله ﷺ أنه حين نزلت هذه الآية قال: (لأزيدن في الاستغفار لهم على سبعين مرة)، رجاءً منه أن يغفر الله لهم، فنزلت ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[المنافقون: ٦]»[٤].

أي: سواء أستغفرت لهم ذنوبهم أم لم تستغفر لهم لن يصفح الله لهم عن ذنوبهم، بل سيعاقبهم عليها[٥].

وقد قيل: إن العدد سبعين في الآية إنما ذُكر حسمًا لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب

(١) العذب النمير (٢/ ٢٨٥).

(٢) انظر: جامع البيان (١٢/ ١٩).

(٣) فتح الباري (٨/ ٥٠٨).

(٤) جامع البيان (١١/ ٥٩٩).

(٥) انظر: جامع البيان (٢٢/ ٦٢٨).

في أساليب كلامها تذكر السبعين للدلالة على المبالغة، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، فإذا قال قائلهم: لا أكلمه سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله: لا أكلمه أبدًا، ومثله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[الحاقة: ٣٢] وقوله ﷺ: **(من صام يومًا في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا)**[(١)(٢)].

قال العلامة السعدي: «﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[التوبة: ٨٠] على وجه المبالغة، وإلا فلا مفهوم لها»[(٣)].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفهم عمر أيضًا من قوله: سبعين مرة؛ أنها للمبالغة، وأن العدد المعين لا مفهوم له؛ بل المراد نفي المغفرة لهم ولو كثر الاستغفار، فيحصل من ذلك النهي عن الاستغفار فأطلقه»[(٤)].

وكذلك نهى عن الصلاة عليهم، والقيام على قبورهم بالدعاء ونحوه، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[التوبة: ٨٤].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم في سبيل الله، برقم (٢٨٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، بلا ضرر ولا تفويت حق، برقم (١١٥٣).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٨٨)، والجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٢٠)، ومحاسن التأويل (٥/ ٤٦٣)، وأحكام القرآن لعماد الدين بن محمد الطبري، المعروف بالكيا الهراسي (٣/ ٧٦)؛ وقال الجصاص: «ذكر السبعين على وجه المبالغة في اليأس من المغفرة». أحكام القرآن (٣/ ١٨٥)، وقال أيضًا (٢/ ٤٧٩): «ليس المراد به توقيت العدد المذكور، وإنما المراد تأكيد نفي الغفران».

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣٤٦).

(٤) فتح الباري (٨/ ٨٣٥).

فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد مات منهم، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر أو يدعو له؛ لأنهم ماتوا على الكفر.

وقوله: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[التوبة: ٨٤]، أي: قيام داع ومستغفر[(١)].

وهذا حكم عام في كل من عُرف كفره، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين[(٢)].

فعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «لما توفي عبد الله - هو ابن أبي - جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: (**إنما خيرني الله فقال**: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] **وسأزيده على السبعين**)، قال: إنه منافق! قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله، ﷻ، آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[التوبة: ٨٤]»[(٣)].

ولذلك قال النووي: «ولا تجوز الصلاة على كافر؛ حربيًّا كان أو ذميًّا»[(٤)].

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما أهل الحرب فلا يُصلى عليهم؛ لأنهم كفار، ولا يُقبل

---

(١) انظر: النكت والعيون (٢/ ٣٨٩).

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم (٤/ ١٩٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم...)؛ برقم (٤٦٧٠) ورواه مسلم، كتاب صفة المنافقين وأحكامهم، باب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٧٤).

(٤) روضة الطالبين (٢/ ١١٨).

فيهم شفاعة، ولا يُستجاب فيهم دعاء، وقد نهينا عن الاستغفار لهم»(١).

المطلب الثالث: علة النهي عن الاستغفار والصلاة على الكافرين.

دلت الآيات على أن علة النهي هي (الكفر والشرك والنفاق).

قال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[التوبة: ٨٠].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[التوبة: ٨٠] والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافرًا»(٢).

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[التوبة: ٨٤]، فكان الكفر مانعًا من الصلاة عليهم والقيام على قبورهم، وقد نزلت هذه الآية بعدما صلى النبي ﷺ على رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول كما تقدم في حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا(٣).

وفي هذه المسألة هنا قد ترد بعض الإشكالات:

أحدها: قول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ: «يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟!»(٤).

---

(١) المغني (٢/ ٢٢٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣٤٦).

(٣) انظر الصفحة (٤٢٧).

(٤) تقدم تخريجه ص (٤٢٧).

والمفهوم من كلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كيف استغفر النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وقد نهاه الله عن ذلك؟!

الثاني: أنه ثبت أن النبي ﷺ استغفر للمشركين في غزوة أحد لما قال:(**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**)[(١)].

أما الجواب عن الإشكال الأول فإنه من وجهين:

أحدهما: أن استغفار النبي ﷺ لعبد الله بن أبي كان قبل نزول النهي عن الاستغفار للمشركين، وذلك بدليلين:

الأول: أن النبي ﷺ قال لعمر: (**إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها**)[(٢)]، فلو كان هناك نهي لما قال النبي ﷺ ذلك.

الثاني: أنه ثبت في رواية البخاري أنه بعد انصراف النبي ﷺ من الصلاة على عبد الله بن أبي بيسير نزلت عليه الآيتان من براءة.

فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعي له

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (٩٧٣) بإسناده حسن، ورجاله رجال الصحيح إلا أن محمد بن فليح فيه كلام ينزل حديثه إلى رتبة الحسن. وأخرجه الفسوي في تاريخه (١/ ٣٣٨)، والطبراني برقم (٥٦٩٤) من طرق عن ابراهيم بن المنذر الحزامي بهذا الإسناد. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١١٧)، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

وله شاهد من حديث ابن مسعود عند أحمد (٤١٠٨)، والبخاري برقم (٣٤٧٧)، بلفظ: قال عبد الله: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين رقم (١٣٦٦).

رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ، وثبت إليه فقلت: يا رسول الله؛ أتصلي على ابن أبي، وقد قال يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟؛ أعدِّدُ عليه قوله.

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: **(أخِّرْ عني يا عمر)**، فلما أكثرت عليه قال: **(إني خيرت فاخترت؛ لو أعلم أني إن زدت على السبعين فغفر له لزدت عليها)** قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ إلى ﴿ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤] قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ؛ والله ورسوله أعلم(١).

ولذلك - كما في رواية أحمد والترمذي - أن النبي ﷺ ما صلى بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، ﷻ(٢).

الثاني: أن النبي ﷺ أجرى حال ابن أبي على ظاهر حكم الإسلام فيه، ولما في ذلك من المصلحة الشرعية.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقوله [أي عمر] وصلى عليه إجراء له على ظاهر حكم الإسلام، كما تقدم تقريره واستصحابًا لظاهر الحكم، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته ومصلحة الاستئلاف لقومه ودفع المفسدة، وكان النبي ﷺ في أول الأمر يصبر على أذى المشركين ويعفو ويصفح ثم أمر بقتال المشركين فاستمر صفحه وعفوه عمن يظهر الإسلام، ولو كان باطنه على خلاف ذلك لمصلحة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين رقم (١٣٦٦).

(٢) انظر: مسند أحمد (٩٥)، وسنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة التوبة (٣٠٩٧). وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ١٢٣) برقم (١١٣١).

الاستئلاف وعدم التنفير عنه ولذلك قال: (لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) فلما حصل الفتح ودخل المشركون في الإسلام وقل أهل الكفر وذلوا أمر بمجاهرة المنافقين وحملهم على حكم مر الحق ولا سيما وقد كان ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على المنافقين وغير ذلك مما أمر فيه بمجاهرتهم، وبهذا التقرير يندفع الإشكال عما وقع في هذه القصة بحمد الله تعالى.

قال الخطابي: إنما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي ما فعل لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدين ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سبة على ابنه وعارًا على قومه فاستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهي فانتهى»[(١)].

و لعل بهذا يندفع ما أشكل على بعض العلماء في مسألة مفهوم العدد هل هو للمبالغة أو يراد به حقيقته.

وأما قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟!»[(٢)].

فإنه إما أن يكون إلهامًا من الله تعالى لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب)[(٣)].

---

(١) فتح الباري (٨/ ٨٣٥-٨٣٦).

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة (٤٢٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، برقم (٣٤٦٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٣٩٨).

أو أنـه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهـم ذلـك مـن سـياق قولـه تعـالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾[التوبة: ٨٠].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن قـال قائـل فكيـف قـال عمـر: أتصـلي عليـه وقـد نهـاك الله أن تصلي عليه؛ ولـم يكن تقدم نهي عن الصلاة عليهم ؟!

قيل له: يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره، ويكون مـن قبيـل الإلهـام والتحـدث الذي شهد له به النبي ﷺ، وقـد كـان القـرآن ينـزل علـى مـراده، كمـا قـال: وافقـت ربـي في ثلاث[١]... فيكون هذا من ذلك.

ويحتمل أن يكون فهـم ذلـك مـن قولـه تعـالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾[التوبة: ٨٠]. لا أنه كان تقدم نهي على ما دل عليه حديث البخاري ومسلم. والله أعلم»[٢].

وأما الجواب عن الإشكال الثاني: فإن قـول النبـي ﷺ: (**اللهـم اغفـر لقـومي فـإنهم لا يعلمون**)= يفيد جواز الدعاء للمشرك حال حياته، كما دعا النبي ﷺ لدوس فقال: (**اللهـم اهد دوسًا وأت بهم**)[٣] وكانوا وقتها على الإشراك.

---

(١) روى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وافقت ربي في ثـلاث: فقلـت يـا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلـت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾[البقرة: ١٢٥] وآيـة الحجـاب، قلـت: يـا رسـول الله، لـو أمـرت نسـاءك أن يحتجبن، فإنـه يكلمهـن الـبر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهـن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾[التحريم: ٥] فنزلت هذه الآية. رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة...؛ برقم (٤٠٢) وهذا لفظه. ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، بـاب مـن فضـائل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٣٩٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢١٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب الدعاء للمشـركين بالهـدى ليتـألفهم، بـرقم (٢٩٣٧)، =

فإذًا هناك فرق من جهتين:

١- فرق بين الاستغفار لهم بمعنى الدعاء بالهداية لهم، وبين الاستغفار لهم بمعنى الدعاء بالتجاوز عن سيئاتهم، وغفران كفرهم إن بقوا عليه.

٢- وفرق بين أن يكون هذا الدعاء في حياتهم، وبين أن يكون بعد مماتهم.

وعلة النهي عن الاستغفار للكافر بعد موته أمران:

أحدهما: أن الصلاة عليهم، والوقوف على قبورهم، هو نوع شفاعة لهم، والله بين أنه لا يقبل الشفاعة للكافرين، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾[غافر: ١٨] وقال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر: ٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة»[1].

الثاني: أنه من الاعتداء في الدعاء؛ فسؤال الله تعالى أمرًا لم يكن ليفعله= هو من قبيل ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن الاعتداء في الدعاء: أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله، مثل: أن يسأله منازل الأنبياء؛ وليس منهم، أو المغفرة للمشركين، ونحو ذلك»[2].

وبهذا يتبيَّن أنه لا يجوز الاستغفار لمن نهى الله تعالى أن يُستغفر لهم؛ وهم الكفار

=

ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب من فضائل غفار، وأسلم...؛ برقم (٢٥٢٤).

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٤٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٣٠).

والمشركون.

كما أن الاستغفار لهم نوع موادة وموالاة لهم، وفاعل ذلك على خطر عظيم وذنب كبير.

المبحث الخامس

عدم إعطائهم العهود إن ظهرت الخيانة منهم

فمن سمات أهل الحق تعظيمهم للعهود والمواثيق، وعدم نقضها من بعد توكيدها، فليست الخيانة طبعًا من طبائعهم، ولا إخفار العهود والمواثيق سجية من سجاياهم، كيف وقد امتدحهم الله -عز وجل- بأنهم أهل صدق ووفاء وتقى، فقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾[البقرة: ١٧٧] إلى أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

أما أهل الباطل فهم أصحاب خيانة للعهود ونقض للمواثيق إلا ما ندر، فلا يؤمن جانبهم سلمًا ولا حربًا. قال الله تعالى عن طائفة منهم: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾[الأنفال: ٥٦].

وقد حذر الله تعالى من صفة الخيانة ونهى عنها ونفَّر منها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾[النساء: ١٠٧]، أي: إن الله لا يحب من كانت صفته خيانة الناس في أموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وغير ذلك مما حرمه الله عليه[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢]. أي: أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم، فإنَّ كلَّ خائن لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبيَّن أمره، وتنكشف خيانته[(٢)].

وقد استعاذ النبي ﷺ من هذه الصفة القبيحة، فقال: (**وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها**

(١) انظر: جامع البيان (٥/ ٢٧٠).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٠٩)، وتيسير الكريم الرحمن (٤٠٠).

بئست البطانة)[١]. أي بئس ما يبطنه المرء في قرارة نفسه وداخلة أمره.

كما بين ﷺ أيضًا أن هذه الصفة هي خصلة من خصال المنافقين؛ فقال: **(أربع من كن فيه كان منافقا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)**[٢].

وقد أمر الله تعالى بتعظيم العهود والالتزام بها، وحرَّم الخيانة وحذر منها، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾[النحل: ٩١] والعهد هنا عام يشمل كل عهد؛ فالعهود مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، والعهود مع الخلق بالتزامها والوفاء بها وعدم نقضها وحلها إلا بحقها[٣].

وقال النبي ﷺ: **(من كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يشد عقدة**[٤]**، ولا يحلها حتى**

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب: في الاستعاذة برقم (١٥٤٧)، والنسائي في الاستعاذة، باب: الاستعاذة من الجوع برقم (٥٤٦٨)، وابن ماجه في الأطعمة، باب: الاستعاذة من الجوع برقم (٣٣٥٤)، وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (١٣٦٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: علامة النفاق؛ برقم (٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب خصال المنافق؛ برقم (٥٨)، بنحوه.

(٣) انظر: مدارج السالكين (١/ ٤٣٤).

(٤) قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: (فلا يحلنَّ عقدة ولا يشدنها حتى ينقضي أمدها) استعار عقدة الحبل لما يقع بين المسلمين من المعاهدة، ونهى عن حلها: أي نقضها، وشدها: أي تأكيدها بشيء لم يقع التصالح عليه، بل الواجب الوفاء بها على الصفة التي كان وقوعها عليها بلا زيادة ولا نقصان». نيل الأوطار (٨/ ١٣٣).

ينقضي أمدها، أو ينبذ[(١)] إليهم على سواء»[(٢)].

ثم رتب النبي ﷺ أشد العقوبات على من يخفر عهدًا، أو يقتل معاهدًا له ذمة عند المسلمين، قال ﷺ: **(ألا من قتل نفسًا معاهدًا له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا)**[(٣)].

فهذا هو الأصل العام في معاملة أهل الحق للخلق، سواء كان ذلك فيما بينهم، أو مع غيرهم ممن خالفهم.

وأما إذا نقض أهل الباطل العهد والميثاق مع أهل الحق فحينها تتغير الأحكام وتختلف المعاملة، **وهذا ما توضحه المطالب الآتية:**

المطلب الأول: أقسام المعاهدين من الكفار.

فالكفار إما أن يكونوا أهل حرب للمسلمين، أو يكونوا أهل عهد لهم[(٤)]، وقد بيَّن ذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: (كان المشركون على منزلتين من النبي ﷺ والمؤمنين؛ كانوا مشركي أهل حرب يقاتلهم ويقاتلونه، ومشركي أهل عهد لا يقاتلهم ولا

(١) النبذ في أصل اللغة: الطرح؛ والمراد: فاطرح إليهم عهدهم، ولتكن مستويًا معهم في العلم بنقض العهد.

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (١٧٠١٥)، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، برقم (٢٧٥٩)، والترمذي، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الغدر برقم (١٥٨٠)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٤٧٢) برقم (٢٣٥٧).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الديات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن يقتل نفسًا معاهدة برقم (١٤٠٣)، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب الترهيب (٣/ ٨٩).

(٤) انظر: أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٧٣).

يقاتلونه)[١].

وأما أهل العهد فهم أهل الذمة الذين يكون بينهم وبين المسلمين عهود ومواثيق، وهؤلاء على ثلاثة أقسام:

١- قسم استقاموا على العهد مع المسلمين وأَمِنُوا عليه.

٢- وقسم خانوا ونقضوا العهد.

٣- وقسم يظهرون الاستقامة للمسلمين، لكن يُخشى من خيانتهم، لوجود القرائن التي تدل على ذلك[٢].

المطلب الثاني: بيان حكمهم وكيفية معاملتهم.

على ضوء ما تقدم **فإن من استقام على العهد من الكافرين ووفى به**، فتجب الاستقامة له والوفاء بعهده؛ قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٧].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالاستقامة لهم في عهدهم ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم، وترك مظاهرة عدوهم عليهم»[٣].

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٤]، أي: وفوا لهم عهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ولا تنصبوا لهم حربًا إلى انقضاء أجل عهدهم الذي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب نكاح من أسلم من المشركات وعدتهن، برقم (٥٢٨٦).

(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية؛ لابن عثيمين (٢٣١).

(٣) جامع البيان (١١/ ٣١٢).

بينكم وبينهم[١].

وتأمل كيف ختم الله كِلا الآيتين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ٤] وذلك بيانًا عظمة هذ الأمر وأهميته، وترغيبًا في عدم نقض العهود وإخفارها.

وقد أمر النبي ﷺ بذلك؛ ففي حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيل[٢]، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال: «**انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم**»[٣].

وأما من نقض العهد وخانه فهؤلاء لا عهد لهم ولا كرامة، وإن كان بين المسلمين وبينهم عهد فيُنتقضُ بنقضهم له، وجاز للمسلمين قتالهم وقتها.

قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[التوبة: ١٢].

أي: إن هؤلاء المعاهدين من المشركين إن نقضوا العهود التي بينكم وبينهم وحلوها، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم، أو نقصوكم حقكم، وعابوا دينكم، وسخروا منه، بأي نوع من أنواع الطعن الموجهة إليه، أو إلى القرآن= فوجب قتال الرؤساء والقادة الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان. وقد خص هؤلاء الرؤساء بالذكر لعظم جنايتهم، وقبيح جريمتهم، ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين

---

(١) انظر: جامع البيان (١١/ ٣٤١).

(٢) حُسَيل: هو والد حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، واليمان لقب له. انظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٤٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الوفاء بالعهد، برقم (١٧٨٧).

وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر، فلا عهود ولا مواثيق لهؤلاء على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين، ناكثين للعهد، ناكبين عن الحق، لا يوثق بهم، ولا يؤمن جانبهم(١).

ولأجل ذلك لما خانت قريش عهدها، ونقضت عقدها مع النبي ﷺ في صلح الحديبية بأن غدرت علنًا، وأعانت البكريين الذين في حلفها على خزاعة التي في حلف المسلمين = غزاهم النبي ﷺ في غزوة الفتح، ولم يخبرهم بنبذ العهد عليهم، لأنهم خانوا العهد الذي عقدوه معه ﷺ(٢).

وأما من أظهر الاستقامة، وخيف منه الخيانة، لوجود القرائن التي تدل على ذلك= فهؤلاء جاز لأهل الحق نبذ العهود معهم، وردها عليهم، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

أي: إذا استشعرتم الخيانة من قوم بينكم وبينهم عهد، وتوقعتم أن ينكثوا هذا العهد على غرّة، دون أن يؤذنوكم بنكثه، والتحلل منه، فلا تفعلوا فعلهم، ولا تنقضوا عهدهم في السر والخفاء كما يفعلون، بل أنذروهم بذلك، وأعلموهم إياه بوضوح كامل، وبلفظ صريح، دون تلميح أو تلويح، ليكونوا على بيّنة من أمرهم، وحتى تكونوا أنتم وهم على درجة سواء في العلم بأنكم لهم محاربون، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرؤوا من صفة الغدر، ومَعَرَّةِ(٣) الخيانة(٤).

وقد يشكل في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾[الأنفال: ٥٨] بأن الخوف

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣٣٠).

(٢) انظر: السيرة لابن هشام (١٢٣٨)، والبداية والنهاية (٤/ ٢٨٣).

(٣) والمعرَّة: ما يصيب الإنسانَ من إثم. انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٢٥).

(٤) انظر: جامع البيان (١١/ ٢٣٨).

يطلق على الظن الذي لا يستلزم اليقين، والعهد شيء مؤكد متيقن، فكيف ينتقل عن حكم يقين العهد إلى ظن نقض العهد(١).

وأجاب العلماء عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن العرب قد تطلق الخوف بمعنى اليقين، كما إذا أطلقت الرجاء بمعنى العلم(٢). كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾[البقرة: ٢٢٩]. أي: علمتم من قرائن أحوالهما أنهما لا يقيما حدود الله(٣).

الثاني: وهو الذي عليه أكثر العلماء أنه إن خفت من قوم خيانةً وغدرًا، وظهرت لك أمارات ذلك، فاطرح إليهم العهد، وألقه عليهم، وأعلمهم بذلك، حتى تكون أنت وهم على سواء بالعلم أنه لا عهد بينك وبينهم(٤).

ومن صور الغدر والخيانة ما فعله يهود بني النضير بالنبي ﷺ عندما أرادوا أن يقتلوا النبي ﷺ.

وذلك أن النبي ﷺ خرج إلى بني النضير من أجل دية القتيلين من بني عامر، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف؛ فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في الدية قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله، فهل منكم رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد.

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٤٢٠)، والعذب النمير (٥/ ١٣٨).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح: ١٣].

(٣) انظر: أحكام القرآن (٢/ ٤٢٠)، والعذب النمير (٥/ ١٣٨).

(٤) انظر: جامع البيان (١١/ ٢٣٨)، والأحكام لابن العربي (٢/ ٢٤٠)، والعذب النمير (٥/ ١٤١).

فخرج شقي منهم وصعد ليلقي على النبي ﷺ صخرة فلم يجده، وكان جبريل عليه السلام قد أوحى إلى النبي ﷺ بخبر اليهود وغدرهم، فذهب النبي ﷺ وبطل كيد اليهود وغدرهم[1].

والخلاصة: أن أهل الحق أصحاب عهد ووفاء لمن وفى بعهدهم، وصدق بوعدهم، وإن عدم إعطاء العهود والمواثيق لأهل الباطل في حال الغدر والخيانة ما هو إلا من الشدة التي لا تنافي العدل والإنصاف، وذلك صيانة للإسلام وحماية للمسلمين من كيد الخائنين، وفجور الفاسقين.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٣).

المبحث السادس

مقابلة استهزائهم ومكرهم ومخادعتهم بمثلها

إن فسادَ حجج أهل الباطل وكسادَ آرائهم، وكذا عدم مقدرتهم على الوقوف أمام أهل الحق، ومن ثم التصدي لحججهم الدامغة وبراهينهم الساطعة = كل ذلك أدى إلى سلوك القبائح مما تمجُّه الفطر السليمة، وتلفظُه النفوس القويمة.

فتارة يتخذون الاستهزاء والسخرية وسيلة للتسفيه والتحقير، وتارة يتخذون المكر والكيد والخداع وسائل في التشويه والتضليل والتنفير.

وما سعيهم ونصَبُهُم إلا ليطفئوا نور الله ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٣٢].

فاقتضى ذلك من أهل الحق أن يدافعوا عن دينهم، ويتصدوا لباطل هؤلاء وضلالهم، ويقابلوا بعضًا من أفعالهم بمثلها؛ كالاستهزاء والمكر والمخادعة؛ وهي وإن اتفقت في الأصل العام للتسمية، إلا أنها تختلف عند الفعل والتطبيق.

وهذا ما توضحه المطالب الآتية:

المطلب الأول: بيان أن الاستهزاء والمكر والمخادعة هي من صفات أهل الباطل.

فقد كثر في القرآن الكريم ذكر صفات أهل الباطل، وبيان واقع حالهم وذكر أخلاقهم وتعاملهم فيما بينهم، وكذلك مع غيرهم، ومن هذه الصفات: الاستهزاء والمكر والمخادعة.

وقبل أن أذكر الآيات الدالة على ذلك، ينبغي بيان معنى هذه الصفات لغة واصطلاحًا. وذلك في المسألة الأولى، وتليها المسألة الثانية التي سأذكر فيها الآيات

الدالة على تلبس أهل الباطل بهذه الصفات.

المسألة الأولى: تعريف هذه الصفات لغةً واصطلاحًا.

أما الاستهزاء لغة: فهو مصدر قولهم: استهزأ يستهزئ، يقال: هَزَأَ منه وهَزِأَ به، يَهْزَأُ هُزْءًا بِالضم، وهُزُءًا بِضَمَّتَيْنِ، وهُزُوءًا بالضم والمدِّ، ومَهْزُأَةً على مَفْعُلَة بضم العين، أي: سَخِر منه[(١)].

واصطلاحًا: «هو حمل الأقوال والأفعال على الهزل واللعب؛ لا على الجد والحقيقة»[(٢)].

وأما المكر لغة: فهو مصدر قولهم: مكر به يمكر، وهو من مادة (م ك ر)التي تدل على الاحتيال والخَدِيعَة[(٣)].

واصطلاحًا: هو إيصال المكْروه إلى الإنسان مِن حيث لا يشعر[(٤)].

وأما المخادعة لغة: فأصل هذه المادة يدل على إخفاء الشيء، فالخَدْعُ: إِظْهَارُ خِلَاف مَا تُخْفيه، يقال: خَدَعَهُ يَخْدَعُهُ خَدْعًا وخِداعًا أي: خَتَلَه، وأراد به المكروه مِن حيث لا يعلم. والاسم الخَدِيعَةُ، وقيل: الاسم هو الخداع، وقيل غير ذلك[(٥)].

واصطلاحًا: «هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخَادع»[(٦)].

---

(١) انظر: تاج العروس (١/ ٥٠٩)،

(٢) الفتاوى الكبرى (٦/ ٢٢).

(٣) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٤٥).

(٤) التعريفات للجرجاني (٢٤٥).

(٥) انظر: الصحاح (١/ ١٦٥)، ولسان العرب (٨/ ٦٣)، والقاموس المحيط (٩١٩).

(٦) إغاثة اللهفان (١/ ٥٨٣).

المسألة الثانية: بيان تلبس أهل الباطل بهذه الصفات في القرآن الكريم.

١- **الاستهزاء**: فهي من جملة الصفات التي تميز بها أهل الباطل؛ فقد سخروا من أفضل البشر وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى مبينًا ذلك: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[يس: ٣٠].

وكذلك سخروا من أتباعهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾[المؤمنون: ١٠٩ - ١١٠].

حتى وصل التمادي ببعضهم إلى الاستهزاء بالله وآياته والنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[التوبة: ٦٥].

٢- **المكر والمخادعة**: وهما صفتان قريبتان من بعضهما في المعنى، قد تلبس بهما عامة أهل الباطل.

ومن الآيات في بيان صفة المكر عند أهل الباطل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾[إبراهيم: ٤٦].

وأما صفة الخداع؛ فكما في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾[البقرة: ٩]، وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾[الأنفال: ٦٢].

المطلب الثاني: بيان كيفية مقابلة أهل الباطل بالمثل في هذه الصفات.

ويتضح ذلك بمقدمتين ومثالين:

أما المقدمة الأولى: فهي أن الله تعالى قد أمر أهل الحق بالإعراض عن أهل الباطل، وعدم مقابلة سفههم وفجورهم بمثله؛ كما مر بيانه في المبحث الأول[(١)].

ولا يلزم من ذلك عدم مقابلة مكر أهل الباطل ومخادعتهم واستهزائهم بمثله، لأن مكر ومخادعة واستهزاء أهل الحق بأهل الباطل يختلف عن مكر ومخادعة واستهزاء أهل الباطل بأهل الحق، وإن كان ثمة اتفاق في المباني، إلا أن فيه اختلافًا كبيرًا في المعاني.

وهذا ما توضحه **المقدمة الثانية**: وهي أن هذه الصفات تنقسم إلى قسمين:

قسم مذموم، وآخر محمود.

فأما المذموم: فهو ما يراد به الضر والأذى، وطمس الحق، وإضلال الناس؛ بخلاف **المحمود**: فهو ما يراد به دفع الضر والأذى، ورد الكيد، وردع الباطل.

ثم إن الأول يكون على سبيل الابتداء والتعدي، والثاني يكون على وجه المقابلة والتصدي.

وفي المثال يتضح المقال:

أما المثال الأول: وهو مقابلة استهزاء أهل الباطل بمثله.

وذلك كما في قصة نبي الله تعالى نوح مع قومه، فقد كانوا يسخرون منه حينما شرع في بناء السفينة، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[هود: ٣٨].

---

(١) انظر: ص (٣٨٣).

وفي معنى السُّخرية هنا أقوال:

أحدها: إن تسخروا من قولنا فإننا سنسخر من غفلتكم.

الثاني: إن تسخروا من فِعلنا اليوم عند بناء السفينة، فإنا نسخر منكم غدًا عند الغرق[١].

الثالث: تفسير السخرية في الآية بالاستجهال؛ والمعنى: إِن تستجهلوني فَإِنِّي أستجهلكم إِذا نزل الْعَذَاب[٢].

ولعل الجمع بين هذه الأقوال هو المناسب إذ لا تعارض بينها والله أعلم.

فيكون المعنى: أنكم يا أيها الضالون قد سخرتم بنا باتهامكم لنا بالغفلة، ورميكم لنا بالجهالة في صنع السفينة في مكان لا ماء فيه تسير عليه السفن، فإننا نسخر من غفلتكم عما سيحل بكم إذا نزل البلاء وعم العذاب.

وعليه فإن هذا الكلام قد خرج مخرج المقابلة وليس الابتداء كما أسلفنا، وأنه في مقام الزجر والتهديد لأهل الباطل مما سيحل بهم من العذاب الشديد.

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾[المطففين: ٢٩] إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾[المطففين: ٣٤]، فقد ضحك كفار قريش من فقراء المؤمنين ضحكات المستهزئين، وقهقهات الساخرين، وكانوا يتغامزون فيما بينهم استهزاءًا وسخرية بالمؤمنين[٣]، وإذا رجعوا إلى بيوتهم عمَروا مجالسهم بالتفكه بأعراض أولئك الصالحين، وهم على الفرش متنعمين لاهين طاعمين شاربين، وإذا ما رأوهم مرة أخرى استهزءوا بهم واتهموهم بالانحراف والضلال المبين، وما علموا أنه

---

(١) انظر: النكت والعيون (٢/ ٤٧١)، واللباب في علوم الكتاب؛ لأبي حفص النعماني (١٠/ ٤٨٤).

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج (٣/ ٥٠)، وتفسير القرآن للسمعاني (٢/ ٤٢٨).

(٣) انظر: جامع البيان (٢٤/ ٢٢٦).

سيأتي يوم تنقلب فيه الموازين، ويقابل ضحكهم واستهزاؤهم بمثله من قبل المؤمنين.

ثم ختم الله تعالى بقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] ؟!

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا؟ يعني: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله»[(١)].

وأما المثال الثاني: فهو مكر أهل الحق ومخادعتهم لأهل الباطل جزاءَ مكرهم، وردُّ خداعهم.

تقدم في المبحث السابق خيانة يهود بني النضير للنبي ﷺ حينما أرادوا قتله.

والشاهد من تلك الواقعة هو كيفية مقابلة النبي ﷺ لمكر اليهود حينما تآمروا على قتله؛ فمكر بهم قبل أن يمكروا به، فقد أخبره جبريل عليه السلام بمؤامرة بني النضير عليه، فقام من مكانه بكل سكون وطمأنينة وذهب إلى أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأخبرهم بكيد اليهود وخيانتهم، فجهز جيشًا وأخرجهم من المدينة.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[الأنبياء: ٧٠] وكان عاقبة مكرهم، أن مُكِرَ بهم، وأُخرجوا أذلاءَ صاغرين من مدينة سيد المرسلين ﷺ.

وكذلك مقابلة نبي الله يوسف عليه السلام كيد إخوته؛ بأن وضع صواع الملك في رحالهم، وبالأخص في رحل أخيه من أمه، واتهامهم بالسرقة هو من هذا الباب؛ فقد كادوا ليوسف عليه السلام، وآذوه، وفرقوا بينه وبين أبويه وأخيه، فقابلهم بمكر لطيف، وذلك أن ضم إليه أخاه ومن ثم أباه وأمه وجميع أخوته، فلم الشمل بعدما تفرَّق، ودحر الشيطان بعد أن نزغ وفرَّق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه لما أراد أخذ أخيه توصل إلى أخذه بما يقر إخوته أنه حق

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٥٤).

وعدل، ولو أخذه بحكم قدرته وسلطانه لنسب إلى الظلم والجور، ولم يكن له طريق في دين الملك يأخذه بها، فتوصل إلى أخذه بطريق يعترف إخوته أنها ليست ظلمًا»[١].

ومن ذلك:

١- «أنه وضع الصواع في رحل أخيه بمواطأة[٢] منه له على ذلك.

٢- أنه لم يفتش رحالهم وهم عنده، بل أمهلهم حتى جهزهم بجهازهم، وخرجوا من البلد، ثم أرسل في آثارهم لذلك.

٣- أنه أبْعَدُ من التهمة للطالب بالمواطأة والموافقة، وأنه لا يشعر بما فقد له، فكأنه لما خرج القوم وارتحلوا، وفصلوا عن المدينة احتاج الملك إلى صواعه لبعض حاجته إليه، فالتمسه، فلم يجده، فسأل عنه الحاضرين، فلم يجدوه، فأرسلوا في أثر القوم؛ فهذا أحسن وأبعد من التفطن للحيلة من التفتيش في الحال قبل انفصالهم عنه؛ بل كلما ازدادوا بعدًا عنه كان أبلغ في هذه المعنى.

٤- أنه أذن فيهم بصوت عال رفيع يسمعه جميعهم، ولم يقل لواحد واحد منهم، إعلامًا بأن ذهاب الصواع أمر قد اشتهر، ولم يبق فيه خفاء، وأنتم قد اشتهرتم بأخذه، ولم يتهم به سواكم.

٥- أن المؤذن قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠] ولم يعين المسروق، حتى سألهم عنه القوم، فقالوا لهم: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾[يوسف: ٧١]؟ قالوا: نفقد صواع الملك فاستقر عند القوم أن الصواع هو المتهم به، وأنهم لم يفقدوا غيره، فإذا ظهر لم يكونوا ظالمين باتهامهم بغيره وظهر صدقهم وعدلهم في اتهامهم به وحده، وهذا من لطيف الكيد.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٨١٩).

(٢) قال ابن منظور في اللسان (١/ ١٩٥): « وواطَأَه على الأَمر مُواطأَةً: وافَقَه؛ وتَواطَأْنا عليه وتَوطَّأْنا تَوافَقْنا».

٦- قول المؤذن وأصحابه لإخوة يوسف عليه السلام: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤] أي: ما عقوبة من ظهر عليه أنه سرقه منكم، ووجد معه؟ أي ما عقوبته عندكم وفى دينكم؟؛ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾[يوسف: ٧٥]. فأخذوهم بما حكموا به على أنفسهم لا بحكم الملك وقومه.

٧- أن الطالب لما هم بتفتيش رواحلهم بدأ بأوعيتهم يفتشها قبل وعاء من هو معه، تطمينًا لهم، وبعدًا عن تهمة المواطأة.

فإنه لو بدأ بوعاء من هو فيه لقالوا: وما يدريه أنه في هذا الوعاء دون غيره من أوعيتنا؟ وما هذا إلا بمواطأة وموافقة. فأزال هذه التهمة بأن بدأ بأوعيتهم أولًا، فلما لم يجده فيها هم بالرجوع قبل تفتيش وعاء من فيه الصواع، وقال: ما أراكم سارقين وما أظن هذا أيضًا أخذ شيئًا. فقالوا: لا والله، لا ندعكم حتى تفتشوا متاعه، فإنه أطيب لقلوبكم، وأظهر لبراءتنا، فلما ألحوا عليهم بذلك فتشوا متاعه، فاستخرجوا منه الصواع، وهذا من أحسن الكيد. فلهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾[يوسف: ٧٦].

فالعلم بالكيد الواجب أو المستحب الذى يتوصل به إلى طاعة الله تعالى ورسوله، ونصر المحق وكسر المبطل مما يرفع الله به درجة العبد»[١].

علّق شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الآية فقال: «وكذلك جزاء المعتدي بمثل فعله؛ فإن الجزاء من جنس العمل؛ وهذا من العدل الحسن؛ وهو مكر وكيد إذا كان يظهر له خلاف ما يبطن»[٢].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٢٠-٨٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٧١).

وبهذا يظهر أن الإعراض عن أهل الباطل، وعدم موالاتهم، والمنع من اتخاذهم بطانة، وحرمة الاستغفار للبعض منهم؛ ممن مات على كفره وشركه، وعدم إعطائهم العهود والمواثيق إن ظهرت منهم الخيانة، ومقابلة استهزائهم ومكرهم بمثله= هو من معاملة المخالفين بالشدَّة التي لا تنافي العدل والإنصاف؛ وأن دون ذلك خلل وزلل، عواقبه وخيمة، ومآلاته أليمة.

الفصلُ الثَّالثُ
التَّعاملُ مع المخالفينَ باستخدامِ أسلوبِ التَّرغيبِ والتَّرهيب

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول:

التعامل مع المخالفين باستخدام أسلوب الترغيب

المبحث الثاني:

التعامل مع المخالفين باستخدام أسلوب الترهيب

تمهيد:

لما كان الإنسان مجبولًا على حب ما ينفعه من الخير والرغبات، والسلامة من الأذى والآفات، وتطمئن نفسه للرخاء، وينفر من كل ما يخيفه من الشر والبلاء= كان لأسلوب الترغيب والترهيب أهمية كبرى، وضرورة عظمى في الدعوة إلى الله تعالى، وهو أسلوب له تأثير عظيم ووقع كبير في نفوس كثير من البشر، وهذا ما توضحه المباحث الآتية بعون الله تعالى.

المبحث الأول
التعاملُ مع المخالفينَ باستخدامِ أسلوبِ التَّرغيب

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ترغيب المخالفين في الأمور الدنيوية.

المطلب الثاني: ترغيب المخالفين في الأمور الأخروية.

المطلب الأول

ترغيب المخالفين في الأمور الدنيوية

لما خلق الله تعالى الإنسان ضعيفًا، وكان الضعف من أبرز خصائصه التي جبله الله عليها من نقص ونسيان وتهاون وتقصير وما يؤدي ذلك إلى الوقوع في الذنب والمعصية = كان لأسلوب الترغيب أثر عظيم ووقع بالغ في النفوس تتجلى فيه رحمة الله تعالى بالعباد، وأنه يغفر لمن تاب وأناب وينعم عليه بالأجر الثواب، وما في ذلك من قطع حبائل الشيطان عن الإنسان، ودفع القنوط واليأس لمن ابتلي بالذنوب والعصيان.

وبيان ذلك في مسألتين:

المسألة الأولى: بيان معنى الترغيب لغة واصطلاحًا.

الترغيب لغة: طلب الشي، والحرص عليه، والطمع فيه[(١)].

واصطلاحًا: هو كل ما يشوق الإنسان إلى الاستجابة، وقبول الحق، والثبات عليه[(٢)].

ويكون الترغيب شاملًا لما ينفع الإنسان في دينه ودنياه، وليس مقتصرًا على الترغيب بمتاع الدنيا فقط، دون الترغيب بما عند الله تعالى في الآخرة من عظيم فضله، وجزيل نواله.

والأصل فيه أن يكون في نيل العبد لرضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدنيا والآخرة، وأن يكسب ثوابه، ويفوز بما عنده من النعيم المقيم، ويأمن عقابَه والعذابَ الأليم[(٣)].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ٥٣٨)، لسان العرب (١/ ٤٢٢)، مقاييس اللغة (٢/ ٤١٥).

(٢) انظر: أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان (٤٣٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٢١).

المسألة الثانية: بيان أنواع الترغيب في الدنيا.

الآيات التي وردت بالترغيب **في الدنيا** على أنواع متعددة؛ منها:

النوع الأول: الترغيب برضوان الله تعالى على العبد في الدنيا[(١)].

فرضوان الله تعالى على العبد من أعظم النعم، وأفضل المنح، وهو خاص لمن أطاعه، واستقام على أمره.

ومن الآيات الدالة على ذلك: رضوان الله تعالى عن السابقين الأولين من أصحاب النبي ﷺ ومن اتبعهم بإحسان، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[التوبة: ١٠٠].

فقد رضي الله عن الذين سبقوا الناس أولًا إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هجروا وتركوا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم، وكذلك الأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه؛ من أهل الكفر بالله ورسوله ﷺ.

ثم بيَّن أن هذا الرضى يشمل كل من تبع طريقهم، وسلك سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله ﷺ قولًا وعملًا واعتقادًا، فهؤلاء، هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله[(٢)].

ولذلك يبيِّن للمخالف أن ما عليه من الباطل يمنع عنه الفضل العظيم، والأجر الجزيل، لكي يتبع طريق أهل الحق في الإيمان بالله ورسوله ﷺ بالقول والعمل والاعتقاد.

وكذلك رضي الله تعالى عن أهل بدر، كما ورد في قصة حاطب بن أبي

---

(١) وسيأتي - إن شاء الله - في المطلب الثاني بيان الترغيب برضوان الله تعالى في الآخرة.

(٢) انظر: جامع البيان (١١/ ٦٣٧)، وتيسير الكريم الرحمن (٣٤٩).

بلتعة(١) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما أراد إفشاء سر النبي ﷺ للمشركين وأراد الفاروق عمر ضرب عنقه فقال ﷺ: (أليس من أهل بدر؟) فقال: (**لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم**)، فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم(٢).

وأسباب رضى الله عن العبد في الدنيا والآخرة كثيرة جدًّا منها:

١- **الإيمان بالله والعمل الصالح**، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

٢- **البراءة من الشرك والمشركين وإظهار عداوتهم**، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢].

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لهم أكبر النعيم وأفضله؛ وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات،

---

(١) هو: حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، حليف قريش، وقيل هو حليف للزبير بن العوام. شهد بدرًا والحديبية ومات سنة (٣٠هـ) بالمدينة وهو ابن خمس وستين سنة وصلى عليه عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. انظر الاستيعاب (١/ ٣٤٨) والإصابة (١/ ٣٠٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب: فضل من شهد بدرًا، برقم (٣٩٨٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضل حاطب ابن أبي بلتعة وأهل بدر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، برقم (٢٤٩٤).

ووافر المثوبات، وجزيل الهبات ورفيع الدرجات، بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية»[١].

٣- **بذل النفس لله تعالى ولرسوله ﷺ، والذب عن دينه، والجهاد في سبيله**، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨]. وذلك حينما بايع الصحابة النبي ﷺ على قتال المشركين، وأن لا يفروا حتى الموت، فأخبر تعالى أنه رضي عنهم وأنزل السكينة عليهم، وأنعم عليهم بفتح عظيم وهو فتح خيبر[٢]، وقد سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان، لإنعام الله على أصحابها بالرضى في الدنيا والآخرة[٣].

النوع الثاني: الترغيب بالخير العاجل في الدنيا حين تحقيق الإيمان ولزوم الاستقامة.

ومن صور هذا الخير:

١- الترغيبُ بإمهالهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة بسبب إصرارهم على الباطل.

فهو من الأساليب التي قام بها الرسل عليهم السلام في ترغيب أقوامهم، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[إبراهيم: ١٠]، وكذلك قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[نوح: ٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٤٨).

(٢) انظر: جامع البيان (٢١/ ٢٧٨).

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب البيعة في الحرب أن لا يفروا، ص (٤٨٩)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال، وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة، ص (٨٣٤).

أي: «يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه، أوقعه بكم»[(١)].

٢- الترغيب بالإغداق عليهم بالخير والبركات من الأرض والسموات، والإنعام عليهم بكثرة الأولاد والأرزاق.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] أي: لأنزلنا عليهم الأمطار، وأجرينا لهم الأنهار، وأنبتنا لهم الأرض، وأعطيناهم من الخير ما تقر به عيونهم، وتنشرح له صدورهم.

وقوله تعالى: ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ إي: إنزال المطر من السماء، والذي تحصل بسببه وفرة الأرزاق، وطيب المعايش، لذلك أمر الله عباده بالتوبة والاستغفار، ورغب بهذا الفضل العظيم.

قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[هود: ٥٢].

وبالمطر يحيي الله الأرض؛ فتكثر البساتين وتجري الأنهار، وتكثر الأرزاق ويطيب الإنفاق، فتسعد النفوس، وتطمئن القلوب.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ورغبهم بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[نوح: ١١] أي: مطرًا متتابعًا، يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾[نوح: ١٢]أي: يكثِّر أموالكم - التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا - وأولادكم، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[نوح: ١٢] وهذا من أبلغ ما يكون من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٣١).

لذات الدنيا ومطالبها»(١).

ومن هذه الآيات في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[الجن: ١٦].

فبيَّن الله تعالى أن الاستقامة على دينه، والائتمار بأمره، واجتناب نواهيه كل ذلك سبب في حصول السعة في الخير والرزق، وهذا ما يسمى بالمتاع الحسن، قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[هود: ٣]. أي: يعطيكم من رزقه، ويفيض عليكم من نعمه ما تتمتعون به وتنتفعون(٢).

٣- الترغيب بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم فيها، وإبعاد الخوف عنهم وإبداله بالأمن والطمأنينة.

وقد جمع هذه المعاني قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

فليتأمل أرباب العقول النيرة، وأصحاب القلوب الخيرة، كيف كان واقع حال النبي ﷺ حينما ابتدأ دعوته، فقد لاقى من أصناف الإيذاء والابتلاء والمآسي ما تعجز عن حمله الجبال الرواسي.. ثم التحق معه عصبة من الأخيار، ففتك بهم الفجار والأشرار، وساموهم سوء العذاب.. فتركوا الأموال والديار، وفروا بدينهم بعد أن قوبلوا بالحديد والنار.. وصدقوا الله فصدقهم، ونصروا دينه فانتصر لهم.. فأقام لهم دولة الإسلام، فخضعت لهم الجبابرة، واهتزت لهم عروش القياصرة، وتوسعت الرقعة وانتشر الإسلام

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨٨٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٤٦).

في كل بقعة(١).

فسبحان من أعزَّ بعد الإذلال، وأذل بعد العز والدلال، ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[آل عمران: ٢٦].

٤- الترغيب بالنصر والتأييد والعز والعلو والكفاية والدفع حال الإيمان.

أما **الترغيب في نصرهم** فكما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]؛ **والترغيب في تأييدهم** في قوله: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[الصف: ١٤].

والترغيب في إعزازهم وإعلاء شأنهم وذكرهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨]، وقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

(١) ومن هنا يظهر فساد العقول التي تنادي بإقامة الخلافة، وقتال الأعداء والانتصار عليهم، ولم يأتوا بلازم ذلك من نصرة دين الله واتباع هدي رسوله ﷺ.

وقد سلكوا كل طريق - بغية الوصول إلى ذلك الأمر المفقود، والحلم المنشود - إلا طريقًا واحدًا لم يسلكوه وهو نصرة دين الله تبارك وتعالى وذلك باتباع شريعته، والقيام بحقه، والحذر من مخالفته، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أصول الإسلام ومبانيه.

وكثير منهم قد أخذوا بنيات الطريق وحادوا عن سواء السبيل، ومن ذلك ما يفعلوه اليوم من قتل هنا وتفجير هناك، وجوه ملثمة، وأسماء ملفقة، وكله باسم الإسلام، والإسلام بريء منهم ومن أفعالهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليهما السلام.

فمن رام الوصول إلى المأمول فليسلك سبيلَ الرسول ﷺ، فإنه من أيسر السبل وأسهلها، ودون ذلك خرط القتاد.. ونفخ في رماد.

والترغيب في كفايتهم وحسبهم والدفع عنهم كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ١٣٧] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[الحج: ٣٨].

النوع الثالث: الترغيب بإجابة دعاء المؤمنين ورعايته لهم ورحمته بهم.

سنة الله تعالى في هذا لا تختلف في جميع عباده المؤمنين، فلم يخص طائفة من المؤمنين دون أخرى؛ بل رحمته واسعة، ولطفه عظيم سبحانه، يجيب دعاء ويكشف السوء عن المحتاجين، ورحمته قريب من المحسنين، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل: ٦٢]، وقال: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦].

وقد ضرب الله تعالى في القرآن الكريم أمثلة لإجابة دعاء أوليائه وأصفيائه لما دعوه وتضرعوا إليه، والأمثلة كثيرة جدًّا؛ منها:

١- إجابة الله تعالى لآدم عليه السلام وزوجه، وتوبته عليهما، بعد دعائهما له بأن يتوب عليهما ويغفر لهما.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾[طه: ١٢٢] وذلك بعد قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

٢- إجابة دعاء نبيه نوح عليه السلام بإنجائه من القوم الظالمين. قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

٣- إجابة دعاء نبيه أيوب عليه السلام بعد أن بلغ به الضر مبلغًا تعجز الأجسام عن حمله. قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣ – ٨٤].

٤- إجابته للنبي ﷺ يوم بدر، يوم كانوا في قلة وفاقة، وتكاثرت عليهم جموع المشركين، تريد إهلاكهم، واستئصال شأفتهم، فاستجاب له ربه فنصره عليهم نصرًا عزيزًا مؤزرًا، نُكبت فيه أمة الشرك وخذلت خذلانًا مريرًا، ورفعت فيه راية التوحيد، وعلت علوًّا كبيرًا.

وقد وصف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الواقعة العظيمة فقال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، وأنزل الله ﷻ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾[الأنفال: ٩]..»[١].

وهكذا يتبيَّن أهمية ترغيب المخالفين بما ينفعهم في دنياهم، ما يضمن سعادتهم بها؛ وأنه ينبغي لمن تصدى من أهل الحق في دعوة هؤلاء ومجادلتهم أن يحسن هذا الباب ولا يغفله، فإن فيه نفعًا كبيرًا، وخيرًا كثيرًا.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم، برقم (١٧٦٣).

المطلبُ الثّاني

ترغيبُ المخَالفينَ في الأمورِ الأخرَويَّة

وقد كثرت الآيات في الترغيب في الآخرة؛ و هذا الترغيب على أنواع؛ يمكن بيانها من خلال مسألتين:

المسألة الأولى: الترغيب بالوعد بالخير الآجل في الآخرة[(١)].

وهو على أنواع:

الأول: الترغيب برضى الله تعالى عن العبد في الآخرة وعدم السخط عليه.

وهذه من أعظم النعم وأكبر المنن؛ وذلك أن يرضى الله تعالى عن عبده في الآخرة ولا يسخط عليه أبدًا.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩].

فقد رضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا بالوفاء لله تعالى بما وعدوه من العمل بطاعته، واجتناب معصيته، ورضوا عن الله تعالى في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه من جزيل ثوابه، وذلك هو الفوز العظيم، الذي أعطاهم الله من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار والخلود فيها، مرضيًّا عنهم وراضين عن ربهم، وهو الظفر العظيم بما كانوا يَنشُدُونَه في الدنيا، حيث نالوا ما طلبوا وأدركوا ما أملوا[(٢)].

وحتى إذا ما صاروا في جنان الخلد خاطبهم رب العزة خطابًا عظيمًا يبين فيه عظيم فضله، وجزيل نواله عليهم؛ فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: (**إن الله**

---

(١) معالم الدعوة في قصص القرآن العظيم؛ للدكتور عبد الوهاب الديلمي (١/ ٥٠٧).

(٢) انظر: جامع البيان (٩/ ١٤٢).

يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)(١).

النوع الثاني: الترغيب بالفوز برحمة الله تعالى ومغفرته وتكفير السيئات.

والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

أما الترغيب بالرحمة والمغفرة والتوبة فمثاله قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٣ – ٧٤].

فقد جاء ذكر الترغيب بالتوبة ومغفرة ذنوبهم ورحمته بهم بعد أن حكم عليهم بالكفر في قولهم: إن الله ثالث ثلاثة.

والمعنى: أنهم إن تابو من كفرهم وآبوا إلى ربهم فإن الله تعالى يتوب عليهم ويغفر لهم ذنوبهم.

وأما الترغيب بتكفير السيئات وتبديلها بالحسنات، فمثاله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا، برقم (٢٨٢٩).

وقولـــه تعـــالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ ﴾[الفرقان: ٧٠]؛ ففيه الترغيب بالإيمان والتقوى، وأن ذلك من أسباب تكفير الذنوب والسيئات.

وفي تأويل قول الله ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[الفرقان: ٧٠] قولان عند أهل التفسير:

الأول: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات، وذلك في الدنيا يبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزنى إحصانًا؛ وبذكر الله بعد نسيانه، وبطاعته بعد عصيانه(١).

الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار.

فيوم القيامة وإن وجده مكتوبًا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته(٢).

وقد ثبت ذلك في السنة؛ فعن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها؛ رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم؛ لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا**). **فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه**(٣).

---

(١) انظر: النكت والعيون (٤/ ١٥٨)، وتفسير القرآن العظيم (٦/ ١٢٧).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٢٧).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٠).

النوع الثالث: الترغيب بفتح باب الرجاء أمام العبد، وبيان أن الله تعالى يقبل التوبة منه إذا تاب وأناب[١].

وفيه ترغيب للعبد بترك باطله، وأنه مهما بلغ من الكفر والفسوق والعصيان، إنْ تاب توبة نصوحًا، وأناب إنابة صادقة= فإن الله تعالى سيغفر له ويرحمه، ويكفر سيئاته ويعظم له الأجر والمثوبة.

ومن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة - من الكفرة وغيرهم - إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر»[٢].

ولا يصح حمل هذه الآية على أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا من غير التوبة منها وذلك لسببين:

الأول: أن الله تعالى لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨].

الثاني: أن سبب النزول يبين أن المقصود في هذه الآية غفران الذنوب مع التوبة منه[٣]، فقد جاء في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول

---

(١) انظر: معالم الدعوة في قصص القرآن (١/ ٥١٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٠٦).

(٣) انظر: المصدر السابق (٧/ ١٠٦).

وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[الفرقان: ٦٨][(١)]، ونزلت ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾[الزمر: ٥٣][(٢)].

المسألة الثانية: الترغيب بذكر نعيم الجنة وتمتع المؤمنين فيها.

وهي على أنواع عديدة منها:

النوع الأول: الترغيب بالخلود الأبدي والنعيم المقيم.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التوبة: ٢١-٢٢] فلهم فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين، ومما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: (**قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ مصداق ذلك في كتاب الله:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٧])[(٣)].

---

(١) والشاهد من أنه لا يتم غفران الذنوب إلا مع التوبة منه= هو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[الفرقان: ٧٠].

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ برقم (٤٨١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج، برقم (١٢٢).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم (٣٢٤٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب صفة الجنة، برقم (٢٨٢٤).

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[الرعد: ٣٥].

النوع الثاني: الترغيب بمرافقة الأنبياء والصالحين.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[النساء: ٦٩]، بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأنس بقربهم في جوار رب العالمين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، الذين رضي عنهم، وسلك بهم مسالك الهدى والإيمان. وكفى بالله عليمًا بعباده، وما هم أهل له من جنة أو نار: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

النوع الثالث: الترغيب برؤية وجه الله العظيم.

فقد بيَّن الله تعالى أن المؤمنين في الجنة سينظرون إلى وجهه العظيم فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣].

وكذلك بيَّن النبي ﷺ ذلك حينما سأله الناس عن رؤية الله تعالى يوم القيامة فقال: (**هل تضارون في القمر ليلة البدر؟**)، قالوا: لا يا رسول الله، قال: (**فهل تضارون في الشمس، ليس دونها سحاب؟**)، قالوا: لا يا رسول الله، قال: (**فإنكم ترونه كذلك**)[(١)].

وعن صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: (**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول**

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] برقم (٧٤٣٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٣).

الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ) ثم تلا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[يونس: ٢٦][1].

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[يونس: ٢٦].

أي إن هؤلاء الذين أحسنوا، لهم (الحسنى) وهي الجنة الكاملة في حسنها، و(زيادة) وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه؛ فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون ويسأله السائلون[2].

النوع الرابع: الترغيب بصفات الجنة ونعيمها.

وهو باب عظيم، كثرت فيه الآيات أيضًا، وتنوعت فيه الصفات، فذكر الله تعالى الجنات وروضاتها، والأنهار تجري من تحتها، وبين أسماءها وصفاتها؛ ومنها: جنات عدن، والنعيم، والفردوس، وجنة المأوى، والخلد، وذكر أن تحية أهلها فيها (سلام)، وبين أن أكلها دائم وظلها، لهم فيها ما يشاءون وما يشتهون، وذكر أنهارها وعيونها، وحلو مائها وشرابها، وجمال أكوابها وآنيتها، وطيب ثمارها ولحومها، وجمال حورها وغلمانها، وعظم أثاثها وقصورها، وذكر من أساور الفضة والذهب واللؤلؤ حلي سكانها، وأنواع سررها وأرائكها، ونعومة ديباجها وحريرها، وبين نضارة وجوه ساكنيها ونعومتها.

إلى غير ذلك من النعم العديدة، والعطايا الفريدة التي خص الله بها عباده المتقين، وأولياءه الصالحين، جعلنا الله منهم وأدخلنا جنات النعيم. آمين.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، (١٨١).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣٦٢).

وهذه بعض الآيات أدلة على ما تقدم:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[الشورى: ٢٢].

٢- وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

٣- وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[لقمان: ٨].

٤- وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٧].

٥- وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ (٤١) فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ (٤٥) بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ [الصافات: ٤١ - ٤٩].

٦- وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا (٦) يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا (٧) وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا (١٠) فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا (١١) وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا (١٢) مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ (١٥) قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا (١٦) وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا (١٨) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا (١٩) وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا (٢٠) عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان: ٥ – ٢٢].

٧- وقـــال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨].

٨- وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٠-٤٠].

المبحث الثاني

التعامل مع المخالفين باستخدام أسلوب الترهيب

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ترهيب المخالفين بذكر ما سيقع لهم في الدنيا.

المطلب الثاني: ترهيب المخالفين بذكر ما سيقع لهم في الآخرة.

المطلب الأول

ترهيب المخالفين بذكر ما سيقع لهم في الدنيا

الترغيب والترهيب أمران لا ينفصلان عن بعضهما؛ أينما حل ذكر أحدهما تبعه ذكر الآخر، ويُذكر منهما ما يناسب حال المخالفين وتقبلهم، أو يذكران جميعًا إذا اقتضى الحال، وسمح به المجال.

والترهيب لغة: هو التخويف، من رَهِبَ يَرْهَبُ رَهْبَةً ورُهْبًا ورَهَبًا أَي: خافَ، ورَهِبَ الشيءَ رَهْباً ورَهَباً ورَهْبةً: خافَه، وأَرْهَبَهُ و اسْتَرْهَبَهُ: أَخافه[١].

واصطلاحًا: «كل ما يخيف ويحذِّر المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قَبوله»[٢].

وهو أسلوب قرآني يعالج النفس البشرية التي جبلها الله تعالى على حب ما ينفعها، وكره ما يضرها ويؤذيها، فيجعلها ترفض المنكر بجميع أنواعه، وتترفع عن القبيح بعامة أشكاله.

وهذا ليس على إطلاقه، فهناك نفوس لا ينفع معها ترغيب ولا ترهيب، فقد قست قلوبهم واسودت، فهي كالصخر في قساوته، والليل في سواده وظلمته.

والترهيب في القرآن الكريم: هو الوعيد والتهديد بالعقاب المترتب على اقتراف الذنوب، والتهاون في أداء ما فرضه الله تعالى.

وصور الترهيب في القرآن الكريم كثيرة جدًّا، منها ما وقع الترهيب به في الدنيا؛ كالترهيب بما وقع للأمم الكافرة، والقرى الفاجرة؛ بالأخذ والدمار والعذاب.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢/ ٣٣٠)، ولسان العرب (١/ ٤٣٦)، ومختار الصحاح (٢٦٧).

(٢) أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان (٤٣٧).

ومنها ما رهب الله تعالى به في الآخرة كالعذاب في القبور ويوم النشور وهذا ما سيأتي معنا في المطلب الثاني بعون الله تعالى.

وقد ورد الترهيب بأصناف من العقوبات وألوان من العذاب والابتلاءات، يلاقونه في الدنيا قبل الآخرة، توضحه المسائل التالية:

المسألة الأولى: الترهيب بحرمانهم من نور الإيمان حال عنادهم وكفرهم.

وذلك بأنواع من العقوبات منها:

١- **الترهيب بغضب الله تعالى.**

وغضب الله تعالى: هو عقوبة تحل بمن استكبر عن عبادته، وبالغ في البغي والعناد في الكفر.

ولذلك نزلت هذه العقوبة على اليهود حينما اتخذوا العجل لهم إلهًا وعبدوه من دون الله؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾[الأعراف: ١٥٢].

وقد سماهم بـ ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧] وهي صفة تلازمهم ما داموا على باطلهم.

ومن هنا يعلم أن كل من أشرك بالله تعالى، فإنه داخل في غضب الله سبحانه، وسيصيبه الذلُّ في الدنيا، والخزيُ يوم القيامة.

ولذلك نشاهد أن بعض هؤلاء قد أذلهم الله في الدنيا ذلًّا فوق ذلهم، فترى منهم من يعبد البقر والجرذان والأفاعي، فإذا كان معبودهم بهذه الصفة من المهانة والحقارة فما القول في العابدين؟ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩].

ولذا من أعظم أسباب غضب الله تعالى على أهل الباطل هو الشرك والنفاق؛ قال

تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[الفتح: ٦].

٢- **الترهيب بلعنهم**: وهو الإبعاد والطرد من رحمة الله [(١)].

وهو جزاء من سلك طريق الضلال والباطل فاستحق نزول هذه العقوبة العظيمة بحقه، وتأمل كيف استحق هذه العقوبة من عبد غير الله تعالى؛ سواء كان المعبود بشرًا أو صنمًا أو شيطانًا، وكيف يستحق أن يبقى في رحمة الله ورعايته من عبد غيره.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[النساء: ٥١ - ٥٢].

وقد يقترن الغضب باللعن في تقريع الكافرين، وقد يسبق أحدهما الآخر، وذلك للدلالة على شدة عتو أهل الباطل وكفرهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩] ثم قال بعدها: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾[البقرة: ٩٠]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾[الفتح: ٦].

٣- **الترهيب بالعقوبات التي تصيب القلب**: ومنها: الختم والطبع والرين والتضييق، والإمراض له، وجعله قاسيًا، وصرفه عن الحق.

وأما **الختم**، فكما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٧].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٢٥٢).

والختم على القلب هو الطبع عليه، كما بينه تعالى بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾[النحل: ١٠٨] فلا ينفع معه الإنذار ولا الوعظ، ولا يدخله الإيمان ولا الهداية، فهو أسود مظلم.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١] ويلحق بالختم على القلب الختم على السمع، والغشاوة على البصر؛ كما مر في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌۖ﴾[البقرة: ٧] أي: طبع الله عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

ووضع على أبصارهم غشاء وغطاء وأكنة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وبذلك تكون طرق العلم والخير قد سدت عليهم، ولا مطمع فيهم، ولا خير يرجى عندهم، وكل ذلك بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعد ما تبين لهم الحق[(١)].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالختم على القلوب: عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته. وعلى السمع: عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيته. وعلى الأبصار: عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته»[(٢)].

ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ٢٣] **وهذا جزاء من يتخذ الهوى له منهجًا، والجهل له مدخلًا ومخرجًا، فيُضل ضلالًا بعيدًا لذلك، ويورط نفسه في شتى المهالك.**

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٤١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٨٦).

وأما الرين: فهو الغطاء على القلب وتغليفه له، وقد بيَّن هذا المعنى النبي ﷺ بقوله: **(إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى يغلف قلبه؛ فذلك الران الذي قال الله جل ثناؤه:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤])[١].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبر ﷺ أن الذنوب، إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله ﷻ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص»[٢].

وأما جعل قلوبهم قاسية، فكما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[المائدة: ١٣] أي: جعلناها صلبة غليظة يابسة عن الإيمان بالله والتوفيق لطاعته، منزوعة منها الرأفة والرحمة[٣].

ولذلك شبه الله قلوبهم – والعياذ بالله – كالحجارة في قساوتها؛ بل هي أشد قسوة منها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة: ٧٤].

ولذا رهب الله تعالى بالويل لمن قسا قلبه، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الزمر: ٢٢] أي: فويل لهذه القلوب اليابسة الغليظة التي لا تلين لكتابه، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره،

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٧٩٥٢)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم (٤٢٤٤). وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٢٢).

(٢) جامع البيان (١/ ٢٦٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (٨/ ٢٥٠).

فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير(١).

وأما التضييق على صدورهم فكما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنعام: ١٢].

أي: في غاية الضيق وشدته، عن الإيمان والعلم واليقين، فإذا انغمس القلب في الشبهات والشهوات فلا يصل إليه خير، ولا ينشرح قلبه لفعله، من ضيقه وشدته يكلَّف الصعود إلى السماء، ولا حيلة له فيه(٢).

وأما إمراض القلب: كما قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة: ١٠] فمرض القلب هو خروجه عن صحته واعتداله، إما بالشك والحيرة كما هو مرض المنافقين، وإما بالغي والشهوة كما هو مرض العصاة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومرض القلب خروج عن صحته واعتداله؛ فإن صحته أن يكون عارفًا بالحق محبًّا له، مؤثرًا له على غيره، فمرضه: إما بالشك فيه، وإما بإيثار غيره عليه.

فمرض المنافقين مرض شك وريب، ومرض العصاة مرض غي وشهوة، وقد سمى الله سبحانه كلًّا منهما مرضًا»(٣).

وأما صرفه عن الخير والهدى، فكما في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٧/ ٩٣)، وتيسير الكريم الرحمن (٧٢٢).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٢٧٢).

(٣) شفاء العليل (٩٨).

غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٦]، وقوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: ١٢٧].

وفي هذا ترهيب لمن يتولى عن الحق، ويصرف نفسه عنه، فيكون مصيره أن يصرف الله قلبه، ويصده عن الحق ويخذله، وذلك بصرف القلوب والأفهام عن قبوله [1].

٤- **الترهيب بحرمانهم من التوفيق والسداد**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾[النحل: ١٠٤].

أي: لا يسددهم الله لإصابة الحق، ولا يهديهم لسبيل الرشد في الدنيا، وقد قوبلوا بجنس فعلهم، فقد رفضوا الهداية فعاقبهم الله تعالى بمنعهم منها، وقوله: ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾[النحل: ١٠٤] مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[آل عمران: ٨٦]وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٦٤] ونحوها من الآيات.

المسألة الثانية: الترهيب بحرمانهم من الخير العاجل في الدنيا.

ومن أنواع هذا الترهيب:

١- **الترهيب بتيسير سبل الشر لهم**[2]. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[الليل: ٨-١٠] أي: نسهل طريقه للشر، ونعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها[3].

وفي هذه الآية وأمثالها دليل على أن الله تعالى يجازي من قصد الخير بالتوفيق له،

---

(١) انظر: الترهيب في الدعوة، للدكتورة رقية نياز (١٩٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٨٨).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٨٤).

ومن قصد الشر بالخذلان[١].

٢- الترهيب بالتضييق عليهم، وحرمانهم من الرزق.

وهي من العقوبات التي تنزل عليهم حين فسادهم وبغيهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فامتحناهم بالابتلاء بالبأساء، وهي شدة الفقر والضيق في المعيشة، والضراء وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام»[٢].

وقال تعال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفسرت المعيشة الضنك: بعذاب القبر، والصحيح: أنها في الدنيا وفي البرزخ، فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله فله من ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص، والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب لسكرته وانغماسه في السكر، فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم فبادَرَ إلى إزالته بسكر ثان، فهو هكذا مدة حياته؛ وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟! »[٣].

ومن الآيات الواردة في حرمانهم من النعم والرزق بسبب بطرهم وكفرهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٦].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤١٧).

(٢) جامع البيان (٩/ ٢٤٢).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٢٢).

٣- الترهيب بإذلالهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٦١]. والذلة: الذل والصغار، والمسكنة: الخضوع.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدرًا، ولا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون »[1].

المسألة الثالثة: ترهيبهم بذكر ما وقع للأمم قبلهم.

وذلك على نوعين.

النوع الأول: الترهيب لما وقع لأفراد منهم.

النوع الثاني: الترهيب لما وقع على جماعات وقرى كاملة.

أما النوع الأول: فكما حصل لأكابر المجرمين الذين عاثوا في الأرض فسادًا، وملأوها جورًا وعنادًا، فمنهم من أهلك الله أرزاقهم وأموالهم، ومنهم من أبادهم واستأصل شأفتهم.

ومن الأول: صاحب الجنات والزروع الذي دخل ﴿جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٥-٣٦].

فأبادها الله له وأصبحت بساتينه الخضراء وجناته الغناء أثرًا بعد عين وأصبحت أرضه يبابًا، وداره خرابًا، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بالهلاك والإبادة، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾حسرة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٨١).

وكمدًا﴿ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾من مال وجهد ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ لا ترقّ لنحيبه، ولا تستجيب لصراخه، بل تظل هكذا خاوية على عروشها، لا تريه منها إلا هذا الموات الذي يزيد في حسرته، ويضاعف من آلامه(١).

ومن الثاني: فرعون الذي ادعى أنه الإله المعبود، وصاحب البقاء والخلود ! فسام الناس سوء العذاب، و﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص: ٤] فلما بلغ الغاية في الظلم والتجبر، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وجعله عبرة لمن اعتبر، وشاهدًا لمن وعى وادَّكر.

قال تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾[المزمل: ١٦] وقال: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٥ – ٢٦].

وقد جمع الله تعالى بعضًا من هؤلاء الأفراد الذين نكل بهم، وأبادهم وعمهم بالعذاب؛ فقال: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٣٩ – ٤٠].

وأما النوع الثاني: وهو الترهيب لما وقع على جماعات وقرى كاملة.

فقد بيَّن القرآن الكريم أن العذاب في الدنيا لم يقتصر على أفراد عمهم الله بالبلاء والعذاب بسبب كفرهم وبغيهم، بل شمل العذاب والتدمير والإبادة أممًا بأجمعها، وقرى بأكملها بعد أن عظم كفرهم، وغلظ جرمهم، وانتشر بغيهم، ولم تنفعهم النذر، فعاجلهم

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٦٢٣).

الله بالعقوبة والعذاب.

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[القصص: ٥٨].

وكانت الرسل عليهم السلام ينذرون أقوامهم ويرهبونهم بما سيحل بهم في الدنيا حال عصيانهم وكفرهم، وقد أنذر نوح عليه السلام قومه و ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [نوح: ٢].

وكذلك صالح عليه السلام أنذر قومه فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾[هود: ٦٤] وكذلك شعيب أنذر قومه ورهبهم بمصير من سبقهم فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾[هود: ٨٩].

وكذلك موسى عليه السلام أنذر قومه وحذرهم من العصيان والكفر فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾[طه: ٦١].

وآخرهم النبي ﷺ فقد حذر أهل الشرك والكفر ووعظهم، رأفة بهم وحرصًا في هدايتهم فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الأنعام: ٤٦ – ٤٧].

ولم يقتصر ذلك على الأنبياء فحسب؛ بل أنذر الصالحون وأتباع الرسل أقوامهم كذلك، فهذا مؤمن آل فرعون أنذر قومه وحذرهم من أن يحل بهم كما حل بالأمم التي قبلهم، قال الله على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٠ – ٣٣].

وهذا الذي ذكرته هو جزء مما أنذر به الرسل عليهم السلام أقوامهم، ولما أقيمت الحجة على هؤلاء واستمروا على كفرهم وبغيهم عاجلهم الله تعالى بالعقوبة في الدنيا ولهم عذاب أليم في الآخرة.

والأمثلة على إهلاك الأقوام والقرى في القرآن الكريم كثيرة؛ منها:

١- **إهلاك الله تعالى قوم نوح عليه السلام بالغرق؛ وذلك بعد إصرارهم على كفرهم، وتحديهم لربهم** فعاجلهم الله تعالى باستئصالهم وإبادتهم بالطوفان العظيم الذي أغرقهم ومحا أثرهم، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةًۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الفرقان: ٣٧].

٢- **إهلاك الله تعالى لقوم لوط عليه السلام بالرجم من السماء وذلك بعدما عاثوا في الأرض فسادًا،** وبلغوا في الكفر والضلال منتهاه، فعاجلهم بالإبادة، بأن قلب عليهم قريتهم رأسًا على عقب وجعل عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارة من سجيل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٢ – ٨٣].

٣- **إهلاك الله تعالى لعاد قوم هود عليه السلام بالريح الشديدة المهلكة،** قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[الحاقة: ٦ – ٨].

فأهلكهم الله – لما أعرضوا عن الحق، وسلكوا سبيل التكذيب والمكابرة – بريح قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف، سلطها عليهم ثمانية أيام

متتابعة لا تفر ولا تنقطع، فكانت نحسًا وشرًّا فظيعًا عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم، حتى أصبحوا كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها وسقط بعضها على بعض[١].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٦٠)، وتيسير الكريم الرحمن (٨٨٢).

المطلب الثاني

ترهيب المخالفين بذكر ما سيقع لهم في الآخرة

ومما لا شك فيه أن وصف العذاب، وبيان حال المعذبين في النار وهم يتلقون أنواعًا من العذاب الأليم= يثير الخوف والفزع في النفس، فيجعل كثيرًا من النفوس تنزجر عن غيِّها، وترجع عن ضلالها.

والآيات التي تحوي الوعيد والتخويف من الآخرة كثيرة، قد تنوعت في بيان ما سيلقاه الكفار من العذاب، وتحدثت عن وقت إيقاع هذا النوع من العذاب وما يحصل فيه من التنكيل بأصناف البلاء وألوان العذاب؛ **ويمكن بيان ذلك في مسألتين:**

المسألة الأولى: الترهيب بما سيقع لهم في البرزخ.

وذلك في صورتين:

أما الأولى: فهي الضرب عند الموت.

وهو ما يشهدونه عند الاحتضار؛ وهي اللحظات الأخيرة في حياة الإنسان، والحالة التي تسبق الموت ويعاني فيها من كتب الله عليه العذاب ألوانًا من الضرب والتعذيب جزاء لما اقترفته أيديهم قبل موتهم.

وقد وصف الله تعالى هذا المشهد المرعب، والحالة المفزعة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الأنفال: ٥٠].

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾[محمد: ٢٧].

وفي هذه الحال العصيبة تنزل من الشدائد الفظيعة، والكرب الشنيعة ما يعجز الواصفون عن وصفه، فالملائكة تبسط أيديها إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب

والعـــذاب، كمـــا قـــال تعـــالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾[الأنعام: ٩٣].

أي: بالضرب والعذاب، صفعًا على وجوههم، وركلًا على أستاههم[١].

وأما الصورة الثانية: فهي العذاب في قبورهم.

وهنا وبعد خروج الروح من الجسد تبدأ مرحلة أخرى من العذاب الأليم، ليجد الظالمون ألوانًا من العذاب هي أشد بكثير من العذاب الذي لاقوه عند الاحتضار.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٤].

وقد فسر جمع من أهل العلم المعيشة الضنك هنا بعذاب القبر[٢]، و قوله تعالى: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: معيشة ضيقة، شديدة، يكابد فيها المجرمون ألوانَ الشقاء وأصنافَ البلاء.

ومن أمثلة من يعذبهم الله في قبورهم آل فرعون؛ قال الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٥ – ٤٦].

أي: يعذبون في النار داخل قبورهم صباحًا مساءًا؛ حتى إلى قيام الساعة، وعند قيامتها يدخلون إلى نار جهنم ليكون فيها مقامهم الأبدي، وعذابهم السرمدي[٣].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٦).

(٢) انظر: جامع البيان (١٦/ ١٩٧)، والجامع لأحكام القرآن (١١/ ٢٥٩).

(٣) السرمد: الطويل والدائم الذي لا ينقطع. انظر: لسان العرب (٣/ ٢١٢).

المسألة الثانية: الترهيب بما سيلاقونه يوم القيامة.

وذلك بما يلي:

١ - الترهيب بهيئتهم حين الخروج من قبورهم.

وبعد أن قاسى المجرمون شدة العذاب في قبورهم، فإنهم يخرجون منها حين يشاء الله تعالى عند قيام الساعة، فيخرج هؤلاء وعليهم بعض الصفات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ومنها:

أ- **خروجهم مسرعين، رافعين رؤوسَهم، وأبصارهم طائرة شاخصة**، يديمون النظر، ولا يطرفون لحظة، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الفزع والوجل والخوف [١].

وهو معنى قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

ب- **خروجهم أذلاء مقهورين**، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[المعارج: ٤٣ - ٤٤]. أي: ذليلة أبصارهم، وتغشاهم ذلة وخيبة من عذاب الله تعالى.

ت- **خروجهم وعلى وجوههم الحزن والكآبة**[٢]، ويعلوها الخزي والسواد[٣] وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[عبس: ٤٠ - ٤١].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥١٥).

(٢) انظر: النكت والعيون (٦/ ٢٠٩).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٢٧).

٢- الترهيب بوصف هيئتهم حين القدوم إلى أرض المحشر.

وقد ذكر الله تعالى صورًا لهيئاتهم حين القدوم إلى أرض المحشر، فذكر أنهم يقدمون وهم يمشون على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا؛ قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[الإسراء: ٩٧].

أي: نجمعهم بموقف القيامة - من بعد تفرقهم في القبور عند قيام الساعة - على وجوههم عميًا وخرسًا لا يسمعون شيئًا يسرهم[١].

وقد أشكل على بعض الصحابة كيف يمشي الكافر على وجهه يوم القيامة؛ فقد ورد عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: (**أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا، قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟**) قال قتادة: بلى، وعزة ربنا[٢].

٣- **الترهيب بشدة الحساب**: وهو محاسبتهم عن كل صغيرة وكبيرة فعلوها، ومناقشتهم بها، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾[الطلاق: ٨]. أي: حسابًا استقصينا فيه عليهم كل شيء، ولم نعف لهم فيه عن شيء، ولم نتجاوز فيه عنهم بشيء[٣].

وفي ذلك الموقف العصيب، يحاسب المجرمون حسابًا عسيرًا، ويأتون خائفين وجلين مما كتب عليهم في الدنيا من أعمالهم السيئة.

---

(١) انظر: جامع البيان (١٥/ ٩٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الحشر، برقم (٦٥٢٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين، باب يحشر الكافر على وجهه، برقم (٢٨٠٦) واللفظ للمسلم.

(٣) انظر: جامع البيان (٢٣/ ٧٢).

ويصف الله تعالى هذه الحال المخزية لهم بقوله: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩].

أي: فتراهم خائفين، ترتعد فرائصهم[١]، وترتجف قلوبهم، وهم في حالة هم وغم من سوء ما اقترفته أيديهم.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحينئذ تحضر كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة الكرام فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، مُحصًى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾[الكهف: ٤٩]أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ ﴾[الكهف: ٤٩]لا يقدرون على إنكاره ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩]فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب، ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد، بل هم غير خارجين عن عدله وفضله»[٢].

٤- **الترهيب بما سيلاقونه في النار**: وبعد مناقشتهم، ومحاسبتهم، ومعرفتهم بمصيرهم المحتوم، وواقعهم المشئوم، يجرون بالسلاسل إلى النار جرًّا، والقيود في أعناقهم تذيقهم العذاب مرًّا.

---

(١) الفرائص: جمع فريصة: وهي لحمة بين الجنب والصدر والكتف، وهي ترتجف عند الخوف، فيقال: «ارتعدت فرائصه»، أي خاف خوفًا شديدًا. انظر: لسان العرب (٧/ ٦٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤٧٩).

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[سبأ: ٣٣] وقال: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾[غافر: ٧١]وقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا﴾[الإنسان: ٤].

ثم يؤخذ بهم إلى نار جهنم وهي تغلي من شدة حرها، وتوقد سعيرها، مخرجة منها أصواتًا عالية مرعبة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[الملك: ٦-٨]. أي: تكاد من شدة غيظها من الكفار ينفصل بعضها من بعض؛ وهي تصدر شهيقًا مرعبًا يخلع القلوب ويصم الآذان، وهي تغلي كما يغلي القدر، فأي موقف فيه خزي وندامة أعظم من هذا الموقف؟ وأي قلب يحمله صاحبه إذا سمع بهذا المصير فلا يردعه، أو يتمادى فلا يمنعه ؟! فحينها دمِّرْ عليه فلا حياة فيه، ولا عذر يُنجيه !!

ثم يبدأ العذاب الأبدي لمن يشاء الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الحج: ١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾أي: يُلبَسُون ثيابًا من نحاس من نار، ومنه قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[إبراهيم: ٥٠] أي قمصانًا من نحاس مذاب[1].

ثم يُصب الماء المغلي على رؤوسهم، فيخترق جماجمهم، حتى ينفذ إلى أحشائهم، فيصهر ما في بطونهم من أمعاء، وأكباد، وقلوب، وغيرها مما تحويه البطون، ويصهر

(١) انظر: جامع البيان (١٣/ ٧٤٣).

جلودهم، ويذيبها فتكون كتلة مذابة مع اللحم والعظم.

وقد جُعِلتْ لهم مطارق من حديد تُضربُ بها رؤوسهم فتهشِّمُها، وعظامهم فتكسِرُها وتمزقها، وهم ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[الزخرف: ٧٤ – ٧٥].

و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[الحج: ٢٢] وذاقوا العذاب الدائم الذي لا ينقطع ولا ينقضي.

أما طعامهم وشرابهم فهو عذاب أيضًا:

فمن أنواع طعامهم: **أنهم يُطعمون من صديد** ما يَخرُج منهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٦ – ٣٧] والغسلين: من الغَسْلِ؛ وهو صديد يسيل من جروحهم وفروجهم ولحومهم ودمائهم [(١)].

وأيضا: يأكلون الضريع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦ – ٧]. والضريع كما ذكر العلماء هو: نبت ذات شوك، تسميه العرب: الشُّبرُق.

قال الزجاج: «وهو جنس من الشوك، إذا كان رطبًا فهو شُبرق، فإذا يبس فهوَ الضَّرِيعُ» [(٢)].

ومن صفة هذا الطعام: أن طعمه بشع خبيث، لا يحصل به مقصود – وهو الشبع وإقامة الجسد – ولا يندفع به محذور – وهو الجوع والتلف – [(٣)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٧٣).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٥/ ٣١٧).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٨٥).

وأيضًا من طعامهم الزقوم: وكلمة الزقوم «مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها»(١).

ومن صفاتها: أنها شجرة تخرج في وسط جهنم؛ طعمها خبيث وشكلها قبيح، حتى شبه الله ثمارها برؤوس الشياطين لقبحها وبشاعة شكلها؛ قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[الصافات: ٦٢ – ٦٦].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وشجرة الزقوم: الشجرة التي خلقها الله في جهنم وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحار، وشبه ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل، وهو النحاس المذاب»(٢).

وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾[الدخان: ٤٣ – ٤٦].

وأما شراب أهل النار فهو لا يقل بشاعة وعذابًا عن طعامهم، فقد ذكر الله تعالى صفاتٍ للشراب الذي يُسقونه في النار؛ ومن صفاته: أنه شراب حار يغلي.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف: ٢٩]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾[يونس: ٤]،أي حار ومغلي، وجعل الله تعالى لهؤلاء شرابًا من حميم، لأن الحار من الماء لا يروي من العطش، فأخبر أنهم إذا عطشوا في جهنم لم يغاثوا بماء يرويهم، ولكن بما يزيدون به

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٨٥).

(٢) المصدر السابق (١٦/ ١٤٩).

عطشًا على ما بهم من العطش[(١)].

ثم بيَّن الله تعالى أن هذا الحميم المغلي الذي يشربونه إنما هو الغساق، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾[ص: ٥٧] وقال: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ: ٢٤ – ٢٥]؛ والغساق: هو القيح والصديد والدم الذي يسيل من جلودهم[(٢)].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال قتادة: هوما يسيل من فروج الزناة، ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنتن»[(٣)].

والخلاصة: أن الترغيب والترهيب أسلوبان عظيمان في دعوة المخالفين إلى الحق؛ وربطهم برب الخلق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ –؛ وذلك بغرس الرجاء في النفوس، والترغيب من الخير الذي لا انتهاء له ولا دروس، فيبادر العبد إلى القيام بما ينفعه، ويحاذر مما يهلكه ويفجعه، ويجعله – ذلك – أهلًا للتعرض لتلك المكرمات ومستحقًا لهذه الكرامات.

وكذلك غرس الخوف في نفسه من غضب الله تعالى وأليم عقابه العاجل والآجل يجعله يبادر إلى اتقاء ما يغضب الله ويسخطه، ويتزود من الطاعة التي تزكيه وتسعده في الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر: جامع البيان (٩/ ٣٢٦).

(٢) انظر: جامع البيان (٢٠/ ١٣٠)، والنكت والعيون (٥/ ١٠٦)، والجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٢٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٢٢)، وفي معناه أقوال أخرى وقد ذكرتُ ما رجحه أكثر المفسرين.

الخاتمة

أحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا يليق بجلاله على كثرة إنعامه وإفضاله؛ فقد يسر لي ما أردتُ، وأعانني على ختمِ ما بدأت.

ثم إنَّني في نهاية المطاف أختِمُ هذا البحث بأهمِّ ما جاء فيه وتوصلتُ إليه من خلاصةِ زُبدتِه ونتائجِ مادَّتِه؛ وهي على نوعين: عام وخاص.

أما النتائجُ العامَّة، فهي كما يلي:

۞ أهميةُ بابِ الردِّ على المخالفين في العقيدة، ووجوب الاعتناء به وضبطه؛ إذ هو باب عظيم في الذبِّ عن دين الله تبارك وتعالى، وحصنٌ حصين في الذَّود عن حياض الدِّين وحراسةِ العقِيدة، وهو أعظمُ أنواع الجهاد؛ إذ هو جهاد الخاصَّة من أتباع الرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهو جهاد الأئمَّة.

۞ عظمُ حُجج أهل الحقِّ وقوَّتها؛ فهي متينةٌ رصينة لا يُداخلُها شكٌّ ولا لبْس، ولا يتخلَّلُها خفةٌ لا عبَثْ، مستمدَّةٌ من كلام ربِّ الأرباب القويِّ الوهَّاب، الذي أحسن كلَّ شيء خَلَقَهُ بقدرتِهِ، وأحكمَ كلَّ شيء قدَّره بعلمِه وحكمتِه.

۞ وفي المقابل: فإن حُجَجَ أهل الباطل حُجَجٌ واهيَة، وعن الحقِّ ساهيَةٌ لاهية، أوْهنُ من بيت العنكَّبوت، هزيلةٌ باليةٌ لا تلبث أن تهلكَ وتموت، سريعةُ العَطَبْ، سيَّئةُ المنقَلَبْ، يُحسنُها كلُّ من هبَّ ودبَّ، قامتْ على الضَّلال، وأورثتْ أصحابَها سوء الفِعال.

۞ أهلُ الحقِّ هم خير النَّاس للنَّاس، وكذلك هم أرحمُ الخلقِ بالخلق، وأقدَرُهم على حسنِ مُعاملتِهم بالحقِّ، فلا يظلمُون، ولا يغدِرون، ولا يُفحِشون، ولا يُؤذون، فليست الخيانة سجيةً من سجَاياهُم، ولا سوء الأخلاق مطيَّةٌ من مطايَاهُم، وهم كذلك في كلِّ مكان وعلى مرِّ العصور والأزمان.

أما الخاصة؛ فهي:

۞ الردُّ على المخالفين في العقيدة لا يقتصرُ على مجادلتهم أو محاورتهم فقط، بل يشمل كلَّ ما فيه بيانٌ لما هم عليه من الباطل؛ كبيانِ كفرهم وفسقهم قولًا كان أو فعلًا، والتَّحذيرُ من طرائقهم، والنهيُ عن التَّشبه بهم، وفي عِطف ذلك كله بيانُ الفرقان بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان.

۞ التَّعوذُ من طريقة المخالف، وبيان التَّمايزِ بينه وبين أهلِ الحقِّ= هو أسلوبٌ رفيعٌ في الردِّ عليه؛ ففيه تحذيرٌ للمخالف من طريقته المجانبة للحقِّ كي يؤوبَ ويَنزجرْ، وفيه تحذير لغيره من الاغترار به والسير على منواله كي يُعرِضَ ويَعتبرْ.

۞ النِّعمُ التي يتقلَّبُ فيها الكفَّارُ ليست دليلًا على محبَّة الله لهؤلاء، وحسنِ منزلتهم عنده؛ بل هي من الاستدراج لهم، والمكر بهم، حتى يزدادوا إثمًا فيعظُم بهم العذاب شدة وألمًا.

۞ النَّصرُ والتَّمكين لا يكون بالأماني؛ لا بالشِّعارات المزخرفة، ولا بالهِتافات المبهرجَة، وإنما سبيله الرُّجوع إلى الله تعالى بالإيمان والعمل الصَّالح، وترك ما يضادهما.

۞ المخالفُ لا يألو جهدًا، ولا يدَّخرُ وسعًا في السَّعي لنشر ضلالِه وشيوعِ أقواله، ووقوع النَّاس في شرَكِهَا ومباشرةِ الناس لها.

۞ الشُّبهاتُ سلاحٌ فتَّاكٌ يعصفُ في أوساط الجاهلين، وفي غمرة قلة العلم والدِّين، ولا يَدفعُ شرَّه، ويُقابلُ مكرَه سوى الإيمانُ المكِين والعِلمُ المتين.

۞ جميع الشُّبهات التي يُلقِيها المخالفون - على أهل الحق – داحضة، لا تلبث أن يخبو أوارها وتنطفئ نارها إذا ما لاحت لها الحجج الدَّامغة، والبراهين السَّاطعة لأهل الحقِّ.

۞ أهميةُ ضرب الأمثالِ في توضيح المقال؛ يأنسُ به العلماء ويستفيدُ منه الجهال.

۞ من الخطأ الكبير أن تؤخذَ العبادات بالتَّقليد عن الآباء والأجداد؛ لما يترتَّبُ على ذلك

من مفاسد جمَّة، وضياعِ أمور مهمَّة؛ كضياع فريضة طلب العلم وفشوِّ الجهل، والاعتقاد بأن فعل الآباء والأجداد حجَّةٌ وما عداه باطل، ولو كان كلامَ ربِّ الأرباب والنَّبيِّ المؤيَّدِ بالكتاب!.

۞ الدَّعاوى التي تَفتَقِدُ إلى البرهان والدَّليل، أو تقومُ على الظنِّ والتَّخمين والتَّضليل= تردُّ ولا تُقبَل، وهي داحضةٌ في أصلها، مردودةٌ في فصلها.

۞ من أهم خصائصِ منهج القرآن الكريم في ردِّه على المخالفين:

- **الشُّمول**: فقد استعمل البراهين القاطعة والحجج الدامغة والأدلة العقلية والنقلية، فكانت أدلته شاملة، ولجوانب الموضوع مستوفية، وما ترك شاردة ولا واردة إلا ومحَّص فيها القول وأقام عليها الدليل.
- **الوضوح**: فهي واضحة قريبة من القلب والعقل، وليست غامضة أو ملتوية كما هي أدلة الخصوم.
- **التكرار**: كرَّر الأدلة للتَّأكيد، وبأساليب متباينة، فمن أفلت من واحدة لم يفلت من الثانية.
- **الاستقصاء**: فلم يترك دليلًا مقنعًا إلا وذكره، وأَتْبَعَ الحجة الحجة، ولا مناص للهرب والإفلات إلا بالمكابرة والعناد.

۞ الله تعالى موصوفٌ بالعدل، منزَّه عن الظُّلم والجور، وما يصيب الإنسان من العذاب في الدُّنيا والآخرة ما هو إلا بظلمه لنفسه ومعصية ربه.

۞ لا ينبغي لأهل الحقِّ ظلمُ من خالفهم، ولو جار - أولئك - وظلموا، وإنما يُعامَلوا بما أمرَ الله تعالى دون زيادة أو نقصان.

۞ هناك فرق بين المداراة والمداهنة؛ فالأولى: تلطُّفٌ يُستخرج به الحقُّ أو يَرُدُّ عن باطل، والثانية: تلطُّفٌ يُقِرُّ على الباطل، ولا ينهى عن الهوى.

۞ من كمال عدل الله تعالى: أنه لا يعذِّب العباد حتى يقيمَ الحجَّة عليهم، ولا يعاقبُ إلا بذنب، وعلى قدر الإساءة، ولا يعذِّب بذنب الغير، ولا يسوِّي في الثَّواب والعقاب بين الأخيار والفجَّار، وبين الصالحين والطالحين.

۞ ليس من الظُّلم للمخالفين الإعراضُ عنهم، أو عدمُ موالاتهم واتخاذِهم بطانة، أو منعُ الاستغفار للبعض منهم، أو مقابلةُ مكرهم وكيدهم بمثله= بل هو من الشِّدة التي لا تنافي العدل والإنصاف.

۞ استبطانُ أهل الباطل وإدناؤهم وتقليدُهم المهمَّ من الأعمال، إنما هو خطرٌ عظيم على الفرد والأمَّة؛ فلا تُرفع منازلُهم، ولا يُزاد في قدْرِهم؛ بل يُعطَون ما يستحقُّونَه؛ دون العَودِ بالضَّرر على الإسلام والمسلمين.

۞ التَّرغيب والتَّرهيب أسلوبان عظيمان ينبغي لأهل الحقِّ الاعتناءُ بهما والتَّركيزُ عليهما لما لهما من الفوائدِ الجمَّة، والمزايا المهمَّة في دعوة الخلق، وتبصيرهم بالحق.

والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية



سورة المائدة

سورة الأعراف

سورة الأنبياء

سورة الفرقان



سورة الشعراء

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يس: ٨١ – ٨٣ .... ٢٨٠، ٢٩٠
سورة الصافات
﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾ الصافات: ٤١ - ٤٩ .... ٤٧١
﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ﴾ الصافات: ٦٢ – ٦٦ .... ٤٩٤
﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ﴾ الصافات: ١٠٢ .... ١٣٠
﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الصافات: ١٠٢ .... ١٣٢
﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ الصافات: ١٠٣ .... ١٣٣
﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ الصافات: ١٤٩ .... ٢١٧
﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ الصافات: ١٥٠ .... ٢١٤، ٢٢٠
﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ الصافات: ١٥١ – ١٥٢ .... ٦٦، ٢١٧، ٢٢٠
﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ الصافات: ١٥٢ .... ٦٦
﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ الصافات: ١٥٣ – ١٥٤. .... ٢٢٠
﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ﴾ الصافات: ١٥٦ – ١٥٧ .... ٢١٩
﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا﴾ الصافات: ١٥٨ .... ٢١٢

سورة ص

سورة الزمر

سورة الزخرف

سورة الدخان

سورة الرحمن

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ الرحمن: ١ – ٤ .... ٢١٩

سورة الواقعة

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (١٤)
عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ
(١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٞ (٢٢) كَأَمۡثَٰلِ
ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ (٢٣) جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا (٢٦) وَأَصۡحَٰبُ
ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ (٢٧) فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ (٢٨) وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ (٢٩) وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ (٣٠) وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ (٣١) وَفَٰكِهَةٖ
كَثِيرَةٖ (٣٢) لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ (٣٣) وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ (٣٥) فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتۡرَابٗا (٣٧)
لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ الواقعة: ١٠ – ٤٠ .... ٤٧٢

﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ الواقعة: ٤٧ .... ٢٧٩

سورة الحديد

﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ الحديد: ٤ .... ١٦٠،١٥٨

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ الحديد: ١٣ .... ١١٦

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الحديد: ١٦ .... ١٠٠

سورة المجادلة

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ المجادلة: ٧ .... ١٥٨،١٦٠

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ المجادلة: ١٨ .... ٦٧

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ المجادلة: ١٨ .... ٦٨

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ المجادلة: ٢٢ .... ٤٥٧،٤٠٤،٣٩٨،٩٨

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة الحاقة

سورة الإنسان

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ﴾ الإنسان: ٥ – ٢٢ .... ٤٧١

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ الإنسان:٢٤.. ٨٢

سورة النبأ

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ النبأ: ٢٤ – ٢٥........................ ٤٩٥

سورة النازعات

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾النازعات: ٢٤ .... ٦٢،١٨٧،٢٠٢

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ النازعات: ٢٥ – ٢٦............... ٤٨٣

سورة عبس

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾عبس: ٤٠ – ٤١ .... ٤٨٩

سورة التكوير

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾التكوير: ٢٢... ٢٩٧

سورة المطففين

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾المطففين: ١٤ .... ٢٥٩،٤٦٠

سورة البروج

سورة الغاشية

سورة الشمس

سورة الليل

سورة البينة

فهرس الحديث

فهرس الآثار

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

۞ **الإبانة الكبرى** لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

۞ **إتحاف النبلاء بسير العلماء** لراشد بن عثمان الزهراني، دار الصميعي، ١٤١٨هـ.

۞ **الإتقان في علوم القرآن**، لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٣٩٤هـ.

۞ **أحكام القرآن** لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١٤٢٤.

۞ **أحكام القرآن** لأحمد بن علي الجصاص، تحقيق: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:الأولى، ١٤١٥هـ.

۞ **أحكام القرآن** لعماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، تحقيق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٥ هـ.

۞ **أحكام أهل الذمة** لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف البكري وشاكر العاروري، دار رمادي للنشر، ط: الأولى: ١٤١٨هـ.

۞ **إحياء علوم الدين** لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ط: دار المعرفة بيروت.

۞ **آداب البحث والمناظرة**، لمحمد الأمين الشنقيطي، تحقيق: سعود العريفي، دار عالم الفوائد، ط: الأولى ١٤٢٦هـ.

۞ **أدب الدين والدنيا** لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، ت: علي رضوان و طارق علي، دار ابن الجوزي، ط: الأولى ١٤٣٤هـ.

۞ **الأدب الكبير والأدب الصغير** عبد الله بن المقفع، دار صادر بيروت.

۞ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الرياض الحديثة –الرياض.

۞ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل** لمحمد ناصرالدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، ط: الثانية – ١٤٠٥هـ.

۞ **الإصابة في تمييز الصحابة** لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلى معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤١٥ هـ.

۞ **الأصنام** لأبي المنذر هشام بن محمد الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: الرابعة ٢٠٠٠م.

۞ **أصول الدعوة** لعبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط: التاسعة ١٤٢١هـ.

۞ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٦هـ.

۞ **الاعتصام** لإبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق ودراسة: د. محمد الشقير، د. سعد آل حميد، د. هشام الصيني، دار ابن الجوزي، ط: الأولى، ١٤٢٩ هـ.

۞ **الاعتقاد والهداية** لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد أبو العينين، دار الفضيلة – الرياض، ط: ١٤٢٠هـ.

۞ **إعلام الموقعين عن رب العالمين** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت، ط: ١٩٧٣م.

۞ **الأعلام** لخير الدين بن محمود الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.

۞ **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية،

تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد – مكة، ط: الأولى، ١٤٣٢هـ.

❁ **الأفعال** لأبي القاسم علي بن جعفر السعدي، المعروف بابن القَطَّاع، عالم الكتب، ط: الأولى ١٤٠٣هـ.

❁ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: ناصر العقل، مكتبة الرشد الرياض، ط: الثامنة، ١٤٢١هـ.

❁ **إكمال المعلم بفوائد مسلم** لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٤١٩هـ.

❁ **الأمثال في القرآن** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مكتبة الصحابة – مصر، تحقيق: إبراهيم بن محمد، ط: الأولى ١٤٠٦هـ.

❁ **إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ** لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد خان، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الثانية ١٤٠٦ هـ.

❁ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** المعروف بتفسير البيضاوي الكتاب لأبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق: محمد حلاق و محمد الأطرش، دار الرشيد دمشق بيروت، ط: الأولى: ١٤٢١هـ.

❁ **بحر العلوم** لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر – بيروت.

❁ **البحر المحيط** لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: عادل عبد الموجود و علي معوض، دار الكتب العلمية -بيروت، ط: الأولى ١٤١٣ هـ.

❁ **البحر المديد** لأبي العباس أحمد بن محمد الفاسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: الثانية ١٤٢٣ هـ.

- **البداية والنهاية** لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، دار المعارف – بيروت.
- **بدائع الفوائد** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الثالثة ١٤٢٧هـ.
- **البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان** لأبي الفضل عباس بن منصور السكسكي، تحقيق: د. بسام العموش، مكتبة المنار الأردن، ط: الثانية ١٤١٧هـ.
- **بروتوكولات حكماء صهيون**، محمد خليفة التونسي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الرابعة.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط: الثانية، ١٣٩٩هـ.
- **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية** لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجموعة رسائل علمية بإشراف الشيخ عبد العزيز الراجحي، طبعة مجمع الملك فهد، المدينة المنورة.
- **تاج العروس من جواهر القاموس** للسيّد مرتضى الحسني الزبيدي، تحقيق: علي هلال وآخرون، المجلس العلمي للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت.
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** للحافظ محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٤هـ.
- **التاريخ الكبير** للحافظ محمد بن إسماعيل البخاري، دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد.
- **تاريخ دمشق** لأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو العمروي، دار الفكر، ط: ١٤١٥.
- **التاريخ** لأبي بكر تقي الدين بن أحمد ابن قاضي شهبة، تحقيق: عدنان درويش،

المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٤م.

- **التحرير والتنوير** لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون الطبعة التونسية، ط: ١٩٩٧م.
- **الترغيب والترهيب** لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني قوام السنة، تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى، ١٤١٤هـ.
- **الترهيب في الدعوة** للدكتورة رقية نياز، رسالة ماجستير، نسخة مكتبة المسجد النبوي.
- **التسهيل لعلوم التنزيل** لأبي القاسم، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، دار الأرقم - بيروت، ط:الأولى، ١٤١٦هـ.
- **التعريفات للجرجاني** لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٥هـ.
- **تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد** للشيخ لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، ط:تفسير ابن عرفة الثالثة ١٤١٥هـ.
- **تفسير ابن عرفة** لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي، تحقيق: د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، ط: الأولى ١٩٨٦ م.
- **تفسير الرازي** المشهور بالتفسير الكبير و**مفاتيح الغيب،** لمحمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٠هـ.
- **تفسير الراغب** لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة: د. عادل الشدي، دار الوطن – الرياض، ط: الأولى ١٤٢٤ هـ.
- **تفسير القرآن العظيم** للحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة، ط: الثانية ١٤٢٠هـ.

۞ **تفسير القرآن** لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم بن غنيم، دار الوطن - الرياض، ط: الأولى ١٤١٨هـ.

۞ **التفسير القرآني للقرآن** لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة.

۞ **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط: الثالثة ١٤١٤ هـ.

۞ **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين** لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، ط: ١٩٨٣ م.

۞ **تقريب التدمرية** لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار ابن الجوزي – الدمام، ط: الأولى ١٤١٩هـ.

۞ **تقريب التهذيب** للحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: أبي الأشبال صغير أحمد الباكستاني، دار العاصمة، ط: الأولى ١٤٢٣هـ.

۞ **التكفير وضوابطه** للدكتور إبراهيم الرحيلي، دار الإمام البخاري – قطر، ط: الأولى ١٤٢٦هـ.

۞ **تلبيس إبليس**، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: أحمد المزيد، دار الوطن للنشر، الرياض، ط: الأولى ١٤٣٢هـ.

۞ **التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلم** للدكتور عبد الرحيم المغذوي بحث مقدم لندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه تحت رعاية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

۞ **التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع**، لأبي عبد الرحمن الملطي، تحقيق: محمد عزب، مكتبة مدبولي القاهرة، ط: الأولى ١٤١٣هـ.

۞ **تهذيب الاخلاق** لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تعليق: إبراهيم بن محمد، دار

الصحابة للتراث، ط: الأولى ١٤١٠هـ.

- **تهذيب التهذيب**، للحافظ أحمد بن علي ابن حجر، اعتناء: إبراهيم الزيبق وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة.
- **تهذيب اللغة**، لأبي منصور، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠١م.
- **التوقيف على مهمات التعاريف** التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف بن تاج المناوي القاهري، عالم الكتب –القاهرة، ط: الأولى، ١٤١٠هـ.
- **تيسير العزيز الحميد** لسليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الاسلامي- بيروت، دمشق، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ.
- **التيسير بشرح الجامع الصغير** لزين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض، ط: الثالثة ١٤٠٨هـ.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** لأبي جعفر، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، ط: الأولى، ١٣٢٢هـ.
- **جامع الرسائل** لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار العطاء دار العطاء – الرياض، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.
- **الجامع الكبير** للحافظ محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط:الأولى ١٩٩٦م.
- **جامع المسائل لابن تيمية**، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، تحقيق:

محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ.

❁ **جامع بيان العلم وفضله** لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط: الأولى، ١٤١٤هـ.

❁ **الجامع لأحكام القرآن** لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب- الرياض، ط: ١٤٢٣ هـ.

❁ **جهود الشيخ الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف** للدكتور عبد العزيز الطويان، مكتبة العبيكان- الرياض، ط: الأولى ١٤١٩هـ.

❁ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: د. علي حسن ناصر، د.عبد العزيز العسكر ، د. حمدان محمد، دار العاصمة – الرياض، ط: الأولى ١٤١٤هـ.

❁ **جواهر الألفاظ** لأبي الفرج قدامة ابن جعفر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤٠٥هـ.

❁ **الحجة للقراء السبعة** للحسن بن أحمد، تحقيق: بدر الدين قهوجي - بشير جويجابي، الناشر: دار المأمون للتراث – دمشق، بيروت، ط: الثانية، ١٤١٣ هـ.

❁ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٥هـ.

❁ **خصائص القرآن الكريم** للدكتور فهد عبد الرحمن الرومي، مكتبة العبيكان - الرياض، ط: التاسعة ١٤١٧هـ.

❁ **خلق أفعال العباد** لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، دار المعارف السعودية - الرياض، ط: ١٣٩٨هـ.

- **الداء والدواء** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى ١٤٢٩هـ.
- **الدر المصون في علم الكتاب المكنون** لأبي العباس أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم- دمشق.
- **درء تعارض العقل والنقل** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤١١هـ.
- **الدرر السنية** لعلماء نجد الأعلام، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط: السادسة، ١٤١٧هـ.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** للحافظ أحمد بن علي ابن حجر، مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد/ الهند، ط: الثانية، ١٣٩٢هـ.
- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤٠٥ هـ.
- **الديباج المذهب** لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تصحيح: حسن الإنبابي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – بمصر، ط:١٣٥٠ هـ.
- **ديوان ابن الرومي** لعلي بن العباس ابن الرومي، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الثالثة ١٤٢٣هـ.
- **ديوان أبي العتاهية**، دار بيروت، ١٤٠٦هـ.
- **ديوان أبي فراس الحمداني** لسعيد بن حمدان الحمداني، شرح: د. خليل الدويهي، دار الكتاب العربي –بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ.
- **ديوان أحمد شوقي المعروف بـ (الشوقيات)**، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

۞ **ديوان الأعشى الكبير** لميمون بن قيس، شرح: مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الثالثة ١٤٢٤هـ.

۞ **ديوان الشافعي** ينسب للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تحقيق: د. إميل يعقوب، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الثالثة ١٤١٦هـ.

۞ **ديوان حاتم الطائي** لأبي صالح يحيى الطائي، تحقيق: د. حنا الحتى، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الأولى ١٤١٥هـ.

۞ **ديوان علي بن أبي طالب**، ينسب لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، شرح: د. يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، ط: الثالثة ١٤١٦هـ.

۞ **ديوان نابغة بني شيبان**، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: الثالثة ٢٠٠٠م.

۞ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** لأبي الفضل السيد محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي بيروت.

۞ **روضة الطالبين وعمدة المفتين** لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- عمان، ط: الثالثة، ١٤١٢هـ.

۞ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد – مكة، ط: الأولى ١٤٣١هـ.

۞ **زاد المسير في علم التفسير** لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، المكتب الإسلامي - بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٤هـ.

۞ **زاد المعاد في هدي خير العباد** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط: الرابعة ١٤١٥هـ.

۞ **الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي** لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي، تحقيق: د. محمد جبر الألفي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، ط: الأولى ١٣٩٩هـ.

۞ **الزهرة** لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار – الأردن، ط: الثانية ١٤٠٦هـ.

۞ **الزواجر عن اقتراف الكبائر** لأبي العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، دار الفكر - بيروت، ط: الأولى ١٤٠٧هـ.

۞ **السبعة في القراءات** لأبي بكر أحمد بن موسى البغدادي، دار المعارف - القاهرة، ط: الثانية ١٤٠٠هـ.

۞ **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها** لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ.

۞ **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة** لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط: الثانية، ١٤٢٠هـ.

۞ **سنن ابن ماجه** للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه، اعتنى به: مشهور حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، ط: الأولى.

۞ **سنن أبي داود** للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، اعتنى به: مشهور حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، ط: الأولى.

۞ **سنن الترمذي** للحافظ محمد بن عيسى الترمذي، اعتنى به: مشهور حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، ط: الأولى.

۞ **سنن الدارقطني** للحافظ علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، طبع على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود.

❁ **السنن الكبرى** للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، الطبعة الهندية، ط: الأولى ١٣٤٤هـ.

❁ **سنن النسائي** للحافظ أحمد بن شعيب النسائي، اعتنى به: مشهور حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، ط: الأولى.

❁ **سير أعلام النبلاء** لمحمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: مجموعة من الباحثين بإشراف: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٥هـ.

❁ **السيرة النبوية** لأبي محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق: مجدي السيد، دار الصحابة بطنطا، ط: الأولى ١٤١٦هـ.

❁ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** لعبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي، تحقيق عبدالقادر الأرنؤوط، محمود الأرنؤوط، دار بن كثير، ط: الأولى ١٤٠٦هـ.

❁ **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، تحقيق: أحمد حمدان الغامدي، دار طيبة – السعودية، ط: الثامنة، ١٤٢٣هـ.

❁ **شرح العقيدة الطحاوية** للإمام علي بن علي بن محمد بن أبي العز، تحقيق: د.عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: التاسعة ١٤١٧هـ.

❁ **شرح العقيدة الواسطية** لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق: سعد فواز الصميل، دار ابن الجوزي - الرياض، المملكة ط: الخامسة ١٤١٩هـ.

❁ **شرح صحيح البخاري لابن بطال** لأبي الحسن علي بن خلف ابن بطال، تحقيق: ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد، الرياض، ط: الثانية ١٤٢٣هـ.

❁ **شرح صحيح مسلم** للإمام محي الدين النووي، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، ط: الحادية عشرة ١٤٢٦هـ.

❁ **شرح طيبة النشر في القراءات** لشمس الدين محمد بن محمد ابن الجزري، ضبطه وعلق عليه: الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الثانية١٤٢٠ هـ.

❁ **شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، مكتبة العبيكان، تحقيق: عمر الحفيان، ١٤٢٠هـ.

❁ **الصابئة الأقدمون** أو **مندائي** لعبد الحميد أفندي، تحقيق: رشيد الخيون، مطبعة الفرات – بغداد، ط: الأولى ١٣٤٥هـ.

❁ **الصابئة المندائيون**، الليدي دراوور، ترجمة: نعيم بدوي و غضبان الرومي، دار المدى للثقافة والنشر، ط: الثانية ٢٠٠٦م.

❁ **الصابئة في حاضرهم وماضيهم** لعبد الرزاق الحسني – طبعة لبنان – ١٩٧٠م.

❁ **الصارم المسلول على شاتم الرسول** لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمد الحلواني ومحمد شودري، دار ابن حزم – بيروت، ط: الأولى ١٤١٧هـ.

❁ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط: الرابعة ١٤٠٧هـ.

❁ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ.

❁ **صحيح ابن خزيمة** للحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: محمد الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط: ١٣٩٠هـ.

❁ **صحيح البخاري** للإمام أبي عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري، اعتنى به: زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ.

❁ **صحيح مسلم** لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد

الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

- **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزياداته** للمحدث محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٨هـ.
- **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، ط: الثالثة ١٤١٨هـ.
- **صيانة مجموع الفتاوى من السقط والتصحيف** لناصر بن حمد الفهد، أضواء السلف: ط: الأولى ١٤٢٣هـ.
- **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة** لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم – دمشق، ط: الرابعة ١٤١٤هـ.
- **الطب النبوي** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الأولى ١٤١٠هـ.
- **طبقات الحنابلة** للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى، تحقيق: د. عبد الرحمن العثيمين، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام، ١٤١٩هـ.
- **طبقات الشافعية الكبرى** لعبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: محمود الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية.
- **طبقات الشافعية** لأبي بكر بن أحمد بن محمد ابن قاضي شهبة، اعتنى به عبد العليم خان، الطبعة الهندية، ط: الأولى ١٣٩٨هـ.
- **طبقات الشافعية** لأبي بكر تقي الدين بن أحمد ابن قاضي شهبة، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب – بيروت، ط: الأولى ١٤٠٧ هـ.
- **طريق الهجرتين وباب السعادتين** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى

١٤٢٩هـ.

❁ **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: إسماعيل مرحبا، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى ١٤٢٩هـ.

❁ **العذب النمير في مجالس الشنقيطي في التفسير** لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد – مكة، ط: الثانية ١٤٢٦ هـ.

❁ **العقيدة الواسطية** لتقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف – الرياض، ط: الثانية ١٤٢٠هـ.

❁ **عقيدة أهل السنة والجماعة؛ مفهومها وخصائصها وخصائص أهلها** لمحمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة – الرياض، ط: الثانية ١٤١٩هـ.

❁ **علماء نجد خلال ثمانية قرون** لعبد الله عبد الرحمن آل بسام، دار العاصمة – الرياض، ط: الأولى ١٤١٩هـ.

❁ **غاية الأماني في الرد على النبهاني** لأبي المعالي محمود شكري الألوسي، تحقيق: أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي، مكتبة الرشد، الرياض، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

❁ **غريب الحديث** لأبي سليمان حمد بن محمد البستي المعروف بالخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار الفكر، ط: ١٤٠٢هـ.

❁ **الفتاوى الكبرى** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٨هـ.

❁ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** لأبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين الشهير بابن رجب، تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن الجوزي – السعودية، ط: الثانية

١٤٢٢هـ.

❁ **فتح الباري شرح صحيح البخاري** لأبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، ط: ١٣٧٩.

❁ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير** لمحمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط: الأولى ١٤١٤ هـ.

❁ **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد** لعبد الرحمن آل الشيخ، دار السلام – الرياض، ط: الأولى ١٤٢١هـ.

❁ **الفتوى الحموية الكبرى** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: د. حمد التويجري، مكتبة دار المنهاج - الرياض، ط: الأولى ١٤٣٠هـ.

❁ **فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها** لغالب عواجي، المكتبة العصرية الذهبية – جدة، ط: الرابعة ١٤٢٢ هـ.

❁ **الفصل في الملل والأهواء والنحل** لأبي محمد علي بن أحمد ابن حزم، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت.

❁ **الفوائد** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى ١٤٢٩هـ.

❁ **فيض القدير** لعبد الرؤوف المناوي، دار الكتب العلمية –بيروت، ط: الأولى ١٤١٥ هـ.

❁ **القاموس المحيط** لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، الطبعة الحجرية.

القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى

❁ **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم

الجوزية، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى ١٤٢٨هـ.

- **الكبائر** لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، مكتبة الفرقان، تحقيق: مشهور حسن سلمان، ط: الثانية ١٤٢٤هـ.
- **كتاب الإيمان أركانه حقيقته نواقضه** لمحمد نعيم ياسين، دار عمر بن الخطاب – الاسكندرية.
- **كتاب الروح** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى ١٤٣٢هـ.
- **كتاب السنة** لأبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، ط: الأولى ١٤٠٠هـ.
- **كتاب الشريعة** لأبي بكر، محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: د. عبد الله الدميجي، دار الوطن – الرياض، ط: الثانية ١٤٢٠هـ.
- **كتاب الصلاة** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عدنان البخاري، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة، ط: الأولى ١٤٣١هـ.
- **كتاب العين** لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- **كتاب الكليات** لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: ١٤١٩هـ.
- **الكشاف عن حقائق التأويل غوامض التأويل** لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، مكتبة العبيكان، ط: الأولى ١٤١٨هـ.
- **الكشف والبيان** لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

❁ **الكليات** لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: ١٤١٩هـ.

❁ **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة** لمحمد بن محمد الغزي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١٨هـ.

❁ **لباب التأويل في معاني التنزيل** لأبي الحسن علاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن، تحقيق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى – ١٤١٥ هـ.

❁ **اللباب في علوم الكتاب** لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي الدمشقي النعماني، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤١٩هـ.

❁ **لسان العرب** للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر – بيروت، ط: الثالثة ١٤١٤هـ.

❁ **مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة** لناصر عبد الكريم العقل، دار الوطن للنشر، ط: الأولى ١٤١٢هـ.

❁ **مباحث في علوم القرآن** لمناع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط: الثالثة ١٤٢١هـ.

❁ **مجلة البحوث الإسلامية**، البحث: الإيمان باليوم الآخر أدلته وأثره في حياة للدكتور أحمد محمد أحمد جلي العدد: السادس والثلاثون الإصدار: ربيع الأول سنة هـ.

❁ **مجمع الأمثال** لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، قدم له وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية- بيروت، ط: الثالثة ٢٠١٠م.

❁ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** لأبي بكر نور الدين علي بن الهيثمي، دار الفكر، بيروت

- ١٤١٢ هـ.

❁ **المجموع شرح المهذب للشيرازي** للإمام أبي زكريا محي الدين النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد – جدة.

❁ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية** جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن القاسم، طباعة ورثة عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط: الأولى ١٤٢٣هـ.

❁ **مجموع فتاوى ورسائل محمد بن صالح العثيمين** جمع وترتيب فهد بن ناصر بن إبراهيم السلمان، دار الوطن - الرياض، ١٤١٣هـ.

❁ **مجموعة الرسائل والمسائل** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار الكتب العلمية لبنان، ط: الأولى١٤١٢هـ.

❁ **محاسن التأويل** لمحمد جمال الدين بن محمد القاسمي، تحقيق: محمد عيون السود، دار الكتب العلميه – بيروت، ط: الأولى ١٤١٨ هـ.

❁ **محبة الرسول بين الاتباع والابتداع** لعبد الرؤوف عثمان، طبع على نفقة أحد المحسنين تحت إشراف الرئاسة العامة للبحوث والإفتاء، ط: ١٤١٤.

❁ **محنة الإسلام الكبرى** للدكتور مصطفى طه بدر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الثانية ١٩٩٩م.

❁ **المحيط في اللغة** للصاحب إسماعيل بن عباد، تحقيق: محمد حسين ياسين، مطبعة المعارف – بغداد، ط: الأولى ١٣٩٥هـ.

❁ **مختار الصحاح** لأبي بكر محمد بن عبدالقادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط: ١٤١٥ هـ.

❁ **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** لابن القيم، اختصار محمد بن

الموصلي، تحقيق: د. الحسن العلوي، أضواء السلف- الرياض، ط: الأولى ١٤٢٥هـ.

- **مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي** لشمس الدين الذهبي، تحقيق واختصار: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط: الثانية ١٤١٢هـ.
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، ط: الثانية ١٣٩٣هـ.
- **مدخل لدراسة العقيدة** لعثمان جمعة ضميرية، مكتبة السوادي للتوزيع، ط: الثانية ١٤١٧هـ.
- **المستدرك على الصحيحين** محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤١١هـ.
- **المستدرك على مجموع الفتاوى** لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ط: الأولى ١٤١٨ هـ.
- **المستقصى في أمثال العرب** لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دارالكتب العلمية – بيروت، ط: الثانية ١٩٨٧م.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: الأولى ١٤١٦هـ.
- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي** لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت.
- **مع الإثني عشرية في الأصول والفروع** لعلي بن أحمد علي السالوس، دار الفضيلة بالرياض، دار الثقافة بقطر، مكتبة دار القرآن بمصر، ط: السابعة ١٤٢٤ هـ.

❁ **معالم التنزيل** الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبدالله النمر وآخرون، دار طيبة، ط: الرابعة ١٤١٧هـ.

❁ **معالم الدعوة في قصص القرآن العظيم** للدكتور عبد الوهاب الديلمي، دار المجتمع – جدة، ط: الأولى ١٤٠٦هـ.

❁ **معاني القرآن** لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٣هـ.

❁ **معاني القرآن وإعرابه** لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، ط: الأولى ١٤٠٨ هـ.

❁ **معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ** لبكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للنشر والتوزيع – الرياض، ط: الثالثة ١٤١٧ هـ.

❁ **المعجم الوسيط** لإبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

❁ **المغني** لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الفكر – بيروت، ط: الأولى ١٤٠٥هـ.

❁ **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة** للإمام محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن قائد، دار عالم الفوائد، ط: الأولى ١٤٣٢هـ.

❁ **المفردات في غريب القرآن** لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم ـ دمشق، ط: الثالثة ١٤٢٣هـ.

❁ **مقامات الحريري** لأبي محمد القاسم بن علي الحريري، مطبعة المعارف، بيروت ١٨٧٣م.

❁ **مقاييسُ اللغة** لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط: ١٣٩٩هـ.

❁ **الملل والنحل** لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: أمير مهنا وعلي فاعور،

دار المعرفة، ط: الثالثة ١٤١٤هـ.

- **مناهل العرفان في علوم القرآن** لمحمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط: الثالثة.
- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية** لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط: الأولى ١٤٠٦هـ.
- **منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد** للدكتور عثمان علي حسن، دار كنوز إشبيليا، ط: الأولى ١٤٢٠هـ.
- **منهج القرآن الكريم في إثبات عقيدة البعث بعد الموت** للدكتور منظور بن محمد رمضان.
- **منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام** للدكتور: حمود فرج الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى ١٤٢٤هـ.
- **منهج أهل السنة والجماعة في تدوين علم العقيدة** للدكتور ناصر الحنيني، مركز الفكر المعاصر، ط: الأولى ١٤٣١هـ.
- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الرابعة ١٤٢٠ هـ.
- **موسوعة بيان الإسلام تأليف مجموعة من الباحثين**، دار نهضة مصر للنشر.
- **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم** لمحمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، ط: ١٤٢٦هـ.

❁ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** لأبي المحاسن يوسف بن تغري الظاهري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب مصر.

❁ **النشر في القراءات العشر** لأبي الخير محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].

❁ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** لأبي بكر إبراهيم بن عمر ابن البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

❁ **النكت والعيون** لأبي الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية – بيروت.

❁ **النهاية في غريب الحديث والأثر** لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

❁ **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار** لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، إدارة الطباعة المنيرية.

❁ **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه** لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، إشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، نشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة، جامعة الشارقة، ط: الأولى ١٤٢٩هـ.

❁ **الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب** لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن قائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط: الأولى ١٤٢٨هـ.

۞ **الواضح في علوم القرآن** لمصطفى البغا ومحيي الدين مستو، دار الكلم الطيب، ط: الثانية ١٤١٨هـ.

۞ **الوافي بالوفيات** لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ط:١٤٢٠هـ.

۞ **الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة)** لعبد الحميد الأثري، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

۞ **وسطية أهل السنة بين الفرق،** للدكتور محمد باكريم، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط: الأولى ١٤٢٩ هـ.

۞ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

فهرس المحتويات